رؤف الواعظ

الى النّدّ اللغوي
فاضل السامرائي مع تقدير
واحترامي

١٤/٥/١٩٧١

معْروف الرّصافي

حَياته وأدبُه السّياسيّ

١٨٥٧٥٨

مكتبة وزارة الشؤون الثقافية والسياحة والإعلام

الناشر
دار الكتاب العربي بمصر
محمد جلبي البنداري

الإهداء

إلى أبوَيّ الرحيمين . . .

أهدي هذا الكتاب . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ليس ثمة شك فى أن هذا البحث[1] ما هو إلا محاولة لدراسة أدب حر موجّه، ذى رسالة خالدة حية، وضع صاحبه جل طاقاته وانفعالاته فى خدمة هذه الأمة التى رزحت تحت الاستعمار قروناً طويلة من الدهر، وقاست من العنت والاضطهاد، والغدر والفساد، ما لو امتحنت به أمة غيرها لعفا عليها الزمن، وصارت حديث الغابرين.

ولكن الأمة العربية، التى منحها الوجود قوة ومناعة عظيمتين، استطاعت أن تصمد أمام هجمات الأعداء المتكررة للنيل منها، والقضاء عليها، وتمكنت من أن تسير فى طريقها، بعد أن عاركت وصارعت صراعا مريراً عنيفاً، وبقيت ثابتة تؤكد وجودها وذاتيتها فى زحمة هذه الحياة.

وكما بقيت الأمة العربية حية زاهرة، تتنعم بعظمتها وخلودها، بقيت ثقافتها كذلك سائرة فى طريقها تعارك وتصارع، واستطاع الشعر بصورة خاصة، أن يثبت وجوده وبقاءه على مر الأزمان والأجيال، وعلى الرغم مما أصابه من ركود وفتور شديدين.

ولكن حينما ارتفع الأدب العربى فى العراق خاصة، فى أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، عن حدود النزعة الفردية، وانفلت من أسارها، ومد عينيه إلى خارج هذه الحدود، وتخطى كثيراً من قيود التقليد وأصفاده، وبدأ يشارك مشاركة وجدانية فى آلام الشعب وغاياته وأمانيه، ويلتزم بانفعالاته وأحاسيسه، ويسلك طرق حياته ودروبه، وجدت فى العراق طبقة من الشعراء والأدباء جعلت نصب عينها التعبير عن هذه الحياة بكل أغراضها وانفعالاتها وأمانيها.

---

(١) نوقشت هذه الرسالة فى كلية الآداب بجامعة القاهرة بتاريخ ١٠/٥/١٩٦١.

وهكذا برز للوجود الشعر السياسى والاجتماعى .

وهكذا بدأت شجرة الشعر تثمر ثماراً ، حلوة المذاق ، ندية ، طرية ، يلتهمها الآكلون أكثر ما يكون الالتهام ، ويتلذذون بها أطيب مايكون التلذذ .

وقد بدأت الدراسات والأبحاث الأدبية تتجه هى الأخرى اتجاها يتفق وسير هذا الأدب . فأقبل طلاب الأدب فى هذا العصر على دراسة هذا الشعر ، وتفهم أساليبه ، والاحاطة بأغراضه واتجاهاته . فظهرت جملة من الكتب ، درست الأدب العربى فى العراق ، ودرست أهدافه وخصائصه على وجه الاجمال ، كتب يستطيع القراء والباحثون أن يعتمدوا عليها إلى حد كبير . كما اتجه آخرون إلى دراسة اتجاه واحد فى هذا الأدب ، أو دراسة تياراته واتجاهاته على العموم ، دراسة تتميز هى الاخرى بالروية والاتقان .

وأنا حين أقبلت على ديوان الرصافى ، بعد أن لستهوتنى فيه الروح الوثابة التى كانت تشع من بين أبياته وعباراته ومعانيه ، والتى كانت تنفذ إلى روحى فتأجج سميرها ، وإلى أحاسيسى ومشاعرى فتزيدها طنيناً ، يله صراخاً . . .

أقول ، حين أقبلت على ديوانه ، لفت نظرى أن أغلب هذا الشعر وأظهره ، هو فى السياسة والحماسة ، وما يدور حولهما من معان وأغراض . ولهذا رأيت أن أبحث فى هذا الشعر ، الشعر السياسى ، لهذا السبب ، وهو أنه أظهر شعره ، ولسببين آخرين :

الأول : هو افتقار المكتبة العربية إلى كتاب عن الرصافى فى هذا الموضوع نفسه ، ودراسته دراسة علمية صحيحة ذات سعة وشمول واستقصاء ، تام علماً بأنه أهم مواضيع شعره ، وأنبل أهدافه وغاياته .

الثانى : هو أن أشارك فى دراسة مثل هذا الأدب الهادف البناء الذى يحتل الرصافى مكان الصدارة فيه ، وكان أول من مسك عموده .

ذلك أننا فى هذا العصر أحوج مانكون إلى مثل هذه الدراسات الأدبية ، حتى نستطيع أن نكشف بكل جلاء ووضوح عن بعض أدبنا الذى يساير ركب الأمة

العربية فى تحررها وانطلاقها . وأيضاً لكى نقدر الشعراء العاملين فى سبيل إنهاض هذه الأمة ، المتفانين فى خدمتها ، الآخذين بأيديها نحو المجد والسؤدد .

فمن أجدر بعد ذلك بالدراسة من شاعر طفح ديوانه بغرر القصائد التى نظمها فى سبيل رقى أمته وإعلاء كلمتها ؟ وهو القائل (أغرد إذا رأيت بلادى عامرة وأنوح إذا رأيتها غامرة . أطرب كل الطرب إذا رأيت كرام قومى يتعاونون ولكن معاذ الله أن أقنط إذا رأيتهم يتخاذلون . أحمد وأسبح بحمد المصلحين وأصب صيب اللعنات على المفسدين[1]).

ثم . . .

من أخلد منه ، وهو أول شاعر معاصر كان شعره صورة صادقة رائعة من صور التغنى بالعروبة وأمجادها وتاريخها التليد ؟ ! .

على أنه قد يبدو لأول وهلة أن هذا الموضوع من السهولة بحيث لايستحق أى جهد يصرف فيه ، لأنه موضوع محدد العنوان ، واضح الخطوط والمعالم .

والحق ، أن الأمر قد يبدو كذلك لأول مرة . ولكن عند البحث والتتبع والاستقصاء ، وجدنا أنه موضوع متعدد الجوانب ، واسع الدلالة ، كثير النقاش . وقد دفعنا كل رأى فيه إلى القراءة والبحث فى أصول السياسة ومجرى الحوادث السياسية واتجاهاتها وانفعالاتها ، قراءة تطلبت كثيراً من العمق والروية والتفسير الصحيح .

وما أخالنى استطعت أن أبت برأى من هذه الآراء عن موقف وقفه الرصافى من الأحداث السياسية ، أو عن مناسبة من تلكم المناسبات التى شارك فيها بقصيدة أو أكثر من قصائده السياسية ، إلا بعد أن تتبعت هذه المناسبة ، أو ذلك الموقف ، فى مظان الكتب السياسية ، ودرست ظروفهما وملابساتهما حتى استطعت أن أحكم ما للرصافى وما عليه .

ولا غرو أننا فى أحكامنا على مواقف الرصافى السياسية ، الناتجة عن هذه الدراسة المتميزة بالروية ، والمتجردة عن العاطفة ، قد خالفنا بعضا من الأحكام التى كان قد

---

(١) جريدة الامل العدد ٢ — ٢ تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٩٢٣ .

أبداها بعض الأساتذة الذين كتبوا عن الرصافى. والأمثلة على هذا كثيرة . وإذا أردت أن اختار مثلا من أمثلة هذه المخالفة التى لا أبديها عن عمد أو سابق أصرار ، فاختار موقفه من ثورة الشريف حسين . وأقول هنا إن كثيراً من رجال العروبة والسياسة وحتى الأدباء ، قد استهجنوا مرقف الرصافى من هذه الثورة التى وضع فيها العرب جل أمانيهم فى التحرر والاستقلال والوحدة. ولاريب فى أن هذا الاستهجان إنما هو تعبير ذى سمة عاطفية ، غايته تعبئة القوى القومية لمحاربة الأتراك العثمانيين ، والانفصال عنهم، وإقامة كيان عربى مستقل. ولهذا فإن هؤلاء جميعاً كانوا يتمنون أن يقف الرصافى من هذه الثوره موقف من يؤيدها ويباركها ويدعو إليها ، لا أن يقف منها موقف ترك المنكر لها ، الذام لقائدها الشريف حسين .

ولا شك عندى أن هذا الحكم على الرصافى فى مثل هذا الموقف ، حكم غير منصف ، ولا يسعف أصحابه ، عند التتبع العلمى ، المجرد عن العاطفة فى إلقاء اللوم — أى لوم — على الرصافى ، وتعنيفه ، واعتباره بالتالى مقصراً أيما تقصير ، مالم ندرس دراسة عميقة شاملة أحوال هذه الثورة ، وظروفها وملابساتها ، وحتى الزمن الذى حدثت فيه هذه الثورة، لنستطيع أن نحكم عليه بعدئذ ، ونرى هل جانبه التوفيق فى عدم تأييده للثورة ، أم إنه كان على حق حينما اتخذ منها هذا الموقف السلبى كما سنرى.

وعلى هذه الصورة ، جعلت الحق دائماً نصب عينى ، فترفعت عن الهوى ، وابتعدت عن التحامل والمجاملة ، فى كل رأى ارتأيته ، وكل كلمة سطرتها .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى دراسة أدبه السياسى هذا ، واستجلاء بعض انفعالاته وأحاسيسه . كما أرجو أن أكون قد وفقت فى اظهار شخصيته السياسية التى اتضحت لنا أكثر ما اتضحت ، وبصورة مشرقة جذابة ، عن طريق شعره الذى كان يعالج فيه كثيرا من الآراء والأفكار والاتجاهات والأحداث السياسية التى عاصرها الرصافى وصورها تصويراً صريحاً صادقاً .

وقبل أن أصل إلى نهاية هذا التمهيد ، أحب أن أشير إلى أنى استطعت أن ألم — بالاضافة إلى ماتيسر لى الاطلاع عليه من الكتب التى ألفت عن الرصافى ، أو درست جانباً واحداً ، أو جوانب متعددة من حياته أو شعره —

بكثير من المجلات والجرائد التى جاء ذكر بعضها فى هذه الرسالة ، والتى لم يلتفت إليها باحث قبلى ، مما كان لها كبير عون على تفسير كثير من الأحوال والأحداث السياسية التى عاصرها الرصافى ، وعالج قضاياها . وان أجد ، بصورة خاصة فى الجرائد، بعض البيانات التى كتبها الرصافى بقلمه أو تلك التى صرح بها فى بعض المناسبات .

كما رجعت إلى محاضر مجلس النواب العراقى فى الفترة التى كان الرصافى نائباً فيه ، فاستطعت أن أحصل على خطابه الرائع الذى كان قد القاه فى المجلس حول معاهدة ١٩٣٠ . فعقدت لهذا الخطاب ، كما عقدت لتلك البيانات ، ملحقاً خاصاً آخر هذه الرسالة ، حتى يسهل أمر الاطلاع عليها لمن يريد أن يستفيد منها جميعاً .

وقد نشرت فى هذا الملحق أيضاً بعض النماذج من تفكير الرصافى السياسى نقلتها من جريدته (الأمل) التى أشرت إليها أكثر من مرة فى صفحات هذا البحث .

كما أننى قد نشرت فى هذه الرسالة ، ولأول مرة ، بعض القصائد السياسية التى لم تنشر فى الديوان ، أو الصحف ، أو المجلات ، لأسباب سياسية معلومة ، وكان قد حصل عليها الدكتور بدوى طبانة خلال إقامته فى بغداد من بعض أصدقاء الرصافى وأصحابه . فتفضل مشكوراً ووضعها تحت تصرفى ، حتى يكون هذا البحث متماسك الأجزاء ، شامل الخطوط والمعالم، واضح الصور والظلال . وهو حريص على أن يخرج هذا البحث بمثل هذه الصورة، حرصه على محبته ووداده لشاعرنا الخالد معروف الرصافى.

ولا يسعنى بعد هذا ، بل قبل هذا ، إلا أن أتوجه بالشكر العميق إلى استاذتى الدكتورة سهير القلماوى التى أشرفت على هذا البحث ، ورعت مؤلفه خير رعاية ، وأولته من حدبها وعطفها مايقصر عن افصاحه وإيضاحه بيان .

كما أشكر أعظم الشكر اللجنة التى فحصته ومحصته ، وأرشدت مؤلفه إلى سداد الرأى ، وحصافة العمل العلمى الخالص ، وأعنى بها الأستاذين الفاضلين الدكتور عبد الحميد يونس والدكتور عبد العزيز الاهوانى .

وبعد . . .

أعود فأقول : هذا بحث فى شاعر خدم أمته بكل ما أوتى من قوة وإيمان ، ولاقى

مالاقى فى سبيل ذلك ، ضروبا شتى من الفاقة والحرمان والعذاب . ولـكنه ظل صابراً مجاهداً حتى انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء .

على أنه ضرب لنا من نفسه مثلا كأروع ماتـكون الأمثال ، فى شدة العزم ، ورسوخ العقيدة ، وصلابة الإيمان . وأضاء أمامنا الشموع فى زحفنا العربى المقدس ، وأنار لنا مسالك الطرق وسبلها ، وعلينا بعد ذلك تبعة السير إلى أهدافنا ، تلك الأهداف التى كان يحثنا عليها حثاً ، ويطلب منا الوصول إليها سراعا ، لنؤكد ، من جديد ، مجدنا وعزنا وسؤددنا كما أكدناها فى الماضى .

والله نسأل أن يوفقنا إلى السداد فى هذا البحث ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

رءوف الواعظ

مقدمة

إن أول دراسة منظمة عن شاعرنا معروف الرصافى ، هى دراسة الدكتور بدوى طبانة بعنوان (معروف الرصافى — دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية) ٢٨٦ صفحة ، الطبعة الثانية ، مطبعة الرسالة سنة ١٩٥٧ ، وكانت الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧ .

فلقد أتيح لمؤلفه الدكتور طبانه ، وهو عربى من الإقليم الجنوبى ، أن يبقى مدة طويلة فى بغداد ، مدرساً لآداب العرب فى إحدى كلياتها .

ولقد استطاع أن يدرس عن كثب، بيئة العراق السياسية والاجتماعية والفـكرية، وأن يدرس فى نفس الوقت شعر الرصافى ومؤلفاته ، فخرج علينا بكتابه آنف الذكر .

وقد قسم المؤلف بحثه إلى بابين ، أولهما عن حياته ، وثانيهما عن شعره .

درس فى الباب الأول أموراً شتى من حياة معروف الرصافى . إذ عرض لأسرة الرصافى ، وثقافته ، واسهامه فى كفاح الحياة ، كما عرض لأخلاق الرصافى ، وعقيدته الدينية .

أما الباب الثانى ، فقد عقده المؤلف لدراسة شعر الرصافى. وتناول فيه شعره الوطنى فى العهد العثمانى ، ثم عرج على دراسة شعره بعد هذا العهد وجعل عنوانه « فى عهد الانتداب — فى عهد الحـكم الوطنى — فى عهد الاستقلال » .

كما تناول المؤلف أيضاً لونا آخر من شعر الرصافى الوطنى وموضوعه « فى سبيل العروبة » . كما درس شعره الاجتماعى ، وأبرز لنا الصور التى كان الرصافى قد أودعها فى هذا الغرض من شعره ، وأعنى به الشعر الاجتماعى .

ومن صور هذا الشعر، لوحاته الخالدة التى تتعلق بالعلم ، ومشاهد البؤس والفقر ، ومظاهر التعصب ، وبعض المسائل الأخلاقية الأخرى .

وقد تناول فى هذا الغرض من شعره ، حالة المرأة العربية .

وبعد ذلك عرض المؤلف لسائر أغراضه الأخرى ، مثل الغزل والوصف والفلسفيات والمدح والرثاء والشكوى والفخر والهجاء .

كما عقد المؤلف فصلا خاصا ، درس فيه شعره من الناحية الفنية ، وجعل عنوانه « بين التجديد والتقليد » .

وقبل أن ينتهى الدكتور طبانه من بحثه هـذا ، عرض ، وبصورة مختصرة ، لآثار الرصافى .

كما الحق هذا البحث بمختارات من شعره .

ومن هذا كله ، نرى أن هذه الدراسة ، هى أول دراسة شاملة منظمة ظهرت عن شاعرنا معروف الرصافى .

ومن عرضنا السريع لهذه الدراسة ، فإننا نستطيع أن نرى الفرق بين طبيعة بحثنا ، وطبيعة هذا البحث .

فـكتاب الدكتور بدوى طبانه يتناول حياة الرصافى بصورة عامة ، ويتناول أيضاً شعره ، مبيناً سائر الأغراض الشعرية التى طرقها الشاعر .

أما بحثنا، فاننا ندرس فيه حياة الرصافى وأدبه فيما يختص بالناحية السياسية ، وأثر الاتجاهات والأحداث السياسية فى هذه الحياة ، وهذا الأدب ، وأثر الشـاعر فيهما . ومعنى ذلك ، أن دراستنا هذه ، ستـكون دراسة مفصلة عن حياة معروف الرصافى السياسية ، وأدبه السياسى ، وبيان وسائله وغاياته . فى حين أن دراسة الدكتور لهذه النواحى جميعها هى دراسة مختصرة ، بل هو يغفل أحيانا دراسة بعض الأحداث السياسية التى كانت ذات أثر فعال فى توجيه سلوك شاعرنا الرصافى وأدبه .

ولما كانت طبيعة بحث الدكتور هى دراسة شاملة لحياة الرصافى ، ولأدبه ، فانه لمن الطبيعى أن يمر على هذه الأحداث السياسية مراً مختصراً ، دون أن يؤكد خطر هذه الأحداث فى تـكوين شخصية الشاعر السياسية وصقلها. بيد أننا قد أكدنا فى بحثنا هذا ، أثر الأحداث السياسية فى تبلور شخصيته وآرائه ، بعد أن بذلنا جهدنا للاستقصاء عنها حادثة بعد حادثة ، ومناسبة وراء مناسبة .

ومن ثم . .

فاننا قد بسطنا القول فى الرصافى وعلاقته بالحـكم الوطنى ، كما عرضنا لجرأته المتنـاهية ، وعدم خضوعه للمستعمرين الانجليز واذنابهم من رجال الحـكم فى العراق .

فى حين أن الدكتور طبانه قد مر على هذه المرحلة الهامة من حياة الرصافى مراً سريعاً . كما أغفل بعض الاحداث الخطيرة . . . وله العذر فى ذلك ، لأنه ليس من الميسور تناول هذا الموضوع فى العهد الملـكى السابق .

ومن ناحية أخرى . .

فان الدكتور طبانه قد درس شعر الرصافى من الناحية الاجتماعية على أنه موضوع مستقل بذاته . فى حين أننا قد ربطنا هذا الشعر الاجتماعى بعضه ببعض ، وألحقناه فصلا متعلقا بحياة معروف الرصافى السياسية ، وذلك حين أكدنا أن الرصافى ليس شاعراً فحسب ، بل هو سياسى أيضا ، له دعوته السياسية الواضحة، وأن هذه الدعوة السياسية قد اختط لها منهجا متمثلا ليس فى الإصلاح الاقتصادى والسياسى فحسب ، بل وفى الإصلاح الاجتماعى أيضاً .

ولقد قلنا فى تبرير هذا الرأى إننا لا يمكننا الفصل بين هذه المشاكل الاجتماعية ، والمشاكل الاقتصادية والسياسية ، لأن المشاكل الاجتماعية التى نراها ونحسها هى وليدة النظام الاقتصادى والسياسى الحاضر. ولذا فنحن درسنا شعره الاجتماعى، وكذلك الاقتصادى ، فى ضوء هذا الرأى .

وبينما عرض الدكتور بدوى طبانه لشعره « فى سبيل العروبة » بصورة مختصرة ، ولو أن هذا البحث هو (الأول من نوعه لأن كتابه لأول مرة يدرس شعر الرصافى السياسى المتعلق بالوطن العربى من الزاوية القومية[1]) . . .

فاننا قد أكدنا هذا الموضوع لأهميته ، وأفردنا له من أجل ذلك ، بابا مستقلا ،

---

(١) القومية والاشتراكية فى شعر الرصافى للاستاذ هلال ناجى ص ٢١٣ . مطابع دار العلم للملايين فى بيروت ١٩٥٩ .

تناولنا فيه هذا الموضوع بالتفصيل ، من حيث أسباب بعث هذه النزعة القومية فى شعره . وحاولنا فى الوقت نفسه ، أن نحدد على وجه التقريب ، الزمن الذى بدأت فيه بوادر هذه النزعة المستقرة فى نفسه تطفو على شعره ، ثم تتبعنا بالتالى تطورها ، ودرسنا مقوماتها ، وكشفنا عن أهدافها .

أما سائر المواضيع الأخرى فى كتابه ، فلا علاقة لها بطبيعة بحثنا هذا ...

والكتاب الثانى الذى ألف عن الرصافى هو كتاب (أدب الرصافى — نقد ودراسة) للاستاذ مصطفى على (١٤٦) صفحة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٧ .

وفى هذا الكتاب يرد الاستاذ مصطفى على كتاب الدكتور بدوى طبانه ، لأنه كما يقول المؤلف ، رأى فيه مالا يحمد السكوت عليه[1] .

وقد قسم هذا النقد إلى ثلاثة أقسام ، تناول القسم الأول المقدمة ، وهى التى كتبها العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبى ، وفى الثانى التعليقات ، وأفرغ فى الثالث لما جاء فى الكتاب .

وفى هذا القسم ، أى القسم الثالث ، وهو القسم الخاص بنقده لما كتبه الدكتور طبانه ، تناول المؤلف الأمور التالية :

نسب الرصافى — زواجه — توظفه ونيابته — عقيدته — تشاؤمه — حنينه إلى العثمانيين — طبانه وفقهه الأدبى — نقدات شتى .

وهو فى نقده هذا (رد الحق إلى نصابة ، وصحح كثيراً من الأغلاط التاريخية والأدبية والاستنباطية التى ذهب إليها طبانة والشبيبى فى كتاب معروف الرصافى[2]) .

وهذا النقد ، كما عرضنا ، يشمل مواضيع مختلفة عن الرصافى ليست من صميم بحثنا . وإن كنا قد اعتمدنا على ما يرويه المؤلف فى بعض النقاط المتعلقة ببحثنا كل الاعتماد ، لأنه أصدق وأصوب من يستطيع أن يروى عن الرصافى ، ويكتب عنه ، وقد كان موضع ثقته وأمانته .

---

(١) صفحة ١٠ .

(٢) القومية والاشتراكية فى شعر الرصافى للاستاذ هلال ناجى صفحة ٢١٥ . مطابع دار العلم للملايين فى بيروت ١٩٥٩ .

كما أصدر الأستاذ مصطفى على مؤلفا ثانياً عن الرصافى سماه (الرصافى — صلتى به ، وصيته ، مؤلفاته) الجزء الأول (٢٩٨ صفحة) ، طبعة مطابع دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٤٨ .

وعن هذا الكتاب يقول المؤلف فى المقدمة (لا تقرأ فيه ترجمة كالتراجم التى تواطأ الكتاب على أن يكتبوها ، وألف الناس أن يقرءوها ، ولا تجد فيه لشعره تحليلا ، ولا لأدبه دارسة ، ولا لآرائه نقدا أو تقريظا[1]) .

بل إن المؤلف عرض لأمور ثلاثة ، صلته بالشاعر ، ووصيته ، ومؤلفاته . ومن هذه العناوين ، نرى أن هذا الكتاب لا علاقة له ببحثنا ، لانا لا نجد فيه لشعره تحليلا ، ولا لأدبه دراسة ، ولا لآرائه نقداً ، كما اعترف بذلك المؤلف نفسه .

وللاستاذ مصطفى على مؤلف ثالث عن الرصافى ، وهو مجموعة محاضرات القاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية — قسم الدراسات الأدبية — عام ١٩٥٣ — ١٩٥٤ (١٤٠ صفحة) دار مصر للطباعة سنة ١٩٥٣ . وهى فى الحق دراسة مختصرة ، نستطيع أن نصفها بأنها دراسة مدرسية عن حياة معروف الرصافى ، وعن شعره . أو كما يقول المؤلف نفسه عن هذه الدراسة بأنه وقف (موقف المعرف بأدب الشاعر ، لا موقف من يدرسه ويدرس آثاره دراسة وافية[2]) .

وفى هذا الكتاب عرض المؤلف لحياة الرصافى العامة عرضاً مختصراً جداً . كما عرض لمؤلفاته ، معرفا بها ، وهو اختصار للقسم الثالث من كتابه الثانى (الرصافى صلتى به ، وصيته ، مؤلفاته) .

كما عرض لآراء الرصافى فى الأدب واللغة .

ثم تناول شعر الرصافى ، والعلوم التى طرق أبوابها .

كما تناول شعره فى المرأة ، وحريته ، وبكاءه على العراق .

وأفرد بعد ذلك بحثاً موجزاً سماه (فى غمار السياسة) ، فعرض للرصافى ، فى الحياة النيابية ، والمعاهدة ، وحرية الصحافة .

---

(١) صفحة ٧ .

(٢) صفحة ١ .

ثم عرض لنزعة الرصافي القومية ، وعقيدته الدينية .

وألحق هذا الكتاب بذيل لبعض الأناشيد والأغانى المدرسية التى نظمها فى العراق .

ومن هذا العرض ، نرى أن هذا الكتاب لا يبحث فى موضوع معين لذاته ، ولا ينتهج خطة معلومة فى دراسة حياة الرصافى أو أدبه . وأنه ليس هناك من رابطة تجمع بين هذه المواضيع المختلفه ، إلا كونها تبحث فى الرصافى فحسب .

ولذا، فإن أغلب هذه المواضيع لاصلة لها ببحثنا ، وأن موضوع (فى غمار السياسة)، وموضوع (نزعة الرصافى القومية) هما وحدهما لهما هذه الصلة .

ومع ذلك فكل عمل المؤلف فى هذين الموضوعين أنه يذكر القصائد التى تتعلق بمواقف سياسة معينة ، دون ما دراسة لهذه المواقف ومعالجتها ، أو رسم ظروفها وأحوالها .

ومن أجل ذلك جاء عمل المؤلف الأدبى هذا مختصراً جداً فى هذين الموضوعين ، مثلما جاء مختصراً فى غيرهما من الموضوعات . وهو على صواب حينما ادعى أنه كان معرقا بأدب الشاعر ، ذلك انه لم يأت فى هذا الكتاب بجديد يمكن الاستفادة منه . خاصة وأن مؤلفه هذا قد نشر فى وقت متأخر بالنسبة لكتابيه الآخرين ، وبالنسبة للكتب الأخرى .

ونضيف إلى هذه المجموعة من الكتب ، كتاب (آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع) مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٥١ . وقد جمع هذه الآراء ورتبها الأستاذ سعيد البدرى ، وان ادعى أن مواضيع هذا الكتاب ، كتبها الرصافى بنفسه .

والصواب أن هذا الكتاب ليس من الكتب التى ألفها الرصافى ، ووضع عنوانه آنف الذكر . والدليل على ذلك أن الأستاذ مصطفى على لم يذكره فى جملة الكتب التى ألفها معروف الرصافى .

وإنما الأمر ، كل الأمر ، أنه استنسخها من كتاب للرصافى غير مطبوع حتى الآن ، اسمه (الرسالة العراقية) بحث فيه بعض ما له علاقة بالعراق من سياسة ودين واجتماع .

والسيد سعيد البدرى ، لم ينقل به من المواضيع الاجتماعية والسياسية ، غير نظام دعاوى العشائر ، ونقده المر الصريح لهذا النظام الجائر ، وغير نظام الاقطاع فى العراق ، الذى قال فيه كلاما صريحاً جريئاً .

كما عرض لموضوع المعاهدة التى عقدت بين بريطانيا والعراق عام ١٩٣٠ ، والتى انتقدها أشد الانتقاد وأقساه . والرصافى إذ يعرض لموضوع المعاهدة فى هذا الكتاب ، فإنما يردد كلامه الذى قاله وأذاعه فى مجلس النواب العراقى عندما كان نائباً فيه فى هذه الفترة .

أما موضوع الدين فلا صلة له ببحثنا .

وهناك كتاب آخر ألف عن الرصافى ، وهو كتاب (الرصافى فى أعوامه الأخيرة) (١١٠ صفحة) مطبعة الرجاء ببغداد سنة ١٩٥٠ ، ألفه كل من الأستاذين نعمان ماهر الكنعانى وسعيد البدرى . وهو يقسم إلى قسمين : القسم الأول ، كتبه الأستاذ نعمان الكنعانى ، والقسم الثانى ، كتبه الأستاذ سعيد البدرى .

وهما فى هذا الكتاب ، يدونان ذكرياتهما عن تصحب كل منهما للرصافى ، وعلاقتهما به . وقد سجلا كثيراً من أحاديث الرصافى وملاحظاته التى سمعاها منه .

وليس لهذا الكتاب صلة ببحثنا أيضاً ، لأنه لا توجد فيه دراسة منظمة منسقة لشعر الرصافى أو لحياته .

وهناك أيضاً كتاب آخر ظهر حديثاً بعنوان (القومية والاشتراكية فى شعر الرصافى) لمؤلفة الأستاذ هلال ناجى (٢٥٤ صفحة ، مطابع دار العلم للملايين ببيروت سنة ١٩٥٩) . تناول المؤلف فى هذا الكتاب شعر الرصافى من الناحيتين القومية والاشتراكية .

فى موضوع الاشتراكية ، يذهب المؤلف إلى أن فى شعر الرصافى الاشتراكى دعوة إلى الاشتراكية العربية . ونحن نتفق معه فى هذا الرأى ، ونحن نرى أيضاً أن الاشتراكية التى جاء بها الاسلام كانت ذات أثر كبير كذلك فى تفكير الرصافى فى هذا الموضوع .

أما الموضوع الثانى ، والأهم ، الذى درسه المؤلف بعناية فائقة، فهو موضوع القومية العربية فى شعر الرصافى .

ولقد حاول المؤلف فى هذا البحث ، أن يشد أغلب شعر الرصافى السياسى إلى موضوع القومية العربية .

وهذا فى رأينا تحميل لشعر الرصافى أكثر مما يحتمل ، إذ ليست كل القصائد السياسية التى نظمها الرصافى ، كانت تعبيراً عن تجارب قومية ، أملاها عليه الشعور القومى فحسب ، لأن الرصافى قد نظم كثيرا من القصائد السياسية ، للتعبير عن أسباب سياسية مختلفة ، وأن الشعور القومى كان أحد هذه الأسباب .

وقد صدر فى بغداد ، بعد الثورة المباركة ، كتابان عن الرصافى أحدهما بعنوان (مع الرصافى الثائر) سنة ١٩٥٩ ولم يكن فى مقدورنا أن نطلع عليه لعدم وصوله إلينا هنا فى القاهرة . وقد تحدث عنه الأستاذ هلال ناجى قائلا ، (انه ليس كتاباً عن الرصافى فى الحقيقة ، وإنما هو مختارات من شعره أغلبها منشور سابقاً ، جمعها خادمه عبد بن صالح ، وقدم لها ، وعنى بتحقيقها ، السيد ابراهيم العلوى[1]) .

أما الكتاب الثانى فهو (عبقرية الرصافى) لمؤلفه السيد عبد الصاحب شكر (مطبعة المعارف — بغداد سنة ١٩٥٨) . لم نطلع عليه لنفس السبب ، وإنما ذكره الأستاذ هلال ناجى وتحدث عنه قائلا : (انه لاتوجد خطة للمؤلف فى بحثه ، بل الأمر مجرد تداعى خواطر وأفكار يسوق بعضها بعضا دون ترابط[2]) .

وقد كتب الأستاذ رفائيل بطى فصلا عن الرصافى فى كتابه القيم (الأدب العصرى فى العراق العربى) المطبعة السلفية سنة ١٩٢٣ . والأستاذ بطى هو أول من أرخ لنا حياة الرصافى فى هذا الكتاب . كما أورد فيه نماذج من شعره .

كما أن الأستاذ رفائيل بطى قد أثبت حديثاً جرى بينه وبين الرصافى فى مجلة (الحرية) التى كان يصدرها ويرأس تحريرها عام ١٩٢٥ (العدد ١ صفحة ١٣٥) وهو حديث عام فى السياسة ، تحدث به الرصافى ، وأعلن فيه أن جميع المظاهر

(١) القومية والاشتراكية فى شعر الرصافى ص ٢١٨ طبع دار العلم للملايين فى بيروت ١٩٥٩

(٢) نفس المصدر ص ٢١٨ .

الاجتماعية والاقتصادية والعلمية تشد إلى السياسة ، وترتبط بها كل الارتباط . إذ أن كل هذه الشئون لاتدور فى هذا العصر إلا على محور السياسة . وأن العرب لايمكنهم أن يتمكنوا من بلوغ غاياتهم المطلوبة ، إلا إذا ملكوا أمرهم فى السياسة .

كما أن الأستاذ رفائيل بطى قد نعى الرصافى فى جريدته « البلاد » (العدد ٢٤٥٩ لسنة ١٩٤٥) نعياً كان له أبلغ الأثر فى نفوس أصدقاء الرصافى ومحبيه . إذ امتاز هذا المقال بعاطفة الحب والصداقة من الكاتب نحو صديقه الشاعر المتوفى .

وقد استعرض فى هذا النعى بعض الخطوط العامة لحياة الرصافى ، منذ نشأته حتى مماته . كما عرج الكاتب على دراسة مختصرة لشعر الرصافى ، وأقر بأن شعره امتاز بظاهرتين باهرتين هما : نصوغ الديباجة وشدة الأسر فى النظم وفصاحة الكلم ، ونزعة التمرد على الظلم والاستبداد وتعشق الحرية وإدراك خارق لموقومات الحياة الحديثة عند البشر .

إن أهم ما فى هذا المقال ، هو هذه الملاحظة عن شعره . وهى — كما نرى — ملاحظة عامة ، شملت شعره كله ، دون أن تكون هناك دراسة منهجية لموضوع معين فى شعر الرصافى .

وهناك مقال آخر كتبه الأستاذ بطى فى مجلة الأديب (العدد ٥ سنة ١٩٤٥ صفحة ٣٧) وتحدث فيه عن شجاعة الرصافى وجرأته على السلطان عبدالحميد . وضرب لذلك مثلا ، هو نفس المثل الذى رواه الرصافى نفسه للأستاذ كامل الجادرجى . غير أن الأستاذ الجادرجى قد نشر هذا الحديث متأخراً بالنسبة لمقال الأستاذ بطى، نشره فى مجلة « الثقافة الجديدة » (العدد الأول ، نيسان « إبريل » سنة ١٩٥٤) .

كما أذاع الأستاذ الجادرجى،ولأول مرة،فى هذا المقال ، كيف استدعى الرصافى من القدس إلى العراق ليقف موقف المعارضة من تنصيب الملك فيصل ملكا على العراق .

كما عقد الدكتور شوقى ضيف فى كتابه (دراسات فى الشعر العربى المعاصر) (٢٨٨ صفحة الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩) فصلا مختصراً درس فيه بعض الجوانب الإنسانية فى شعر الرصافى .

وقد أقر الدكتور المؤلف أن الرصافى كان (يكتظ قلبه بمشاعر إنسانية رقيقة تراها ماثلة فى كل جانب فى ديوانه ، إذ يدعو دعوة واسعة إلى التعاطف الإنسانى

والبر بالفقراء والمعوزين ، وأيضاً فإنه يدعو إلى التخلى عن كل مايشين أخلاق قومه وعقولهم (١) .

وبعد ذلك ينساق الدكتور شوقى ضيف وراء بعض هذه الجوانب الإنسانية فى شعر الرصافى . فعرض لموضوع الفقر والبؤس والشقاء والطلاق ، واختار لهذه الموضوعات قصائد تصور هذه الجوانب الإنسانية .

بيد أننا نرى أن الرصافى لم يطرق هذه الموضوعات الإنسانية لذاتها ، وإنما لأنها غاية من غايات الدين والقومية،اللذين كان الرصافى شديد التمسك بهما ، والدعوة لهما .

والرصافى حينما يتناول مثل هذه الأمور الإنسانية ، فإنما يتوصل لها عن هاتين الدعوتين ، اللتين تدعوان أول ما تدعوان ، إلى مثل عليا ، تفرضانها على معتنقيهما ، وتلزمانهم العمل من أجلها .

حتى أن القصيدة التى اختارها المؤلف الفاضل مثلا إنسانياً للأخاء والمحبة ، وهى قصيدة (فى سبيل الوطن) التى قالها الرصافى للتنديد بسياسة التفرقة بين المسلمين والمسيحيين ، والتى سنعرض لها فيما بعد . . . نقول على الرغم من أن موضوعها كان إنسانياً حقاً، فإن الدافع الأول لهذه الإنسانية ، فيما أرى ، ما أملته عليه عاطفته الدينية ، وشعوره القومى ، كما سنرى .

والأستاذ أمين الريحانى فى كتابه المعروف (قلب العراق) مطبعة صادر ببيروت ١٩٣٥ ، عرض للرصافى حينما تكلم عن النهضة الأدبية فى العراق .

وفى هذا المقال ، أو هذه الفصلة ، تناول الريحانى أموراً شتى عن معروف الرصافى، ومر على كل هذه الأمور مراً سريعاً جداً . وهى فى معظمها لا تتصل بطبيعة بحثنا .

والمؤلف قد غمز الرصافى فى عدة مواقف ، منها ادعاؤه أن شاعرنا حينما توجه إلى سوريا بعد تأليف حكومة عربية فيها ، وتعيين الملك فيصل ملكا عليها ، كان مفلساً فى عقائده الاجتماعية والسياسية والدينية(٢) .

(١) انظر ص ٦٢ .
(٢) الكتاب ص ٢٦٣ .

ولكنه على الرغم من ذلك يعود فيعترف بأن الرصافى كان جريئاً ، وكان شجاعا ، وأنه كان يحب الصراحة فى شعره ، وفى نثره ، وفى مجلسه( ) .

وقد عقد الأديب اللبنانى مارون عبود فصلا فى كتابه (على المحك — نظرات وآراء فى الشعر والشعراء) ٢٩٠ صفحة دار العلم للملايين ١٩٤٦ ، تحدث فيه عن بعض أشعار المناسبات التى أنشدها الرصافى عندما كان عضواً فى الوفد العراق الذى زار مصر سنة ١٩٣٦ . منها قصيدته التى قالها بحيفا فى فلسطين . وقصيدته التى قالها فى مدح عبد الرحمن عزام بعد حفلة أقيمت للوفد . وقصيدة يمدح بها حافظ عفيفى . وقصيدة أخيرة قالها فى دمشق عند رجوع الوفد من مصر .

وليس لهذا المقال ، كما نرى ، علاقة ببحثنا .

كما كتب الأستاذ أحمد حسن الزيات مقالين فى مجلة الرسالة ، أحدهما فى العدد ٦١٢ لسنة ١٩٤٥ بعنوان (معروف الرصافى) ، والآخر فى العدد ٦١٤ من نفس السنة بعنوان (الرصافى واغا خان) (أو الزعيم الأدبى والزعيم الدينى) .

وفى المقال الأول ، تحدث الأستاذ الزيات حديثاً عاماً عن الرصافى . وقد أقر فى ديباجته أن الرصافى ، كان أحسن الله إليه ، لسان العراق الصادق ، ينقل عن شعوره ، ويترجم عن أمانيه ، ويحدو لركبه المجاهد فى سبيل استقلاله وعزته بالحداء الحماسى المطرب ، ويصور خلجات نفسه ووساوس أحلامه بالشعر الصريح المعجب) .

وفى المقال الثانى (الرصافى وأغا خان) فقد هيج الكاتب وأثاره ، أنه فى أسبوع واحد يموت شاعر كان باستطاعته أن يعيش اهنأ عيش وأرغده . ولكنه فضل أن يموت معدما فقيراً فى سبيل عقيدته التى نذر نفسه من أجلها . وآخر يوضع فى ميزان ليقدر وزنه ذهباً هو أغا خان . وفى ذلك يقول الكاتب (حظك يا معروف هو حظ الأديب منذ كان فى الناس أدباء ، وفى الأرض أدب . يموت أمثالك شرقا بالبؤس ، كما يموت أغاخان غرقاً فى النعمة) .

ويستمر الكاتب مقرا : (لوشاء الرصافى أن يهادن السلطان ، ويمالق الحكومة

(١) الكتاب ص ٣٦٢ .

وينافق الشعب ، لعاش أرغد عيش ، وبلغ أرق المناصب . ولكنه آثر الحرية على الرق ، واستحب الصراحة على الرياء ، فذهب شهيد كرامته وعفته) .

وبعد . . .

فهذا عرض سريع لكل ما استطعنا أن نحصى مما ألف عن الرصافى ، وتناول حياته وشعره ، أو جانبا ، أو جوانب متعددة معينة من هذه الحياة ، وهذا الشعر .

كما أشرنا كذلك إلى بعض المقالات التى كتبها بعض الأدباء الأفاضل الذين لهم منزلة خاصة معلومة فى عالم الأدب والنقد فى المجلات المختلفة .

وهناك غير هؤلاء ، كثيرون كتبوا عن الرصافى . ولكن ما كتبوه ليس إلا استعراضا عاما لحياته واشعره ، إذ ليس فيه أية دراسة علمية مفيدة لمن يريد أن يكتب بحثا علمياً عن معروف الرصافى .

ولقد اطلعنا ، لإتمام بحثنا هذا ، على عدد كبير من الجرائد والمجلات غير التى ذكرناها آنفا . . . اطلعنا على أعداد مختلفة من خمس وأربعين مجلة كتبت عنه فى العراق وخارجه . واطلعنا على أعداد مختلفة من ست وثلاثين جريدة عراقية . ونحن نحتفظ بأرقام السنين التى صدرت فيها هذه المجلات والجرائد ، وأرقام أعدادها وصفحاتها ، إلى عام ١٩٥٨ ، حيث قامت ثورة تموز (يوليو) المباركة ، ثم لم يتح لنا الإطلاع على هذه المجلات والجرائد التى كتبت عنه مما صدر بعد هذه الثورة الميمونة لوجودنا فى القاهرة .

الباب الأول

دراسة فى بيئة الشاعر السياسية والأدبية

حتى منتصف القرن العشرين

وينافق الشعب ، لعاش أرغد عيش ، وبلغ أرقى المناصب . ولـكنه آثر الحرية على الرق ، واستحب الصراحة على الرياء ، فذهب شهيد كرامته وعفته) .

وبعد . . .

فهذا عرض سريع لـكل ما استطعنا أن نحصى مما ألف عن الرصافى ، وتناول حياته وشعره ، أو جانبا ، أو جوانب متعددة معينة من هذه الحياة ، وهذا الشعر .

كما أشرنا كذلك إلى بعض المقالات التى كتبها بعض الأدباء الأفاضل الذين لهم منزلة خاصة معلومة فى عالم الأدب والنقد فى المجلات المختلفة .

وهناك غير هؤلاء ، كثيرون كتبوا عن الرصافى . ولـكن ما كتبوه ليس إلا استعراضا عاما لحياته ولشعره ، إذ ليس فيه أية دراسة علمية مفيدة لمن يريد أن يكتب بحثا علمياً عن معروف الرصافى .

ولقد اطلعنا ، لإتمام بحثنا هذا ، على عدد كبير من الجرائد والمجلات غير التى ذكرناها آنفا . . . اطلعنا على أعداد مختلفة من خمس وأربعين مجلة كتبت عنه فى العراق وخارجه . واطلعنا على أعداد مختلفة من ست وثلاثين جريدة عراقية . ونحن نحتفظ بأرقام السنين التى صدرت فيها هذه المجلات والجرائد ، وأرقام أعدادها وصفحاتها ، إلى عام ١٩٥٨ ، حيث قامت ثورة تموز (يوليو) المباركة ، ثم لم يتح لنا الإطلاع على هذه المجلات والجرائد التى كتبت عنه مما صدر بعد هذه الثورة الميمونة لوجودنا فى القاهرة .

الباب الأول

دراسة فى بيئة الشاعر السياسية والأدبية

حتى منتصف القرن العشرين

الفصل الأول

البيئة السياسية

نظرة تاريخية :

لم تكن بيئة الشاعر ، فى يوم من الأيام ، وليدة زمن محدود ، وإنما هى حصيلة عوامل مختلفة ، تمتد فى ازمان متباعدة ، امتداداً متشابكا ، لا يمكن الفصل بينها فى حال من الأحوال .

ولهذا ، فإننا سنتبع امتداد هذا الزمن فى دراستنا عن بيئة الشاعر السياسية والادبية ، إلى أن نقف واياه ، عند نهاية الدولة العباسية ، وبداية عهد الانحطاط الطويل ، الذى ظل ذا أثر فعال فى هز الكيان العربى ، والأمة العربية ، مدة طويلة من الزمن ، هزاً مريرا مريبا . وليس القرن التاسع عشر الميلادى فى حقيقته إلا امتداداً لعصر الانحطاط هذا ، ووارث ضعفه وانحلاله . أو هو — كما اعتبر — نتيجة هذه العصور المظلمة ، ومقدمة لا بأس بها للقرن العشرين .

ظلت بغداد ، المدينة الخالدة ، التى بدأ ببنائها أبو جعفر المنصور عام ١٤٥ هـ ، جنة الأرض ، وسيدة البلاد . كما ظلت مركزاً للخلافة الإسلامية ، والاشعاع الفكرى العربى ، قرونا عديدة .

وقد أولع بها الشعراء والأدباء ولعا شديدا ، وبثوها هياما عجيبا ، فمن يقرأ كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعراء ، يطالع كثيرا من القصائد التى تشيد بعظمتها ، وفخامة عمارتها ، وتنظيم شوارعها ، وسعة أسواقها . كما يجد وصفا رائعا لبساتينها ، ومنتزهاتها ، وأنهارها ، وكانت كما جاء على لسان أحد الشعراء :

هى البلدة الحسناء خصت لاهلها بأشياء لم يجمعن مذكن فى مصر
هواء رقيق فى اعتدال وصحة وماء له طعم ألذ من الخمر

ثراها كمسك والمياه كفضة وحصباؤها مثل اليراقيت والدر[1]

وكان لبغداد من المنزلة الرفيعة ، حيث أن من يراها يحسب من السعداء والمحظوظين .

وعنها كان أول ما يسأل المسافر . يروى ياقوت فى معجمه أن إبن العميد كان (إذا طرأ عليه أحد من منتحلى العلوم والآداب ، وأراد امتحان عقله ، سأله عن بغداد ، فإن فطن بخواصها ، وتنبه على محاسنها ، وأثنى عليها ، جعل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله . وإن وجده ذاما لبغداد ، لم ينفعه بعد ذلك شىء من المحاسن[2]) .

حافظت بغداد على صبغتها هذه حتى سقوطها على يد هولاكو ، وتأسيس الدولة (الايلخانية) عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

فعلى الرغم من أن الخليفة العباسى كان ، خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، العوبة بيد حكامه وحرسه ، إلا أن بغداد بقيت لها قيمتها المعنوية الفائقة .

وإنها ، وإن كانت خائرة القوى ، تعيش فى بلبلة واضطراب ، إلاأنها لاتزال مهيبة الجانب ، غنية ، جذابة ، تتنعم بعظمتها الخالدة ، طيلة هذه المدة . كما أن الخليفة العباسى كان ، ولا يزال ، فوق الحكام والأمراء . إذ بقى ممسكا على زمام كثير من الأمور ، وكلمته مسموعة ، وكان يشرف بنفسه على الصناعة فى بلاده ، بلاد ما بين النهرين.[3]

إلا أن استيلاء المغول على بغداد ، قد ثل عرش هذه المدينة الزاهرة ، واطفأ نورها الذى ما انفك يتلألأ عدة قرون . فالأمراء الذين تعاقبوا على إدارة حكومة العراق لم يستطيعوا أن يقوموا بالإصلاحات اللازمة ، أو الاحتفاظ بهيبة المدينة العباسية ، والمراكز العراقية الأخرى .

فإدارتهم كانت سيئة ، إذ لم يكن لهم — وهم القبائل غير المتحضرة — [4]

(١) أنظر معجم البلدان لياقوت الحموى ص ٤٦٣ ، طبعة صادر فى بيروت ،
(٢) المصدر السابق ص ٤٦١ .
(٣) انظر كتاب اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث — تأليف لونكريك ، وترجمة جعفر خياط ص ١٤ . مطبعة النفيض الاهلية ببغداد ١٩٤١ .
(٤) يسكن (المغول) البلاد التى سميت باسمهم وهى (بلادالمغول) التى تقع فى القسم الشرقى من اواسط آسيا والتى كانت تابعة اسميا لامبراطورية الصين . ولم يكن المغول من الأقوام المتحضرة ، بل كانوا قبائل رحلا يكادون يعيشون فى عزلة عن العالم بعيدين عن الاحتكاك باسباب الحضارة الآخذة بالازدهار =

الاستعداد الكافى لتنظيم أمور الادارة ، ولا اللياقة لها . ولما كانت سطوة (الإيلخانيين) لم تتعد حدود المدن ، لذلك لم يكن تأمين الطرق ممكنا . كما أن السدود والأنهار ونواظم الاسقاء ، التى كانت تعتبر منذ القدم ، المنبع الوحيد للثروة فى البلاد ، قد تهدمت نتيجة التخريب الذى قام به هولاكو وأعوانه فى طول البلاد وعرضها . كما أصاب إهمال الأنهار إلى تردى الحالة فى مجاريها بسبب تراكم الترسبات وتكاثر الطمى . فأصبحت هذه الأنهر لاتستوعب الماء الكافى ، ولا يمكن السيطرة على المياه عند الفيضان . كما أن الأيدى العاملة قد قلت كثيرا بسبب هلاك قسم كبير من الناس ، وفقدان روح العمل عند القسم الباقى ممن بقوا أحياء[1].

هكذا بقيت بغداد خاصة ، محتفظة بصفتها البائسة هذه ، حتى تم استيلاء الاتراك العثمانيين على العراق عام ٩٢١ هـ (١٥٣٤ م) ، بعد أن ظلت أيدى الطغاة المستعمرين تتناولها فيما بينها ، وتتناوشها بالهدم والتخريب . إذ دخل العراق — كما هو معلوم — بعد انقراض الحكم المغولى أو (الإيلخانى) تحت سيطرة الحكم الجلائرى .

غير أن هذه الدولة لم تدم طويلا ، إذ سرعان ما جاءتها ضربة شديدة من قبيلة تركمانية تقطن ديار بكر ، وأسست حكما جديدا فى العراق ، وكانت هذه الدولة تدعى الخزوف الابيض (آق قو يو نلى) .

ولم يدم حكم هذه الدولة طويلا كذلك ، إذ مزقتها دولة ناشئة فى إيران تدعى (الدولة الصفوية[2]) .

= آنذاك . جمعهم تحت لواء زعامته (جنكيزخان) المشهور الذى شق عصا الطاعة على امبراطورية الصين ، فاندفع بهم فى ارجاء الارض يبغون فسادا . وحينما ادركته منيته قام احفاده من بعده ، وعلى رأسهم (هولاكو) يتممون ما بدأه هو ، فاستمروا بالاتساع شرقا وغربا ، حتى شملت فتوحاتهم معظم آسيا وقسما كبيرا من اوربا .
انظر كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الهمذانى — الجزء الاول — باشراف وزارة الثقافة والارشاد القومى بالاقليم الجنوبى ص ٢٤٣ ومابعدها . وكتاب اربعة قرون من تاريخ العراق تأليف لونكريك ص ٣ و ٤ .
(١) المصدر السابق ص ١٤ و ١٥ .
(٢) اقرأ تفاصيل ذلك فى كتاب لونكريك ص ١٦ — ١٨ وكتاب تاريخ العراق بين احتلالين للاستاذ عباس الفراوى ج ٤ ص ١٤ وما بعدها . وكتاب الدولة العربية المتحدة للاستاذ أمين سعيد ج ١ ص ٢٧ طبع مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر .

وهكذا انتقل العراق ، الذى فقد كبرياءه ، وعظمته ، من الحكم التركمانى إلى الحكم الفارسى .

بيد أن الأمر لم يستمر طويلا لحكم هذه الدولة ، فنشبت حروب أخرى كثيرة بينها وبين الأتراك ، وظل العراق ميدانا لهذه الحروب المتتالية ، حتى خضع نهائياً لنفوذ الحكومة العثمانية على يد السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨ هـ[1]

العراق تحت السيطرة العثمانية :

وعلى هذه الصورة ، دخل العراق المستضعف ، المنهوك القوى ، تحت الحكم العثمانى ، والذى بدأ يحكمه أول الأمر المماليك ، حتى سمى هذا الدور (دور المماليك) . وأول من حكمه منهم هو سليمان باشا .

ثم استمر هؤلاء المماليك يتعاقبون على حكم العراق ، إلى أن خلص الأمر إلى الحكم العثمانى المباشر ، بعد أن قضى على آخر مملوك منهم وهو على رضا باشا . ومعنى هذا أن الوالى العثمانى ، وغيره من رجال الحكومة فى العراق ، أصبحوا خاضعين لمشيئة الباب العالى ، يرتبطون به ويستمدون سلطتهم منه .

لقد أصاب العراق بعض التحسن والازدهار على يد بعض هؤلاء المماليك ، خاصة بعد أن قويت عندهم النزعة لاستمرار حكمهم فى العراق . إذ كانوا يرون أن دوام بقائهم فى مراكزهم متعلق بما يقدمونه من إصلاحات لأهل البلاد . ولعل أهم هؤلاء المماليك الذين حكموا العراق ، الذى أصابه من جراء ولايته عليه بعض الإصلاحات ، هو الوالى المشهور داود باشا .

فلقد حاول هذا الوالى أن يعنى بالعلم والعلماء ، وأخذ يسبغ على الرعية العدل والأمان . وأسس بعض المساجد والمدارس والمعاهد ، كما (أبتنى أسواقا وخانات ، وحفر الأنهر التى اندرست ، كما أصلح غيرها[2]) .

غير أن المصلح الحقيق الذى أراد أن يصلح أحوال العراق عن رغبة صـــادقة

(١) انظر تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤ ص ٢١٦ — ٢٨٧ .
(٢) أنظر الإصلاحات التى قام بها فى كتاب الشعر العراقى أهدافه وخصائصه فى القرن التاسع عشر للدكتور يوسف عز الدين ص ١٨ . مطبعة الزهراء بغداد ١٩٥٨ .

أكيدة ، هو الوالى مدحت باشا (١٨٦٩ — ١٨٧٢) الذى كان يلقب بأبى الأحرار ، والذى اقترن اسمه بكثير من الاصلاحات التى لا تزال قائمة فى العراق حتى اليوم .

فلقد قام هذا الوالى ، على الرغم من قصر مدة ولايته ، بأعمال إصلاحية كثيرة ومهمة فى العمران والتجارة والصناعة والنهضة الفكرية والأدبية . ولعل أهمها أنشاؤه جريدة (الزوراء) وتشجيعه للحركة الفكرية . كما أنشأ العبخانة التى كانت تقوم بنسج ألبسة الجنود وأغطيتهم . وأسس مستشفى المجيدية ، ومدرسة صناعية . وفتح الطرق ، ومد خط ترام الكاظمية — بغداد ، كما سير البواخر فى خليج البصرة والبحر العربى لكى تصل إلى الآستانة . وأصلح جهاز الإدارة بعد أن كان يشمله الفساد ، وأنشأ مبانى ضخمة لدوائر الحكومة ، ونظم ماليتها ، كما قضى على الأعمال اللصوصية ، وأعاد الأمن إلى نصابه .

ولقد قيل إنه حاول توزيع الأراضى الأميرية على المزارعين بطريقة الملكية الصغيرة ، حتى يحل بذلك مشكلة توطين العشائر ، (لأن العشائر متى اعتمدت على الزراعة وتحضرت أمن عصيانها واحترمت أرادة الدولة)[1] .

بيد أننا لو أمعنا النظر ملياً فى هذه الاصلاحات ، لوجدناها لم تحقق شيئا جديا فى اصلاح الأوضاع فى العراق الذى ورثه العثمانيون منهوك القوى ، مضطرب الحال ، شامل الفساد والانحلال .

لأن هذه الاصلاحات التى قام بها نفر من هؤلاء الولاة ، كانت ذات طابع فردى ، قام بها أشخاص معينون ، تزول أو تنتفى فائدتها بمجرد انتهاء حكم صاحبها أو زواله ، لأنها لم تقم على سياسة مدروسة مخططة يستطيع أن يسير بموجبها الخلف أثر السلف . لذلك كانت اصلاحات جزئية ضيقة ، ولم تكتسب طابع الجدية أو العمق أو الشمول .

كما أن هذه الاصلاحات لم تكن تلاقى ترحيبا أكيدا من قبل السلطات الحاكمة فى استامبول ، بل كانت تسبب عندهم استياءا شديدا ، لأن هذه الاصلاحات معناها

(١) انظر الاصلاحات التى قام بها فى المصدر السابق ص ٢٠ و ٢١ .
وفى كتاب فى غمرة النضال مذكرات سلمان فيضى ص ٥٩ و ٦٠ .

أن ينفق المال المتجمع من العراق داخل العراق نفسه ، بينما يرغب الباب العالى أن يكون العراق — مثل كل بلد آخر — بقرة حلوبا ، وأنه يجب على الولاة أن يبعثوا إليه بهذه الأموال المتجمعة حتى ينفقها هو على ما يشاء ومن يشاء .

هذا من جهة . .

ومن جهة ثانية ، هو خوف هذه السلطات من ازدياد وعى طبقات الناس التى لا ترضى بطبيعة الحال عن هذه الاحوال السيئة التى يتخبط بها العراق ، والتى سوف لا تكتفى بانجاز إصلاحات جزئية باهتة لا تحقق أهدافه ومراميه فى الإصلاح والازدهار .

حتى أن السلطات الحاكمة هذه سرعان ما عزلت مدحت باشا من ولاية العراق ، كما عملت جاهدة على إبعاد سلفه داود باشا من العراق وإرساله إلى الاستانه[1] .

وثمة شىء آخر يجب أن نلحظه بعين الاهتمام والاعتبار ، وهو أن الأتراك العثمانيين لم يرسخ حكمهم إلا فى بعض المدن العراقية الكبرى كبغداد والبصرة والموصل[2] . ومعنى ذلك أن كثيراً من المدن الكبيرة الأخرى ، والمدن الصغيرة والأرياف ، قد ظلت مهملة تتناوشها يد التخريب والتهديم ، ولم يشملها أى نوع من أنواع الإصلاحات ، إذا جاز لنا أن نقرر قيام إصلاحات جدية عامة فى المدن العراقية آنفة الذكر . بل إن هذه المدن الكبرى والصغرى والأرياف ، قد كانت تحكم من قبل زعماء القبائل ، وبعض الأمراء والإقطاعيين وفق النظم القبلية والاقطاعية . فعلينا بعد ذلك تصور الحال فيها ، وما شملها من فساد وانحلال على أيدى هؤلاء الإقطاعيين وزعماء القبائل .

وأخيراً ننوه بأن العراق ، الذى كان جزءا من امبراطورية بلغت ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، حداً كبيراً من الفساد والاضطراب ، وأمست ضعيفة منهوكة القوى ، متأخرة فى مضمار المدنية ، لا يجدى فيه كثيرا أى إصلاح ، لأن الفساد كان شاملا ،

(١) الشعر العراقى أهدافه وخصائصه فى القرن التاسع عشر ص ١٩ و٢٢ مطبعة الزهراء بغداد ١٩٥٨ .

(٢) معروف الرصافى — دراسة ادبية لشاعر العراق وبيئته السياسة والاجتماعية تأليف الدكتور بدوى طبانه ص ١٠٠ الطبعة الثانية ، مطبعة الرسالة ١٩٥٧ وهذا الرأى من تعليق للاستاذ محمد رضا الشبيبى على كتاب الدكتور طبانه : وانظر كذلك كتاب يقظة العرب تأليف جورج انطونيوس تعريب على حيدر الركابى ص ٦٣ .

فهو يشمل العراق ، كما يشمل باقى إجزاء الدولة العثمانية ، وأن كل إصلاح كان يقام فيه ، سرعان ما تكتنسحه عوامل الهدم والتخريب ، ولم يحقق الغاية التى أقيم من أجلها .

وعلى هذا النحو ، بقى العراق طيلة الحكم العثمانى ، بلدا فقيرا ، يعيش أغلب سكانه عيشة ضنكى ، يسودهم الجهل ، ويفتك بهم المرض . إذ لم يكن هناك من وسائل التعليم إلا بعض هؤلاء الكتاتيب المنتشرين فى الحوارى والأزقة ، يعلمون الصبية والأطفال قراءة القرآن ، وبعض المبادىء الأولية فى الحساب .

ولم يكن هنالك من وسائل الوقاية والعلاج غير مستشفى واحد ، هو المستشفى المجيدية الذى أسسه مدحت باشا ، كما ذكرنا آنفا . وبطبيعة الحال لم يكن هذا المستشفى وحده كافياً لتطمين رغبات الشعب الصحية .

كما أن عدد الأطباء الذين يحملون الشهادات العلمية نادر جدا . ولذلك كثر الدجالون الذين انتشروا فى المدن والقرى والأرياف ، يمارسون الطب ، ويعالجون أدواء الناس بالشعوذة والدجل ، ولا تزال فلولهم باقية حتى اليوم . كما لم تكن فى بغداد غير إدارة صحية واحدة خاصة ، تشكلت فى عام ١٩٠٥ من مفتش تركى ، يعاونه طبيبا البلدية ، وبمعيتهم كاتب واحد .[1]

هذا وسنأتى على تفاصيل هذه الأوضاع السيئة التى كان يتخبط بها العراق ، فى هذه الفترة ، سواء فى الناحية التعليمية ، أو الناحية الصحية ، أو خنق الحريات ، أو فقدان الأمن ، وغير ذلك من الأوضاع ، فى فصل آخر ، حينما نعرض للحديث عن أسباب هجوم شاعرنا معروف الرصافى على السلطان عبد الحميد والدعوة إلى خلعه .

العراق تحت النفوذ البريطانى :

لقد استمر العراق فى حوزة الحكم العثمانى حتى إعلان الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م . إذ كان من نتيجة تلك الحرب أن انتقل العراق من السيطرة التركية إلى النفوذ البريطانى ، على أثر سقوطها فى هذه الحرب التى وقفت فيها إلى جانب المانيا . ومن

(١) الاحوال الصحية فى العراق للدكتور شريف عسيران ص ١٠ ، مطبعة التفيض الاهلية ببغداد ١٩٤٢ .

قبل ، كانت بريطانيا قد عقدت معاهدة سرية فى ١٦ أيار (مارس) سنة ١٩١٦ مع حليفتها فرنسا سميت بمعاهدة (سايكس — بيكو) المشهورة ، تقرر فيها — فى جملة ما تقرر — أن يكون العراق ضمن نفوذ بريطانيا فيما لو ربحت دول الحلفاء هذه الحرب، ووضعه تحت انتدابها .

وحرى بنا أن نشير إلى أنه قد كان للانكليز مطامع فى العراق منذ زمن بعيد . وأن هذه الحرب ، وإن كانت السبب المباشر فى احتلالهم له ، إلا أنها لم تكن بداية هذه العلاقة . إذ ترتقى العلاقات الانكليزية بالعراق ، إلى فجر القرن السابع عشر للميلاد، بعد أن تأسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠م . وكان الدافع لتأسيس هذه العلاقات، هو المحافظة على طريق الهند ، إذ عمل البريطانيون جهدهم فى سبيل المحافظة على هذا الطريق الحيوى . فطردوا التجار البرتغاليين الذين كانوا قد سبقوهم إلى هذه الأماكن . كما قضوا على منافسة التجار الهولنديين ، وتغلبوا بعد ذلك على منافسة فرنسا ، ونجحوا فى آخر الأمر ، فى وقف نفوذ روسيا والمانيا عند حد بعيد عن سواحل البحر والخليج العربى[1] .

وفى سبيل المحافظة على هذا الطريق المهم فى تجارة بريطانيا فى الشرق ، استولت على مضيق جبل طارق ومالطة وقبرص ومصر وعدن . كما أخذت تعتبر الخليج العربى منطقة نفوذ لها ، وتحرص على حمايته من تدخل الدول الأخرى المنافسة[2] .

إن من نافلة القول أن نذكر بهذه المناسبة أن للرصافى قصيدة سماها (يوم سنغافورة[3]) يرى فيها أن السبب فى استعمار العراق ، وغيره من أقطار الشرق الأوسط ، هى الهند . لهذا يتمنى أن تنال الهند استقلالها وحريتها حتى تنتفى العلة التى من أجلها تحرص بريطانيا على الحفاظ على طريق الهند ، وبالتالى تنقطع الصلة بينها وبين الدول الواقعة تحت سيطرتها ونفوذها .

---

(١) محاضرات عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال للاستاذ عبد الرحمن البزاز القاها على طلبة قسم الدراسات التاريخية والجغرافية فى معهد الدراسات العربية العالية ص ١٢ ، الطبعة الثانية ١٩٦٠ ، مطبعة الرسالة .

(٢) العراق الحديث ، وضعه فى الانكليزية متى عقراوى وعربه المؤلف ومجيد خدورى ص ٢٢ مطبعة العهد ببغداد ١٩٣٦

(٣) الديوان ص ٤٧٣ .

يقول الرصافى :

وبحر الهند أصبح فى اضطراب يرجم فى عواقبه الظنونا
أيفتح بابه فيكون حرباً لمن يزجى بلجته السفينا
ويمسى الهند عندئذ طليقاً من الأسر الذى قطع الوتينا
فبشرى للبلاد إذن وبشرى لمصر والعراق بما هوينا
فسوف تكف عنهن الليالى مطامع ساسة متحكمينا

وهذا المعنى نفسه كرره الرصافى فى قصيدة أخرى أسماها (الفيل والحمل[1])

ونعود فنقول :

إن اهتمام بريطانيا بالعراق بدأ يتزايد يوما بعد يوم ازدياداً ، مطرداً ، حتى بلغ مرحلة قوية فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . إذ لم تعد تقتصر هذه العلاقة على تأمين سلامة طريق الهند وحده ، بل إنها كانت ترمى إلى غايات سياسية واضحة ، وهى بسط سيطرتها عليه والعمل على خضوعه لها، حتى أن سماسرتها أصبحوا مقيمين سياسيين ووكلاء مستوطنين[2] .

ان من أهم العوامل التى أغرت بريطانيا وشجعتها على بسط نفوذها وسيطرتها على العراق ، هو نفطه الغزير ، (ومحاذاته لعبادان حيث يقع أعظم مصافى النفط البريطانية وأهمها[3]) . إذ أشار الجيولوجيون منذ منتصف القرن التاسع عشر للميلاد بوجود آبار نفط غزيرة فى العراق . لذلك أصبح مطمح أنظار الإنكليز للاستيلاء على نفطه ، وتغذية أساطيلهم منه[4] .

كما اعتبرت خصوبة أرض العراق ، ووفرة المواد الغذائية الأولية فيه ، وإمكان

---

(١) الديوان ص ٤٥٣ .
(٢) انظر كتاب تاريخ العراق السياسى الحديث للأستاذ عبد الرزاق الحسنى ج ١ ص ٣٩ ، مطبعة العرفان — صيدا بلبنان ١٩٤٨ .
(٣) محاضرات عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال للأستاذ عبد الرحمن البزاز ص ١٥ .
(٤) تاريخ العراق السياسى الحديث للأستاذ عبد الرزاق الحسنى ج١ ص ٥٤ .

اتخاذه مجالا حيويا لإسكان عدد كبير من الفائضين من سكان الهند ، وخاصة فى جنوبه[١] ، من العوامل المهمة التى استهوت انكلترا فاغرتها على احتلاله .

ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى ، اهتبلت بريطانيا هذه الحرب ، لكى تحقق بواسطة قواتها العسكرية ، الأهداف والمرامى التى كانت تسعى إليها جاهدة فى العراق منذ أمد بعيد .

استولى الإنكليز على العراق كله بعد قتال عنيف مع القوات التركية استمر أكثر من أربع سنوات . ولما وصل جيشهم إلى بغداد ، أصدر قائد الجيش الجنرال « مود » ، منشوره المشهور إلى أهالى بغداد وفيه ذكر (ان الغرض من المعارك الحربية فى العراق دحر العدو « الترك » وأن الإنكليز لم يدخلوا دار السلام قاهرين أو أعداء فاتحين ، بل جاءوها متقذين ومحررين . وبعد أن أسهب فى ذكر مظالم الأتراك والحالة السيئة التى آل إليها العراق قال « انها ليست أمنية جلالة مليكى بمفرده ، بل انها أمنية الحكومات المتحالفة مع جلالته أيضا أن تعلموا كما فى السابق حينما كانت أراضيكم مخصبة وكان العالم يتغذى من ألبان آداب أجدادكم وعلومهم ، وحرفهم يوم كانت بغداد إحدى عجائب الدنيا[٢]) .

غير أن هذا المنشور لم يكن فى حقيقة الأمر إلا بمثابة المخدر لمنع الشعب من أبداء آية مقاومة للجيش البريطانى المحتل[٣] . إذ بعد أن تمت سيطرة الإنكليز على العراق ، بدأت نواياهم الاستعمارية تتكشف للرأى العام العراقى يوماً بعد يوم . لذلك بدأ العراقيون يطالبونهم بتحقيق ما كانوا قد تعهدوا به ، وهو منح العراق استقلاله ، والمحافظة على وحدته وكيانه . ولما تلكأ الإنكليز فى تحقيق هذا المطلب الحيوى ، قرر العراقيون أن ينالوا استقلالهم المنشود بحد السيف ، بعد أن خذلهم المستعمرون الجدد فى نيل هذا الاستقلال عن طريق الوعود الخلابة ، والكلمات المعسولة . فقامت فى العراق

(١) انظر كتاب محاضرات عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ص ١٥ .
وكتاب تاريخ العراق السياسى الحديث ج ١ ص ٥٦ .
(٢) محاضرات عن العراق فى الاحتلال حتى الاستقلال للأستاذ عبد الرحمن البزاز ص ٢٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٣ .

ثورة عارمة ، اجتاحت العراق كله من شماله حتى جنوبه ، عرفت بثورة ١٩٢٠ [١] ، استمرت عدة أشهر ، كانت الغلبة العسكرية فيها للانجليز الطامعين . وقد خسر فيها الطرفان كثيرا من القتلى والجرحى ، واستنزفت كثيرا من المال .

ان ثورة ١٩٢٠ وان لم يكتب لها النجاح فى طرد الإنكليز نهائياً من البلاد ، أو القضاء على نفوذهم قضاء مبرما ، إلا أنها نجحت إلى حد ما فى تبديل الحكم الاستعمارى المباشر إلى حكم وطنى ، وإقامة أول حكومة وطنية فيه . فعلى أثر هذه الثورة ، فكر الإنكليز فى الوسيلة التى تمكنهم من أن يحكموا العراق بواسطتها ، بعد أن بان لهم أن الحكم المباشر فى العراق بات غير ذى نفع . فشرعوا يمهدون لإنشاء حكومة عراقية ، وبدأوا يضعون الخطوط الرئيسية لذلك .

إن الذى دفعهم إلى ذلك عوامل عديدة ، منها ؛ أن الحكم المباشر يتطلب نفقات كبيرة أرهقت دافع الضريبة البريطانى ، وسببت للحكومة البريطانية القائمة آنذاك الانتقادات المباشرة والعنيفة أحيانا فى البرلمان الإنكليزى . ومنها ؛ أن الحكم المباشر يدعو إلى الاحتكاك المباشر بين العراقيين (المحكومين) والبريطانيين (الحاكمين) ، وهذا الاحتكاك سيؤدى إلى ثورات وانتفاضات أخرى لايتيسر للسلطات البريطانية القضاء عليها إلا بتضحيات جسام . ومنها ؛ أنه لايتلاءم مع الوعود العديدة ، والتصاريح والبيانات الكثيرة التى ابتدأت منذ أن وطئت أول وحدة عسكرية بريطانية أرض العراق فى (الفاو) فى خريف سنة ١٩١٤ ، والتى تشير إلى رغبة الإنكليز والحلفاء عامة فى أن تحكم الشعوب التى حررت من الحكم التركى نفسها بنفسها . وفوق هذا وذاك ، فقد أدرك فريق من ساسة بريطانيا أن مصالحهم فى العراق يمكن ، تأمينها على الوجه الأكمل ، بواسطة عملائهم ومأجوريهم ، دونما حاجة إلى حكمه حكما مباشرا[٢] .

وبناء على هذا ، وفق (السير برسى كوكس) الذى عين مندوباً ساميا لبريطانيا فى العراق ، فى تشكيل أول حكومة عراقية برئاسة السيد عبد الرحمن الكيلانى ، نقيب

(١) لقد كانت للثورة العراقية عدة أسباب مباشرة وغير مباشرة ، ولكن السبب الذى ذكرناه أعلاه هو أهم هذه الأسباب وأقواها .
(٢) محاضرات عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال للاستاذ عبد الرحمن البزاز ص ٥٦ .

الأشراف فى بغداد ، تقوم بأعمالها تحت نظر المندوب السامى وإرشاداته وتوجيهاته .

ولقد كانت الخطة التى وضعها السير برسى كوكس ، ومستشاروه من الإنكليز ، تمهد لتعيين ملك على العراق يختاره العراقيون بأنفسهم عن طريق الانتخاب ، لأن العراق فى نظره ، غير مستعد للحكم الجمهورى الذى يحتاج إلى درجة من الرقى لم يبلغها بعد[1] .

وكان المرشحون لهذا المنصب أفراداً عديدين . ولكن رغبة بريطانيا كانت متجهة منذ البداية ، لاختيار الأمير فيصل ، أحد أنجال الشريف حسين زعيم الثورة العربية ، لأسباب عديدة ، وكان قد فقد عرشه فى الشام على يد الفرنسيين الغزاة عام ١٩٢٠ .

وفى مؤتمر القاهرة المنعقد برئاسة ونستن تشرشل ، وزير المستعمرات وقتذاك ، فى ١٢ آذار (مارس) ١٩٢١ ، والذى حضره بعض المسئولين العراقيين ، تقرر نهائياً ترشيح الأمير فيصل لعرش العراق . وبناء على طلب الإنكليز ، سافر فيصل من جدة متوجها إلى العراق ، على أثر فوزه فى الانتخابات الصورية التى أجريت به ، والتى قيل ان ٩٦٪ من الشعب العراق قد صوت إلى جانبه .

وفى ٢٣ آب (أغسطس) سنة ١٩٢١ ، تم بصورة نهائية ، تنصيب الأمير فيصل ملكا على العراق .

وبمثل هذه الصورة المهزوزة ، دخل العراق فى عهد جديد من عهود تكوينه السياسى الحديث . ولكن الشعب العراق ، الذى خبر بنفسه سياسة بريطانيا التعسفية فى العراق ، وأهدافها ومراميها ، والوسائل التى تحقق هذه الأهداف والمرامى ، لم يكن ليطمئنهم هذا الاتجاه الجديد فى الحكم . ولهذا ، كثيراً ما كان يشتد النزاع حول السياسة التى يجب أن تتبعها الحكومة الجديدة حيال الإنكليز . فقد كان العراقيون حريصين ، كل الحرص ، على انتزاع السلطة من يد البريطانيين ، ليمارسوا هم وحدهم حكم البلاد بمحض ارادتهم ومشيئتهم . كما كان البريطانيون من ناحيتهم حريصين أيضاً على الاستئثار بالسلطة الحقيقية ، والإمساك بزمام الأمور .

(١) المصدر السابق ص ٦٩ .

ولقد كان باكورة العهد الجديد ، فرض معاهدة تحالف غير متكافئة عام ١٩٢٢ ، وهى المعاهدة العراقية — البريطانية الأولى ، التى حددت العلاقة بينهما ، ووضعت الأسس التى بنيت عليها هذه العلاقة . والتى كان يراها العراقيون أنها جاءت مطابقة لصك الانتداب الذى كان الشعب العراق بمقته أعظم ما يكون المقت .

وقد فرضت هذه المعاهدة فى جملة ما فرضت (أن على ملك العراق استشارة الحكومة البريطانية فى جميع الشئون المهمة التى تمس بتعهدات ومصالح بريطانيا الدولية والمالية ، وفى كل ما يؤدى إلى سياسة مالية ونقدية سليمة[1])

إن الصحافة العراقية قد هاجمت هذه المعاهدة هجوماً عنيفا . كما رافق عقدها كثير من الإرهاب والاضطهاد . فقد أبعد عن العراق اثنان من أبرز زعمائه ، وهما محمد الصدر والشيخ مهدى الخالصى ، ونفيا إلى إيران ، وقبض على آخرين ، وفر عدد آخر ، كما أغلق كل من الحزب الوطنى ، وحزب النهضة ، وعطلت بعض الجرائد العراقية[2] .

وقبل بنا أن نذكر أيضاً أن هذه المعاهدة (لم يتم تصديقها على الرغم من الوعد والوعيد ، والضغط والإنذارات ، إلا فى منتصف ليل اليوم العاشر من حزيران (يونيه) سنة ١٩٢٤ ، وذلك بعد أن عقد المجلس التأسيسى أربعا وعشرين ، جلسة ، وكان عدد المصوتين بجانبها سبعا وثلاثين ، والمخالفين أربعة وعشرين ، والممتنعين عن التصويت ثمانية ، والغائبين عن المجلس واحداً وثلاثين[3]) .

إن هذه المعاهدة ، والجو الذى لابس أحداثها وماجرياتها ، ترينا بوضوح تام ، صورة العلاقات التى تحددت بين كل من العراق وبريطانيا فى المستقبل . فعلى توالى الأيام ، وتعاقب السنين ، يزداد إصرار الإنكليز على توطيد سيطرتهم ونفوذهم فى العراق ، وكانوا يسلكون فى هذا السبيل شتى الطرق ، ويتبعون جميع الوسائل التى تساعد على ازدياد هذا النفوذ ، ورسوخ هذه السيطرة . فاصطنعت مثلا فئة صغيرة من الخونة ، بدأت تكبر ، ويتسع نطاقها ، يوماً بعد يوم ، تدين لهم بولاء عظيم ،

(١) المصدر السابق ص ٨٥ .

(٢) تاريخ العراق السياسى الحديث للأستاذ عبد الرزاق الحسنى ج ٢ ص ٢١ و ٢٣ و ٢٤ مطبعة العرفان — صيدا بلبنان ١٩٤٨ .

(٣) محاضرات عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال للأستاذ عبد الرحمن البزاز ص ٨٨ .

وامتنان شديد ، مغترين بما يقدم لهم من المال السحت ، ومستبشرين ببهرجة المناصب الزائفة ، حيث خيل إليهم أنها تساعدهم فى بسط نفوذهم وسيطرتهم بين أوساط الناس. إن هذه الحفنة الهزيلة ، التى كان يرأسها نورى السعيد ، والتى خانت وطنها ، وباعت شرفها ،وأهدرت كرامتها ، هى التى مكنت الإنـكليز فيما بعدعلى فرض معاهدة جائرة على العراق عام ١٩٣٠ ، واستطاعت حينئذ أن تربطه ثانية إلى عجلة الاستعمار البريطانى ، مدة خمس وعشرين سنة ، وهى المدة المقررة لها من كلا الطرفين ، وأن تدفعه دفعاً لإسقاطه فى دوامة شديدة من الفساد والاستغلال والاستعباد .

وعلى العموم ، فإن هذه المعاهدة ، هى على غرار معاهدة ١٩٢٢ ، وحلت محلها . وأنها وان مكنت العراق من أن يتحرر من الانقياد البغيض ، ويدخل فى عصبة الأمم عام ١٩٣٢ ، حسبما تقضى هذه المعاهدة ، غير أنها سلبته أعز أمانيه فى التحرر والاستقلال ، استقلالا حقيقياً لا تزييف فيه ولا بهتان . ذلك لأن هذه المعاهدة قد ألزمته بكثير من القيود الغليظة القاسية ، منها مثلا ، أن يتعهد العراق لبريطانيا أن يقدم لها ، فى حالة حرب ،أو خطر حرب محدق ، جميع ما فى وسعه أن يقدمه من التسهيلات والمساعدات . ومن ذلك ، استخدام السكك الحديدية والأنهر والموانى والمطارات ووسائل المواصلات . ومنها أيضاً ، أن يتعهد العراق بأن يمنح بريطانيا طيلة مدة التحالف ، موقعين لقاعدتين جويتين ينتقيهما الإنـكليز فى البصرة أو فى جوارها[1] ، وموقعاً واحداً لقاعدة جوية ينتقونها فى غرب نهر الفرات[2] ، وكذلك يأذن العراق لبريطانيا فى أن تقيم قوات فى الأراضى العراقية فى الأماكن آنفة الذكر وفقاً لأحكام ملحق هذه المعاهدة[3] .

وما إن ذاعت محتويات هذه المعاهدة ، حتى هاجمها ساسة العراق الشرفاء هجوما عنيفاً ، وهاجمته صحافته الوطنية بالنقد اللاذع والتجريح الشديد . وخلاصة هذا النقد أن هذه المعاهدة لا تضمن للعراق استقلاله التام ، بل انها تفسح المجال لبريطانيا

(١) وهى قاعدة الشعيبة .
(٢) وهى قاعدة الحبانية .
(٣) انظر بنود هذه المعاهدة، والملاحق التابعة لها ، فى كتاب تاريخ العراق السياسى الحديث ج ٢ ص ١٩٨ وما بعدها للأستاذ عبد الرزاق الحسنى .

لاستغلال البلاد حسب ما تقتضيه أغراضها الاستعمارية ، كما ورد ذلك فى نص البرقية التى بعثها بعض الساسة العراقيين إلى السكرتير العام لعصبة الأمم[1] ، وكما جاء فى بيانهم المسهب الذى نشرته جريدة العالم العربى بتاريخ ، ١٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٠[2] .

ومهما يكن من أمر ، فلقد كانت غالبية العراقيين المؤمنين بحق أمتهم فى الحياة ، المجاهدين فى سبيل أهدافها ومثلها ، لم يكونوا يرضون عن هذه الخيانات المتتابعة من قبل هذه الزمرة الخائنة . فاشتدت من أجل ذلك مقاومتهم لهؤلاء ، بل لقد ازدادت هذه المقاومة ، حتى أتخذت صورة الحرب فى عام ١٩٤١ ، وذلك حينما ثار الجيش ، ومعه الشعب كله ، تتقدمه حكومته الوطنية ، حكومة رشيد عالى الـكيلانى ، ثورته العارمة ضد الانـكليز ، وضد أذنابهم من الخونة والمأجورين ، وعلى رأسهم الأمير عبد الاله ونورى السعيد وجميل المدفعى وعلى جودت الأيوبى الذين هربوا من العراق واحتمعوا عند أسيادهم الانجليز .

ولقد اشتدت وطأة هذه الحرب حتى دامت حوالى شهر ، استطاع خلاله أن يقف هذ الجيش ، ومعه الشعب المسلح بالإيمان وبالعزة والـكرامة ، موقف المتحدى لسطوة الانـكليز وقوتهم وبطشهم وبغيهم .

وعلى الرغم من أن الشعب العراقى قد لقن هؤلاء الخونة درساً قاسيا فى سبيل عزته وكرامته ، وحريته واستقلاله ، فإنهم مع ذلك قد مضوا ، وعلى أعينهم غشاوة ، يزدادون جوراً وبطشا كل حين ، وكانوا لا يفتأون ينكلون بالمخلصين من أبناء هذا الشعب ، ويعاملونهم معاملة فيها من الخسة والدناءة مقدار كبير .

ولا جرم أن الشعب كان لا يزال مترصدا لهذه الطبقة الحاكمة ، حاسباً لخياناتها المتتابعة كل حساب . وما إن أرادت أن تفرض على العراق من جديد ، معاهدة جديدة فى عام ١٩٤٨ ، والتى سميت معاهدة (بورتسموث) والتي عقدها كل من صالح جبر ، رئيس الوزراء فى ذلك الحين ، وبيفن وزير خارجية بريطانيا ، وهى على

(١) محاضرات عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال للأستاذ عبد الرحمن البزاز ص ١٣٠
(٢) مقدمة فى دراسة العراق المعاصر للدكتور زكى صالح ص ٨٥ ، مطبعة الفرات بغداد ١٩٥٣

غرار معاهدة صدق — بيفن (المصرية) ، حتى ثار الشعب العراق كله ، وخرج إلى الشارع بشيبه وشبانه ونسائه ، يطالب باسقاط الوزارة والغاء هذه المعاهدة الجائرة ، بشكل مظاهرات عنيفة ، سقط فيها كثير من الجرحى والقتلى ، مما اضطر الانكليز ، والوصى على عرش العراق آنذاك عبد الاله ، على إقالة الوزارة والغاء هذه المعاهدة التى كان يراد بها ربط العراق من جديد بعجلة الاستعمار البريطانى ، بعد أن صار وشيكا ، انتهاء مدة معاهدة ١٩٣٠ .

وقد ظل هذا الصراع محتدما بين الشعب العراق ، ورجال الحكم المأجورين ، حتى هيىء له أن ينفجر انفجاره الهائل ، ويقوم بثورته الجبارة التى سحقت الخونة والمأجورين شر سحق ، وجعلت منهم عبرة لمن يريد أن يعتبر على مر الأيام والسنين .

وبهذه المناسبة ، وقبل أن ننتهى من هذا الموضوع ، أحسب أنه من المفيد ، أن ننقل هنا صورة صادقة للاوضاع السيئة التى تردى فيها العراق على أيدى هؤلاء الخونة والمأجورين من رجال الحكم وسادتهم الانكليز من كتاب « من وحى العروبة » لمؤلفه الأستاذ عبد الرحمن البزاز . . .

يقول : « لقد كان فى العراق قبل الثورة سوء كبير ... كان الحكم فردياً على الرغم من المظاهر الكاذبة الخادعة . كانت الحريات العامة مسلوبة ، وان كانت حريات الاشخاص لحد ما مصانة ، كان الأحرار مضطهدين ومعرضين للتنكيل والحرمان ، على حين كان العهد البائد يحبى أتباعه ومؤازريه بشتى النعم ، ويغدق عليهم الخير الكثير . وكان يراد عزل العراق عن جسم الأمة العربية وربطة بالأحلاف الاستعمارية . وكان هناك تباين طبقى ظاهر ، ما فى ذلك أدنى ريب . كانت ثروات عامة كبيرة تصرف فيما لا طائل تحته . فقد صرف العراق مثلا أكثر من عشرة ملايين من الدنانير لانشاء قصر ملكى ، وإقامة مبنى للبرلمان ، وتأثيثهما بالرياش المستوردة من الغرب ، وكان بالإمكان ، بل من المحتم ، صرف هذه الملايين العديدة لإقامة مصانع كبيرة يشتغل فيها عشرات الألوف من العمال ، وتضمن العيش الكريم لالوف من الأسر ، وتسهم فوق ذلك فى رفع الدخل القومى المنحط اسهاما جديا . وفوق ذلك فقد كان هناك اقطاع متحكم أحال فريقا من الفلاحين إلى بؤس وفاقة

ومذلة لا يمكن أن يقارن بها حتى عبيد الأرض ممن تتحدث عنهم كتب التاريخ الاقتصادى الباحثة عن النظام الاقطاعى الذى كان سائداً فى أوربا قبل الثورة الفرنسية . لقد كان هناك مثلا شخص واحد يتصرف فى أراضى زراعية تبلغ مساحتها بقدر مساحة بليجكا كلها . إن الإصلاحات الجزئية التى حاولت الحكومات فى أواخر العهد البائد أن تقوم بها ، لم تحقق العدالة الاجتماعية المنشودة ، بل ولم يكن فى الإمكان — وقد سد طريق التطور الديمقراطى أمام الشعب سداً بافساد نظام الحكم ، والقضاء النهائى على معالم الديمقراطية الصحيحة — أن تحققها[1]) .

وبعد . . .

فهذه هى الخطوط العامة الرئيسية للوقائع والأحداث السياسية فى العراق ، منذ أن بدأ الفساد يستشرى فيه بعد زوال الدول العباسية حتى الوقت الحاضر ، والرصافى الذى امتدت حياته السياسية أكثر من نصف قرن ، قد عاصر معظم هذه الأحداث السياسية التى كانت تحدث وتجرى تحت سمعه وبصره . وهو لذلك قد سجل أكثر هذه الأحداث فى شعره تسجيلا صادقا أميناً . وله فى كل هذه الأشعار والقصائد مواقفه الوطنية الكثيرة ، وتوجيهاته السياسية النافعة .

لذلك لا أبعد عن الحقيقة إذا قلت إن شعره السياسى هذا هو خير سجل لهذه الأحداث ، ليس فى حياة العراق السياسية فحسب ، وإنما هو سجل أيضاً للأمة العربية كلها .

ونحن فى ثنايا بحثنا هذا ، سنفصل كثيراً من هذه الأحداث والاتجاهات السياسية التى ذكرناها بصورة موجزة ، ومررنا عليها مراً سريعاً .

---

(١) انظر صفحة ٨٧ ، ٨٨ فى الكتاب المذكور — مطابع دار القلم بالقاهرة .

الفصل الثانى

البيئة الأدبيـة

ليس ثمة شك ، فى أن الثقافة العربية التى كانت ممتدة الجذور ، باسقة الأغصان فترة طويلة من الزمن ، لم تنقرض بانقراض الدولة العباسية ، ولم تزل بزوالها . فلقد ظلت هذه الثقافة ، وبخاصة الشعر ، الذى سنقتصر فى دراستنا هذه عليه ، لأنه أبرز صور هذه الثقافة ، ولأن نهضة العراق الأدبية امتازت بأنها نهضة شعرية أكثر مما هى نثرية ، تاجا يزين هامات الشعراء ، وبزيد قائله فخراً على فخر ، وشرفا فوق شرف .

بيد أن هذا الشعر العربى الذى ظل مزدهراً هذه القرون العديدة ، قد انطوى على نفسه ، وأصابه الركود والفتور ، وانحدر من النظر إلى السماء إلى النظر إلى الأرض ، ودخل فى فترة حاسمة من فترات حياته وصراعه من أجل البقاء وإثبات الذات ، مثلما دخلت الأمة العربية كلها فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخها المجيد ، على أثر احتلال الأعاجم لعاصمة الخلافة العربية ، وتلاعبهم بمقدرات هذه الأمة ، بعد القضاء على هيبة هذه الخلافة قضاء مبرما .

إذ أظلت العراق ، بعد هذا التاريخ ، كما أظلت الثقافة العربية فيه ، سماء سوداء ، لونته بألوان معتمة قاتمة ، استطاعت أن تكون عاملا من عوامل الجدب فى حياته المتدفقة الخلاقة .

غير أن هذه الثقافة ، وبخاصة الشعر ، قد بقيت متقدة الجذوة ، عميقة الغور ، وظل الشعر سائرا فى طريقه يصارع الزمن ، ويعارك الحياة ، حتى استطاع أن يثبت وجوده وبقاءه ، ومن ثم خاب فأل الأعاجم فى القضاء عليه ، ومحوه من الوجود .

ولست أحسب ، فى هذا المجال ، أننا فى غنى عن الكشف على تلكم العوامل التى حافظت على حياة هذا الشعر ، وصانته من الضياع ، وأنقذته من الزوال والفناء .

إن اصالة الشعب العراقى فى عروبته ، كانت من أهم العوامل التى حافظت على حياة هذا الشعر ، وصانته من الضياع .

فالأمة العربية ، بطبيعة قوتها فى الوجود ، وبطبيعة مناعتها المتأتية من هذه القوة ، هى التى حافظت على الشعر العربى من الفناء ، وبالتالى ادراجه فى مدارج الزوال والنسيان . إن هذه الأمة التى أصيبت فى جسمها وعرضها ، قد بقيت عامرة الروح ، تستمد كيانها من ذاتيتها فى الوجود ومن القوة الأزلية للغة العربية ، التى تستمد هى بدورها بقاءها وقوتها من كتاب الله العزيز ، الذى أنزل بلسان عربى مبين ، وتعتصم بوجوده ، مدى الأجيال والأزمان .

كما أن هناك من يرى أن من عوامل صيانة هذا الشعر العربى من الضياع ، والمحافظة عليه ، مصادر النزاع والشقاق بين المذاهب الإسلامية . يقول الدكتور زكى مبارك (ومن المؤكد أن المناقشات بين السنة والشيعة فتقت الأذهان وألانت الألسنة فى العراق. ومن المؤكد أيضاً أن المساجد هى صاحبة الفضل الأول فى تأريث الخصومات العقلية ، وهى خصومات عادت بالنفع الجزيل على الأدب والبيان . تفانى العراقيون بلواهم بالاحتلال الفارسى والاحتلال التركى . وأقبلوا على الجدال فى المفاضلة بين الأمويين والهاشميين ، فعاشوا فى دنيا الفكر والعقل والوجدان ، كانت أجدى عليهم من دنيا السيطرة المالية والسياسة ، وبذلك حفظوا لغتهم وأدبهم من التضعضع والفناء[1]) .

ومما لاجدال فيه أن المدارس الدينية ، والحلقات الأدبية التى كانت تعقد فى أروقتها ، هى خير حافظ لهذا الشعر من التلاعب . ومن ثم صيانته من الضياع والفقدان .

ولقد كان لكل من مدارس النجف الأشرف وكربلاء والحلة وبغداد والموصل وسامراء ، نصيبها الأوفر فى الحفاظ على إشعاعات هذا اللون من ألوان الثقافة العربية فى العراق .

وأخيرا نذكر أن للطبيعة الشعرية المتأصلة فى نفوس العراقيين ، أثرها الكبير فى خلود هذا الشعر والمحافظة عليه[2] .

---

(١) ملامح المجتمع العراقى ص ٢٤ . مطبعة أمين عبد الرحمن بالقاهرة ١٩٤٢ .

(٢) أدب المرأة العراقية للدكتور بدوى أحمد طبانة ص ١٦ ، دار العالم العربى بالقاهرة ١٩٤٨

وبناء على هذا الأساس ، بقى الشعر العربى فى العراق، محافظا على بقائه ووجوده، حريصاً على إثبات ذاتيته ، حتى مجىء القرن التاسع عشر الميلادى .

بيد أن هذا الشعر الذى حافظ على بقائه ووجوده طيلة هذه المدة، قد أنهكته عوامل الصراع من أجل هذا البقاء ، لذلك فقد كثيرا من حيويته ونشاطه وروائه، واستنزف منه هذا الصراع المستمر كثيرا من أحاسيسه ووجدانه .

كما فرضت عليه الحياة المضطربة المنحلة ، التى كان يحياها الشعب العربى فى العراق، قيودا وأصفادا ظهرت واضحة جلية فى معانيه وأخيلته واساليبه ، وأضعفت فيه نوازع الخلق والابداع ، وجردته من العواطف والاحاسيس ، وأضفت عليه بالتالى ، مسحة من التبلد الذهنى ، والكسل النفسى .

وما كاد يستهل القرن التاسع عشر ، حتى أنطلق الشعر العربى فى العراق من عقاله ؛ وبدأت هذه الجذوة المتقدة تزداد اتقادا واشتعالا يوما بعد يوم . وإذا بهذا الشعر الذى حورب واضطهد ، يثبت للناس أنه كان باقيا حيا ، وهو خليق أن يكون كذلك ، إلا أنه كان فى سبات عميق . وها هو الآن يصحو من الكرى ، وينفض عن وجوده تراب الفساد والاضطراب ، ويدخل فى عهد جديد من النشاط وإثبات الذات .

ولكنه مع ذلك ، ظل شاحب الوجه ، منهوك القوى ، بادى الانحلال ، لكثرة ما عاناه من صراع فى سبيل البقـــاء على وجوده والحفاظ على شخصيته . ولكننا لا نستطيع أن ننكر عليه ، بحال من الأحوال ، أن أغصانه بدأت تورق بعض الشىء، وتزداد اخضرارا يوما بعد يوم ، بعد أن ظلت جرداء مدة طويلة من الزمن .

ويكثر عدد الشعراء فى هذا القرن كثرة عجيبة ، حتى ليخيل إلى الناس أن هذا الشعر العربى وكأنه لم يمر بهذه المحنة القاسية الظالمة ، وكأنه لم يصب بمثل ما أصيب به من عوامل فساد وانحلال مبتغاة ، وكأنه لم يمتحن بمثل ما امتحن به من كثرة بلاء وطول معاناة . وإذا بنا نسمع أديبا فاضلا فى العراق هو الدكتور محمد مهدى البصير يقول ، وإن كان فى قوله كثير من المغالاة : (إن العراق قد شهد فى هذا القرن نهضة علمية أدبية خطيرة كتلك التى شهدها القرن الرابع للهجرة فى بلاط سيف الدولة

بحلب ، وكتلك التى شهدها عصر ملوك الطوائف فى الأندلس ، على اختلاف فى بعض الفروع والأصول[1]) .

ويتحدث عن الشعراء فيقول (أما الشعراء فقد كثروا كثرة عجيبة ، وحسبى أن أقول لكم ان الفحول والمتقدمين منهم يعدون بالعشرات[2]) .

وقد يكون من حسن حظ هذه الحركة الأدبية والفكرية فى العراق ، أن تعهدها بالرعاية والعناية نفر من الولاة أمثال داود باشا وعلى رضا باشا ومدحت باشا ، الذين اشتهر عنهم حبهم للعلم والعلماء، وتشجيعهم للحركة الفكرية والادبية ، وحرصهم على أن يبقى العراق مركزا للاشعاع الفكرى والادبى فى هذا القرن ، كما كان العهد فى القرون السالفة .

ولما كان أصحاب هذه الحركة الفكرية والأدبية وحاملوا لواءها ، لهم المنزلة الأولى ، والحظوة العليا ، سواء فى بلاط الولاة ، أو بين عامة الناس ، لذلك بدأت كثير من الاسر العراقية تحرص على أن يكون لها أديب ، أو عالم ، أو شاعر، حتى يكون ذلك من عوامل رفع شأن هذه الاسرة أو تلك ، ويكونون مقدمة فضلها عند الولاة ، وبين أوساط الناس .

فمن هذه الأسر ببغداد نستطيع أن نذكر أسرة آل النقيب ، وفارسهم فى هذه الحلبة السيد على النقيب، والد النقيبين الجليلين سلمان وعبد الرحمن . وآل جميل ، وهم على غرار آل النقيب فى نصيبهم من العلم والجاه والمال ، وأكثرهم تشجيعاً للادب السيد عبد الغنى . وآل الشاوى نبغ منهم شاعران مجيدان هما أحمد وعبد الحميد . وآل كبه الذين كان بيتهم ملتقى العلماء والأدباء والشعراء ، أنجبت فى هذا القرن الشيخ محمد حسن .

أما فى خارج بغداد ، فمن أهم الأسر التى ساعدت على نشر لواء الأدب ، أسرة آل العمرى فى الموصل ، وهم أهل علم وأدب وسياسة ، ونذكر منهم شاعرهم المجلى عبد الباقى العمرى . وآل كاشف الغطاء فى النجف الأشرف ، وآل قزوين فى النجف والحلة[3] .

---

(١) نهضة العراق الأدبية فى القرن التاسع عشر للدكتور محمد مهدى البصير — ص ٩ مطبعة المعارف — بغداد ١٩٤٦ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠ .

لقد قلنا فى كلام سابق ، إن الدكتور محمد مهدى البصير قد غالى حين قرر أن هذا القرن ، أى القرن التاسع عشر ، قد شهد نهضة علمية أدبية ، خطيرة ، كتلك التى شهدها القرن الرابع للهجرة فى كل من بلاط سيف الدولة فى حلب ، وعصر ملوك الطوائف فى الاندلس. وليس يخالجنا شك فى أن هذه الكثرة من الشعراء والأدباء والعلماء ، فى هذا القرن، هى التى دفعته دفعاً إلى مثل هذا القول ، وزينت له أن يقارن مقارنته لهذا العصر بالعصر الرابع الهجرى الذى يعتبر قمة الثقافة العربية ، والفكر العربى . لأن الشعر العربى فى العراق ، فى هذه الفترة ، قد بقى محافظاً شكلا ومضموناً على كثير من مخلفات الرجعة التى أصيب بها الشعر العربى فى الفترة التى سبقت هذا العصر ، ألا وهى الفترة المظلمة .

وليس يكفينا أن نشبه هذا القرن ، بالقرن الرابع الهجرى، فى عظمته وازدهاره، لمجرد هذه الكثرة فى عدد الشعراء والعلماء . لان الثقافة العربية عامة ، والشعر العربى الذى وصل حداً مؤلما من التخلف والجمود بعد هذا القرن خاصة ، قد ورثه القرن التاسع عشر كما هو ، إلا فى بعض الاصول والفروع . وظل هذا الشعر ، حتى أواخر هذا القرن تقريباً ، يكرر معانى السابقين ، ويجتر منهم كل دواعى الشعر وأغراضه المختلفة كالوصف والغزل وشعر الحماسة والفخر والمدح والرثاء والهجاء وغيرها . كما ظل يردد أخيلة الاقدمين وأساليبهم فى نظم الشعر وعنايتهم بالمحسنات اللفظية والبديعية من جناس وترصيع وازدواج وتورية . (كما أن بناء القصيدة لم يطرأ عليه تبديل أو تغيير . فقد كان لزاما على الشاعر أن يبدأ القصيدة بالغزل أو النسيب أو وصف الفرس أو الناقة أو الليل أو الخمر وما يتصل بها من ذكر الساقى والكئوس والندماء وأسمائها ودنانها ونقلها او وصف الرياض والرياحين والورد بمختلف أشكالها وألوانها[1]) .

ومما لاريب فيه ، فإن هذا التقليد الشامل لأغراض الشعر وأساليبه وأخيلته فى العصور المظلمة ، هو الذى حدا بالباحثين على أن يرتأوا أن (صفى الدين الحلى والشاب الظريف وابن نباته وابن الوردى كانوا فى أغراضهم وأساليبهم وعنايتهم

(١) محاضرات عن الشعر العراقى الحديث للأستاذ عبد الكريم الدجيلى ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية — قسم الدراسات الأدبية واللغوية ص ٧ .

بالمحسنات اللفظية يعيشون فى العراق باسم الأخرس والعمرى وحيدر الحلى والعشارى[1]) .

إن خير مثل نستطيع أن نذكره للدلالة على ماذكرناه هو الشاعر عبد الغفار الأخرس[2]. فهو قد طرق جميع أغراض الشعر المعروفة . كما أنه لم يخرج عن نطاق الدائرة المرسومة فى عصره فى محاكاة أخيلة الاقدمين وترديد أساليبهم فى نظم الشعر .

فالمدح فى شعره مثلا ، وهو أميز أغراض شعره جميعاً ، يتسم بالمبالغة الشديدة . فإنه — على طريقة شعراء تلك الفترة — يضفى على الممدوح صفات فيها شىء كثير من الغلو والمبالغة . فنحن حين نقرأ بعض قصائده فى المدح ، ما شككنا قط فى أنه مبالغ ، أشد ماتكون المبالغة ، حين يصف الممدوح بصفات تكاد تكون معدومة فى القيم الإنسانية . فهو مثلا يجعل من نفسه عبداً ويجعل من مادحه سيداً فى قوله :

فيا بيت القصيد إليك تهدى من العبد الرقيق لك القصيد

وهو يعد أنامل الممدوح جداول للعطايا والهبات ، ويعده أيضاً رياضاً يجد فيها الوافدون مرتعاً خصباً .

أناملة جداول للعطايا وبهجته رياض للوفود

وقد ذهب فى مدحه أنه لولا مدح مولاه (على) لما أجاد النظم والنثر .

ولولا مدح مولانا (على) لما جدت النظام ولا النثارا

(١) الشعر العراقى أهدافه وخصائصه فى القرن التاسع عشر للدكتور يوسف عز الدين س ٢٦٦ مطبعة الزهراء فى بغداد ١٩٥٨ .

(٢) ولد عبد الغفار الأخرس فى الموصل سنة ١٢٢٠ هـ ، وتوفى سنة ١٢٩١ هـ ودفن بمقبرة الامام حسن البصرى خارج قصبة الزبير بالبصرة ... نشأ فى بغداد وأخذ يدرس العلوم الدينية والعقلية واللغوية على علماء بغداد المشهورين فى ذلك الوقت . وتهيأت له فى بغداد فرصة الاتصال بالوالى داود باشا ... ولقب بالأخرس لتلعثم وثقل فى لسانه ، ويكاد إذا نطق يختنق بحبل الاجل ، فأرسله هذا الوالى إلى الهند لمعالجة لسانه من الحبس ، فقال له الطبيب « سأجرى لك عملية للسانك فإما أن تموت وإما أن تحيا » فقال « لا أبيع كلى ببعضى » فرجع إلى بغداد ولم يلبث أن اتخذ من البصرة مسكنا له ، وبقى فيها حتى وافاه أجله المحتوم . وله ديوان شعر ضخم جمعه أحمد عزت باشا الفاروقى وسماه (الطراز الأنفس فى شعر الأخرس) . انظر ترجمته فى كتاب المسك الأزفر للآلوسى ، وكتاب نهضة العراق الأدبية فى القرن التاسع عشر للدكتور محمد مهدى البصير) ...

يخلص لنا من ذلك كله، أن هذا الشعر فى مجموعه حتى أواخر هذا القرن تقريبا ، لم يهتم بالمجتمع الذى يعيش فيه ، ولم يسهم فى التعبير عن أمانى الشعب وآماله وآلامه ، ماعدا صيحة فردية ، ضاعت فى زحمة هذه الأصوات الرتيبة وهى الصيحة التى انبعثت من الشاعر عبد الحميد الشاوى ، الذى قيل عنه إنه أول صوت عربى ناشد إصلاح الأوضاع السيئة التى كان يعيشها المجتمع العراق فى هذا القرن[1] .

وهناك من يعزو سبب هذا التأخير فى الشعر فى هذه الفترة ، والنزعة الفردية التى سادته ، وجموده على قوالب رجعية مرسومة ، وفقدانه لكل عنصر من عناصره المقومة لوجوده ، كالحرية فى التعبير، والحرارة فى العاطفة ، والجودة فى الخيال ، إلى (سوء الإدارة ، واضطراب الوضع فى البلاد ، وتأخر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وسيطرة الروح الفردية والنظام القبلى[2]) .

بيد أننا لا نسلم بهذا الرأى ، لأنه صار من الثابت ، أن يكون سوء الإدارة ، واضطراب الوضع السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، من أهم الدواعى لإثارة كوامن الشعراء، وانطاقهم شعراً يعبرون به عن هذه الأوضاع السيئة ، ويشاركون به مشاركة فعالة حازمة لآلام الشعب وآماله[3] .

هذا وإننا سنرى ، فيما بعد ، أن هذه الحياة المضطربة الفاسدة ، هى التى أوجدت طبقة من الشعراء ، همها الأول والوحيد ، هو التعبير عن مشاكل هذه الحياة ، والدعوة إلى توحيد جهود أفراد الشعب لمحاربة الأوضاع الفاسدة ، والوقوف صفا واحدا أمام من تسول له نفسه الاستهانة بمقدراته .

ولكننا نستطيع أن نعزو سبب هذه النزعة الفردية فى شعر هذا العصر، إلى عدم النضوج الفكرى ، والوعى السياسى والاجتماعى والاقتصادى بين هؤلاء الشعراء ،

(١) معروف الصافى — دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانه ص ١٠٢ (الطبعة الثانية) ، مطبعة الرسالة .
وانظر كذلك كتاب المدخل فى تاريخ الأدب العربى للأستاذ محمد بهجت الأثرى ص ١٨٧ .
(٢) الشعر والشعراء فى العراق ١٩٠٠ — ١٩٥٨ تأليف أحمد أبو السعد ص ٤ دار المعارف بلبنان.
(٣) من ذلك مثلا ما رواه الرصافى عن نفسه قائلا : « إن مشاهد البؤس كانت من أشد الدواعى عندى إلى نظم الشعر » .
أنظر كتاب معروف الرصافى للدكتور بدوى طبانه ص ١٧١ (الطبعة الثانية) .

ناهيك عن عوام الناس ، إذ كانوا بمعزل عن تلكم الاتجاهات السياسية والاجتماعية والحركات التحررية ،التي هزت هذا القرن هزا عنيفا ، وذلك بحكم طبيعة موقع العراق الجغرافى ، الذى كان قليل الاتصال بالبلاد العربية ، والبلاد الأوربية على حد سواء .

كما نستطيع أن نعزو سبب هذه النزعة الفردية أيضاً ، إلى ذلك الولاء العظيم الذى كان يتسم به هؤلاء الشعراء جميعاً للخلافة العثمانيه من جهة ، ولهؤلاء الولاة الذين هم رسل هذه الخلافة فى العراق من جهة أخرى فلم يكن بمقدور هؤلاء الشعراء ، والحالة هذه ، أن يشاركوا الشعب فى أمانيه ومتطلباته . لأن هذه المشاركة تعنى أن يعرضوا للناس الأوضاع السيئة ، بل البالغة فى السوء ، التى كانوا يعيشونها ، وتعنى بالتالى أن يتعرضوا لهؤلاء الولاة ، الذين هم سبب هذه الاوضاع الراهنة ، أوالراضون على بقائها . وهم فى غنى عن ذلك كله ، ما دام الشعور بهذا الولاء هوشعور عام ، يشمل جميع أفراد الشعب العراق الذى لم يكن مستعدا فى هذا الوقت لتقبل مثل هذه الانتقادات لهذه الاوضاع ، ولهؤلاء المسؤولين .

هذا ولا حاجة بنا لذكر أن هذا الولاء كان أساسه الرابطة الدينية التى تشد بين أفراد الشعب العراق المسلم ، وهذه الخلافة العثمانية ، حامية حمى المسلمين ، والممثلة لعزة الإسلام ومنعته وعظمته .

ومع ذلك فإن بعض الباحثين قد ذهب إلى أن طائفة من الشعراء ، فى هذا القرن، قد اتخذوا « الشعر الدينى » وسيلة للتعبير عن كالح واقعهم ، وقسوة أوضاعهم ، فترفعوا عن الصغار ، وانطلقوا فى أجواء الحق ، وسماوات الحرية ، وسمت بهم هممهم على أن يجعلوا من أنفسهم عبيداً لوالى أو سلطان (فالتجأ الشعراء للدين لكى يرضوا ضمائرهم بمدح الرسول وآله ، ينشدون السلوى فى المثل العليا والأخلاق الروحية السامية، فكان الشعر الدينى مشحونا بالآلام،فياضا بالمسرة والأشجان ، نفس فيه الشاعر عن حياته التى ارهقته ، وواقعه الذى آلمه ، فإذا ما فكر الشاعر بالإمام الحسين وثورته على (يزيد) فى نظم الشعر الدينى ، فإنما يفكر فى دعوة عامة للحرية والرفاه اللذين حرم منهما. وكان يمثل سخطه على (يزيد) ومعاوية وزياد ، سخطه على دولة أهدرت

كرامته الإنسانية وفضلت عليه الأنعام والحيوانات . وكان شعراء الشيعة خاصة ، مثلا عاليا للمطالبة بالحرية والثورة على النظم العثمانية[١]) .

وينتهى هذ القرن ،الذى حسبه الدكتور محمد مهدى البصير (نتيجة رائعة للقرون المتوسطة فى هذه البلاد ، ومقدمة أكثر روعة للقرن العشرين[٢]) .

وإذا بهذا الشعر العربى فى العراق يتحول بغتة من حدود هذه النزعة الفردية ، إلى المشاركة الوجدانية لآلام الشعب وآماله . وإذا بهذا الشعر الذى كان يدور فى فلك الولاة والحكام ، ويقف على أعتابهم ، ومن يضلع فى ركابهم ، بدأ ينزع نزعة « شعبية » ويميل إلى التعبير عن أمانى الشعب ومتطلباته . إذ بدأ يدلف إلى بيوت الناس ومجالسهم ، ويبحث عن مآسيهم وأوجاعهم ، ويهتم بمشاكلهم ، ويعالج قضاياهم ، بكل ما أوتى من صدق عاطفة ، وصفاء ضمير ، ونقاوة وجدان .

وليس بامكاننا أن نعلل سبب هذا التحول إلا أنه صدى لازدياد الوعى السياسى ، والنضوج الفكرى ، وشيوع بعض المفاهيم الثورية بين عامة المفكرين والمثقفين ، فتنبهوا إلى المساوئ التى تحيط بالعراق ، وشرعوا يبحثون عن أسباب هذه المساوئ ، ولما علموا أن الإداره الحميدية هى السبب فى ذلك ، بدأ الصراع السافر بين الشعراء ، وبين هذه الإدارة ، وكثيرا ما كان يتخذ هذا الصراع مظهر الشدة والعنف .

وهكذا برز إلى الوجود الشعر السياسى والاجتماعى . وكثر الشعراء الذين يعالجون المشاكل الاجتماعية المختلفة ، ويتأثرون بالأحداث السياسية واتجاهاتها . وقل أن نجد شاعراً فى هذه الفترة بالذات ، وهى الفترة التى تمتد من بداية القرن العشرين ،قد ابتعد عن الشعب ومشاكله وغاياته .

فالرصافى والزهاوى والكاظمى ومحمد رضا الشبيبى وعلى الشرقى ومحمد باقر الشبيبى وخيرى الهنداوى ومحمد مهدى الجواهرى ، كان شعرهم جميعاً يعبر تعبيراً صادقاً عن كل ما يتعلق بالمجتمع العراقى فى جميع شئونه ومشاكله وأمانيه .

(١) الشعر العراقى — أهدافه وخصائصه فى القرن التاسع عشر للدكتور يوسف عز الدين ص ٣٤ . مطبعة الزهراء ببغداد ١٩٥٨ .

(٢) نهضة العراق الأدبية فى القرن التاسع عشر للدكتور محمد مهدى البصير ص ٣٣٠ مطبعة المعارف ببغداد ١٩٤٦ .

ولما كانت مشاكل هذا المجتمع عديدة متنوعة ، فقد بدأنا نقرأ شعراً يعالج جميع هذه المشاكل الاجتماعية ، ويضع الحلول المناسبة لها . ولقدنال التعليم ، النصيب الأوفر من اهتمام هؤلاء الشعراء ، باعتبار أنه الركيزة الأولى لتقدم المجتمع وإصلاحه ، فكثر الشعر الذى يطالب بالعلم ، وأباحة التعليم لجميع الناس على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم ، لانه حق من حقوقهم الطبيعية فى هذه الحياة .

كما بدأ الشعراء يعالجون مشاكل الفقر والفقراء ، والبؤس والشقاء ، ويدعون فى الوقت ذاته إلى تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس ، والقضاء على الفوارق الطبقية المصطنعة بينهم .

كما أهتم الشعراء بدراسة قضايا المرأة ومعالجتها معالجة صريحة جريئة ، على اعتبار أنها تكون نصف المجتمع الذى نعيش فيه . ولم يكن من رأيهم ، أن أنصاف الحلول ، أوالوسط من الحلول ، كما عبر عن ذلك شاعر النيل حافظ إبراهيم فى قصيدته المشهورة عن النساء ، هو أساس هذه المعالجة ، ولبنتها الأولى ، وإنما هم ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، حينما دعوا إلى وجوب تعليمها وتثقيفها ،حتى تستطيع أن تكون قادرة على تربية جيل ناشئ متمذ بلبان الفضيلة والأخلاق .

كما دعوا إلى مشاركة المرأة للرجل فى ميادين العلم والعمل ، وحسنوا لها السفور ، وطالبوها بخلع الحجاب ، وأطلقوا لها حريتها فى اختيارها لزوجها ، ونصحوا بتقييد الطلاق ، إلى آخر ما يتعلق بالمرأة من شئون فى هذا المجتمع المتخلف .

وبالجملة فإن الشعراء العراقيين قد عبروا أحسن تعبير وأبلغه عن هذا المجتمع الذى يعيشون فيه ، وشاركوه مشاركة وجدانية فى آماله وآلامه ، وبينوا له أنجع السبل فى انهاضه ، والبلوغ به إلى مراتب سامية من العزة والكرامة .

هذا من الناحية الإجتماعية .

أما ما يتعلق بالناحية السياسية . . .

فقد شارك الشعر العربى فى العراق مشاركة فعالة حازمة فى جميع الأحداث السياسية التى جرت على مسرح السياسة ، سواء فى داخل العراق ، أو فى ترك البلاد العربية الأخرى .

فلقد كان له صوت قوى تجاه سياسة السلطان عبد الحميد التعسفية . وكذلك كان له صوت قوى تجاه السياسة التى بدأت تسلكها وزارة جمعية الاتحاد والترقى التى وليت الحكم بعد خلع السلطان عبد الحميد .

كما وقف الشعر العربى فى العراق موقفا حازما من الانكليز الذين استعمروا العراق بعد أن طردوا منه الاتراك ، فقاوم المعاهدات التى كانت تعقد بينهم وبين العراق ، بين حين وآخر ، وندد بالحكومات القائمة كل التنديد ، وسخر من وزرائها أشد السخرية . ولقد كان له كذلك موقفة المشرف فى مناصرة ثورة رشيد عالى الكيلانى ضد الانكليز ، وضد العائلة المالكة فى ذلك الوقت .

وبعد هذا ، بل وقبل هذا ، فقد أسهم هذا الشعر فى اشاعة الروح القومية ، ودعا إلى توحيد اجزاء الدول العربية ، واقامة دولة عربية واحدة . كما طالب الشعوب العربية بالعمل الجدى المخلص لتحقيق هذا المطلب الحيوى ، وبين لهم أن هذه الشعوب ما هى فى حقيقة أمرها إلا من أمة واحدة مجيدة ، وإن السياسة الاستعمارية هى التى قضت بينها بالبعاد ، وجزأتها إلى دول عديدة ، حتى تسهل سيطرتها عليها ، وتستطيع بالتالى أن تنفذ فيها اغراضها الاستعمارية .

وهكذا فقد كان هذا كله سببا فى مطاردة هؤلاء الشعراء الأحرار ، والفتك بهم من قبل السلطات الاستعمارية ، أو التى تحكم باسمها . وقل أن نجد شاعرا منهم لم يسجن ، أو يعتقل ، أو ينفى ، أو يراد تجويعه بمختلف الطرق والوسائل .

وعلى هذه الصورة نهض هذا الشعر من الكبوة التى صار إليها بعد عهد الانحطاط الطويل ، ودخل فى عهد جديد من النمو والازدهار .

ولقد حاول كثير من الأدباء أن يحددوا بداية هذه النهضة الأدبية الحديثة . فذهب بعضهم إلى أن بدايتها هو عام ١٩٠٨ ، أى فى بداية عهد اعلان الدستور العثمانى[1] وذهب البعض الآخر إلى إنها لم تبدأ الا بعد قيام الحكم الوطنى فى العراق ، أى فى عام ١٩٢١[2] .

(١) محاضرات عن الشعر العراقى الحديث للأستاذ عبد الكريم الدجيلى ص ١١ .
(٢) نظرات فى التيارات الأدبية الحديثة فى العراق للدكتور جميل سعيد ص ٤ . وهى مجموعة محاضرات ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية فى معهد الدراسات العربية سنة ١٩٥٤ .

وليس يعنينا أن تكون بداية هذه النهضة فى هذا العام أو ذاك ، وانما الذى يعنينا أن تكون هذه النهضة قوية ، جذابة ، ذات اصالة فى التعبير تعبيراً صادقا عن أمانى الشعب وغاياته . وإن الشعر قد انتقل من حدود النزعه الفردية ، ودائرة النفع الشخصى ، إلى التعبير عن مجالات الحياة ، ومعالجة مشكلات المجتمع ، ورسم طريق النهوض به . كما يعنينا أن هذا الشعر ، الشعر العربى فى العراق ، لم يكن ذا نزعة اقليمية ، وإنما كان يتخطى هذه الحدود المصطنعة ، ويذهب إلى أن سبيل التحرر يجب أن يكون للامة العربية كلها فى جميع بلدانها وأقطارها .

ويخطىء من يظن أن هذا الشعر السياسى والاجتماعى فى أغلبه ، إنما كان يقصد به العراق لذاته ، وأنه هو وحده مدار الحديث والعناية والاهتمام . والحق أن الشعر العراقى كان شعراً عربياً بكل مافى الكلمة من معنى ، وإن الشعراء كلهم كانوا ينزعون نزعة عربية بحتة ، ولم يكونوا يشعرون فى يوم من الأيام إلا أنهم من أبناء الضاد ، المعبرين عن آمالها وغاياتها .

وبعد ، فلقد كانت هذه النظرة الاجمالية عن الشعر العربى فى العراق ، فى هذه الفترة ، وهى الفترة التى ازدهر فيها الشعر وتجاوب تجاوبا موفقا مع حاسيس الشعب ، تنحصر فى النظرة الموضوعية إليه ، والأغراض التى حرص على أن يطرقها أكثر من غيرها . أما من حيث شكل القصيدة ، ومبناها ، فقد بقى على ما هو عليه ، يعنى بالأساليب القديمة الموروثة ، فحافظ على القافية والوزن . كما أن اللغة التى استعملت فيه ، هى اللغة المألوفة ، والعبارات المسموعة ، وودع بصورة عامة ، كل ماله علاقة بشعر عهد الانحطاط ، من محسنات لفظية وبديعية وغيرها مما هو شائع ومعروف .

بيد أن هذا الشعر ما لبث أن اتخذ طورا جديدا خاصة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . إذ أن كثيرا من الشعراء بدأوا يتصلون بالآداب الغربية ، إما عن طريق الترجمة ، وإما عن طريق الاطلاع المباشر ، بعد أن كثر عدد الملمين باللغات الأجنبية ، فظهر اهتمامهم واضحا بمحاكاة الأدب الغربى ، والتأثر بالتيارات التى كانت سائدة فيه . ولذلك فقد تمايز هؤلاء الشعراء فيما بينهم ، واختلفوا اختلافا كبيراً .

فهؤلاء جماعة فتنوا بالشعر الرمزى ، فبدأوا ينظمون على منواله . وجماعة ثانية

فتنت بالشعر الرومانتيكى ، فحاولت تقليده ومجاراته . وجماعة ثالثة نزعت نزعة وجودية فى نظمها . وجماعة رابعة كلفت بالشعر الواقعى على اعتبار أن الشاعر يجب أن يلتزم بالمحيط الذى يعيش فيه ويحياه .

(وقد تجتمع فى شعر نفر منهم عدة مذاهب تتداخل بعضها مع البعض الآخر تداخلا يصعب معه استخلاص مذهب واحد مستقل من غيره كل الاستقلال[1]) .

ولكن معظم هؤلاء الشعراء ينحون منحى (الشعر الحر) فى صياغة هذه التيارات الشعرية الحديثة ، وهو التحلل من وحدة الوزن والقافية .

ولعل هذا السبب هو الذى جعل بعض الأدباء يعتقدون (بأن بعض الشعراء من ناشئتنا ذهبوا لمزاولته لسهولة تعاطية ، فهو لا يفرض عليهم الأطلاع على اللغة ومفرداتها ، ولا بالمهارة على أصولها وقواعدها . فمن هنا نرى هذا الشعر مشحونا بالأغلاط فى قواعد اللغة العربية ، وأكثره من جهة المعنى تافه ، ومن جهة الألفاظ ركيك مقداع[2]) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الشعر الرمزى الذى احتضنته بعض مجلات الأدب اللبنانية و(المصرية) ، وانتقل منها إلى بعض شعرائنا الذين يطالعون بانتظام مايصدر من هذه المجلات ، لم يكتب له البقاء فى العراق ، إذ سرعان ما انطوى على نفسه ، وانهزم من الميدان ، بعد أن فشل فى الوقوف أمام النقد والتجريح[3] .

كما أن الشعر الوجودى الذى تمثله فى العراق أصوات هزيلة باهتة ، لا تفهم عن الوجودية شيئاً إلا بمقدار ماتعتقد أنه التحلل من القيم والمثل الأخلاقية ، والسعى وراء ملذاتها ومسراتها ، سرعان ما انكفأ على وجهه هو الآخر ، وزحف إلى عالم الزوال والنسيان .

أما الشعر الرومانتيكى ، فلا يزال يتأرجح بين الزوال والبقاء . إذ بقى قسم من هؤلاء الشعراء يستوحون هذا النوع من الشعر ، ولا يفتأون يعيشون تجربتهم الذاتية ، ووجودهم الفردى .

---

(١) الشعر والعراء فى العراق ١٩٠٠ — ١٩٥٨ للاستاذ أحمد أبو السعد ص ٣ دار المعارف بلبنان .
(٢) محاضرات عن الشعر العراقى الحديث للاستاذ عبد الكريم الدجيلى ص ١٣١ .
(٣) المصدر السابق ص ١٢٩

أما الشعر الواقعى الحديث ، فقد كتب له أن يستمر فى أداء رسالته على الوجه الأكمل . ولا يزال الشعراء يتناولونه فيما بينهم للتعبير عن تجارب واقعية معاصرة ، اضطرب بها واقع بلادهم سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا . وبذلك يكونون قد أتموا ، أولا يزالون يتممون ، الرسالة التى تركها لهم الشعراء الذين سبقوهم فى واقعيتهم ، والذين ضربوا من أنفسهم أروع الأمثلة وأشرفها فى خدمة هذا الشعب العربى الأبى .

هذا وإن من واجبنا الآن ، وقد عرضنا للحركة الأدبية فى العراق ، فى العصر الحديث ، أن نسجل ماساهمت به المرأة العراقية فى هذا الحقل الخصب من حقول الثقافة العربية ، واعنى به الشعر العربى .

لقد لعبت المرأة دوراً هاما فى نهضة الشعر الحديث وتطويره بما يناسب روح هذا العصر ومتطلباته . فالمرأة العراقية بعد أن تعلمت وتثقفت وتخرجت من أرقى الكليات والمعاهد ، حرى بها أن تسهم فى هذه النهضة الأدبية الحديثة ، لتعبر بنفسها عن تجاربها الخاصة ، وأحاسيسها ومشاعرها الذاتية . والعراق اليوم يزخر بالشاعرات اللواتى يجدن نظم الشعر إجادة فائقة ، وإن البعض منهن (قد يفقن بإنتاجهن الأدبى بعض أشعار الرجال[1]) .

ولقد كان هذا الشعر الذى انطاق أول الأمر من أفواههن ، يناصر ويؤيد تأييدا مطلقا تلك الدعوات التحررية التى كان ينادى بها بعض الشعراء ، أمثال جميل صدقى الزهاوى ومعروف الرصافى ، والتى كانت تطالب بتعليم المرأة وتثقيفها وتحررها من الحجاب ، ونزولها إلى ميدان العمل ، كما أسلفنا القول فى ذلك .

ولما تحققت لهن هذه المطالب الحيوية ، واطمأنت قلوبهن لذلك بعض الشىء ، بدأ شعر البعض منهن يدخل فى حقول تجريبية ذاتية ، وصار شعرهن انعكاسا صادقا لحياتهن ، ومراحلهن النفسية ، وتأملاتهن الخاصة .

كما بقى شعر البعض الآخر منهن يعالج المشاكل الوطنية ، والقضايا القومية ، معالجة صريحة ثابتة . وشعر المرأة فى هذا المجـــال لا يقل أهمية وخطورة عن شعر

---

(١) أدب المرأة العراقية للدكتور بدوى طبانه ص ١٤ ، دار العالم العربى ١٩٤٨ .

الرجال فى توجيه المجتمع نحو الخير ، واسهامه فى كثير من ما جريات السياسة العراقية وأحداثها المتتابعة ، لأن هناك من الشاعرات العراقيات من تؤمن (بأن رسالة الشاعر أن يحيا بين قومه وأن يستلهم قضاياهم فيما يعينه ، وأن يجد لها من الحلول على ضوء من فكرة الثاقب ، وثقافته العميقة[1]) .

ومما لا جدال فيه ، أن هذا الشعر ، كان هو الآخر شعرا عربيا أيضا ، ينزع نزعة عربية ، ويدعو إلى ما تدعو إليه القومية العربية إلى التمسك بمثلها ومقومانها ، تماماً كما هو الحال فى شعر الرجال . وهذه نفحة عربية صادقة من نفحات إحدى الشاعرات العراقيات ، نسوقها للدلالة على صحة ما نذهب إليه :

ورثت العروبة من مولدى ... فكان دمى من دماء العرب
ولما رضعت تناولتها ... على صدر أمى ألذ الحلب
ولما نشأت تلقنتها ... أقاصيص يسردها خير أب
فلما كبرت تلقنتها ... تواريخ من صفحات الكتب
مفاخر بالنور قد سجلت ... على صفحة الدهر أو بالذهب[2]

وبعد . .

هذا عرض سريع عام لحركة الشعرفى العراق ، وتطور أغراضه ، وتنوع أساليبه، حتى منتصف هذا القرن تقريباً ، والذى كان الرصافى من أول الشعراء العاملين فى سبيل هذا التطور والتنوع ، والإرتفاع به إلى مستوى يحمد عنده عقباه ، ويسجل له بالخير ، كلما تعرض الباحثون بالدرس والتحليل لهذه النهضة الشعرية الحديثة فى العراق العربى .

---

(١) الأدب العربى الحديث فى معركة المقاومة والتجمع من المحيط إلى الخليج للأستاذ أنور الجندى ص ٢٩٨ ، مطبعة الرسالة ١٩٥٩ .

(٢) من قصيدة للشاعرة أميرة نور الدين بعنوان « عروبتى » انظر كتاب محاضرات عن الشعر العراقى الحديث للأستاذ عبد الكريم الدجيلى ص ٩٩ .

الباب الثانى

الفصل الأول

حياته السياسية

ليس باستطاعتنا — ونحن ندرس أدب معروف الرصافى السياسى — أن نغفل دراسة حياته السياسية ، وذلك لكى نبين بجلاء ووضوح ، أثر الأحداث السياسية التى عاشها الرصافى ، فى اتجاهاته وآرائه السياسية ، ومبلغ تأثره بها ، وأثره فيها .

إذ أن من الواضح أن الرصافى قد تأثر تأثرا بالغا بما كان سائداً من أحداث سياسية ، عاصرها ، وأحس بها .

كما أن للرصافى أثرا غير قليل فى توجيه الحياة السياسة فى العراق ، وذلك عن طريق أدبه وشعره ، وعن طريق حياته التى جعل منها مثلا يحتذى به المخلصون من أبناء أمته ، خاصة ذلك التأثير المتميز بنقده المر للاستعمار البريطانى من جهة ، وسخريته اللاذعة للحكومات التى كانت تعنو وتخضع لأوامر هؤلاء المستعمرين ، من جهة أخرى ، مما كان له أبلغ الأثر فى تفتح أذهان الناس وتنبيههم إلى مساوىء هذه الحكومات التى تأتمر بأوامر الذل والاستعباد .

ولقد كان من نتيجة هذا الأثر ، كما كان من نتيجة أثر غيره من المفكرين والشعراء ، ذلك الصراع الرهيب فى العراق ، بين الوطنيين الأحرار ، وبين رجال الحكم الذين خانوا شعبهم ، منذ تأسيس الحكم الوطنى فى العراق .

ومن ثم ، فإن للرصافى أيضاً أثراً كبيراً فى توجيه الشعب العراقى وجهة قومية صحيحة . فلقد بث فيهم الشعور العربى ، وأدخل فى عقولهم وقلوبهم أن العراق جزء لا يتجزأ من دولة كبيرة عظيمة ، هى الدولة العربية المتحدة ، وأن الشعب العراقى ماهو إلا جزء أيضاً من أمة مجيدة ، هى الأمة العربية ، وأن الاستعمار هو الذى اصطنع هذه التفرقة الزائفة بين الأمة العربية اصطناعا ، وجزأها إلى دول وشعوب . وما هى فى حقيقة أمرها إلا شعب واحد ، أو أمة واحدة ، لها مقومات وخصائص واحدة ، تجمع بين أفرادها ، وتشد بعضهم إلى بعض .

ولد معروف الرصافى فى بغداد عام ١٨٧٥ ميلادية . ولقد كانت بغداد ، فى ذلك الحين، وادعة ساكنة ، لايعكر صفو أمنها وسلامتها إلا والٍ جشع نهم ، وإلا ماكانت تقسو به عليها الطبيعة الغاضبة بين حين وآخر . فالناس فيها كانوا مسالمين ، لا يبغون فى دنياهم هذه غير الحصول على قوتهم ، وكأن لسان حالهم يردد قول أبى العتاهية المشهور:

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن لا يموت

وفى هذه البيئة الوادعة الساكنة ولد الرصافى .

ولد فى بيت كئيب،عششت فيه الظلمة ، وساد بين أفراده الجهل والفقر ، فى حى من أحياء بغداد الفقيرة ، ويدعى (حى القراغول)[١] ، من أبوين فقيرين ، ماكانا يملكان من أسباب الحياة ما جعلهما بقادرين على أن يوفرا لمولودهما الصغير عيشاً هنيئاً رغيداً . ولذلك لم يكن من المتيسر لشاعرنا أن يفتح عينيه على الذهب المنتشر تحت أقدامه ، كما كانت الحال بالنسبة إلى شاعر مصر الأكبر المرحوم أحمد شوقى . بل فتح عينيه على الجوع والفقر ، وعلى البؤس والشقاء ، خاصة وأنه قد فقد منذ صغره عاطفة الأب وحنانه ، ذلك لأن أباه (عبد الغنى) كان كثير الأسفار بحكم وظيفته ، إذ كان جندياً بنظام الدرك ، أى من الذين يتولون الأمن خارج المدن[٢] .

وهكذا نشأ معروف قليل الصلة بأبيه ، فاقداً حنانه وأبوته ، لو ما أن كانت أمه (فاطمة) تعوضه هذا الحنان ، إذ كانت تحبه حباً جما ، وتعطف عليه ، وترعى شئونه ، كما كانت (مرجعه فى كل شىء ، حتى بعد مجاوزته العقد الأول من حياته . . . فهى التى كانت ترسله إلى الكتاب وهوصغير ، وهى التى كانت تجهز له كل مايلزم لذلك)[٣] .

وواظب معروف على الذهاب إلى الكتاب ، مما خولت له هذه المواظبة الدخول فى المدرسة الرشدية العسكرية التى كان قد أسسها مدحت باشا الذى ولى بغداد عام ١٨٦٩ . غير أنه لم يستطع الاستمرار فيها إذ (جابه فى هذه المدرسة مشكلتين

(١) محاضرات عن معروف الرصافى للأستاذ مصطفى على ص ١ .
معروف الرصافى — دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانة ص ٣٩ (الطبعة الثانية) .
(٢) محاضرات عن معروف الرصافى ص ١ .
(٣) نفس المصدر ص ١ .

عصبتين لا قبل له باحتمالهما : احداهما ، صعوبة الدراسة ، لأنها كانت باللغة التركية التى لا يعرف منها إلا ألفاظاً قليلة ، وتعبيرات بسيطة ، تلقنها من تلكم الكتاتيب لم تعنه على فهم الدروس فهما صحيحا . والثانية ، هذا التنافر الشديد بين طبعه الأدبى وروحه الشاعرة الحرة ، وبين صرامة الجندية وقسوتها وإطاعتها العمياء[١]) .

وهكذا صار من اللازم على معروف أن يتجه فى دراسته إلى ما تهواه نفسه ، ويميل إليه طبعه . ومن الطبيعى أن يختار الرصافى المدارس الدينية ملاذاً لرغباته العلمية والأدبية هذه ، لعدم وجود المدارس المدنية الرسمية فى ذلك الحين . فاتجه إلى علامة عصره الشيخ محمود شكرى الألوسى ، وبدأ يتلقى على يديه علوم الدين والفقه ، وعلوماً أخرى كاللغة والمنطق[٢] .

ولازم معروف شيخه هذا أكثر من اثنتى عشرة سنة . وهو الذى لقبه بـ « الرصافى »[٣] (رجاة أن يخلف معروفا الكرخى فى صوفيته وزهده)[٤] .

ولما بلغ معروف مرحلة الشباب ، ورأى أن من الواجب عليه أن يبحث عن عمل يدر عليه ما يستطيع به أن ينفق على نفسه بعد أن كثرت متطلبات عيشه ، جد فى البحث عن وظيفة تحقق له متطلباته هذه . فاستطاع أن يتعين معلماً بإحدى المدارس الأولية[٥] . وظل يتدرج فى وظائف التدريس ، حتى استطاع أن يصل إلى وظيفة مدرس للغة العربية فى المدرسة الإعدادية الرسمية فى بغداد . وبقى معروف يواظب على تدريس اللغة العربية فى هذه المدرسة ، حتى إعلان الدستور العثمانى فى عام ١٩٠٨[٦] .

وقبل أن نترك الحديث عن هذه الفترة من حياة الرصافى ، بإمكاننا أن نتساءل : هل تأثر الرصافى بأستاذه الألوسى فى أفكاره الثورية ، واتجاهاته السياسية ؟

إن من الثابت الذى لا جدال فيه ، أن الرصافى قد تأثر كل التأثر بشيخه الجليل

(١) محاضرات عن معروف الرصافى ص ٤ .
(٢) محاضرات عن معروف الرصافى ص ٤ .
(٣) لبغداد جانبان يخترقهما نهر دجلة ... الجانب الغربى يسمى (الكرخ) والجانب الشرقى يسمى (الرصافة) وإليها انتسب معروف .
(٤) مجلة الرسالة عدد ٦١٢ ، تاريخ ٢٦ مارس ١٩٤٥ ، بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات .
(٥) محاضرات عن معروف الرصافى ص ٦ .
(٦) نفس المصدر ص ٦ .

فى مجال الإصلاح الدينى الذى كان يدعو إليه الآلوسى ، عن طريق الخطب والمواعظ ، وعن طريق الكتابة والتأليف ، بالإضافة إلى تأثره به فى المجالين الأدبى واللغوى .

بيد أن تأثير هذا الأستاذ الجليل على تلميذه الرصافى من الناحية السياسية ، لم يتضح لنا كثيرا ، ولم يرو الرصافى ، هو الآخر ، ماعلق فى نفسه وأفكاره شيئاً من هذا التأثير . ولكننا لا نستطيع أن ننكر ، بحال من الأحوال ، ما لهذا الأستاذ من تأثير كبير واضح فى صقل نفسية الرصافى الشاعرة الحساسة ، وتكوين بعض جوانب شخصيته ، حيث استطاع به ، أى بهذا التكوين الشخصى ، أن يفتح له بعدئذ بعض المجالات فى عالم السياسة .

فلقد كان أستاذه هذا يحثه على الجرأة والاقدام ، ويحبب إليه طابع الاعتماد على نفسه ، غير معتمد على الآخرين فى حل مشاكله الخاصة والعامة . مثال ذلك ، عندما نظم الرصافى أبياتاً من الشعر قالها فى مدحه دون أن يذكر فيها اسمه . . يقول الرصافى : « وأتيت بها صباحا إليه ، ولم أنشده إياها ، بل أعطيته الورقة التى كتبتها فيها ، وأنا خائف ألا تكون مقبولة لديه . فقرأها جهرا ، بعد أن سألنى عن ناظمها ، وعلم أنها من نظمى ، وكان يقرؤها باستحسان ، وينظر إلى فى أثناء قراءتها بتعجب ! . ثم قال : ولكن عادة الشعراء أن يتخلصوا فيما ينظمونه من الشعر إلى ذكر اسم الممدوح ، وانت أهملت ذلك ، فمن تعنى بهذا المدح ؟ فقلت وأنا فى قبضة الخجل : إننى قصدت مدحكم ، وظننت أن تقديم الأبيات إليكم كاف لأعلامكم أنها فى مدحكم ، واعتذرت »[1] .

ولما اطمأن الآلوسى إلى اكتمال هذا التكوين الشخصى عند تلميذه الرصافى ، اشرع يقدمه فى المناسبات المختلفة ، سواء الدينية منها أو السياسية ، معتمداً عليه كل الاعتماد ، مقدراً لذكائه وقابلياته كل التقدير .

مثال ذلك ، عندما جاء مندوب من جمعية الاتحاد والترقى إلى بغداد ، لتحريض الناس على الانضمام إلى الجمعية ، وحثهم على الاتحاد والسعى فيما يرقى البلاد . وقد جاء برسالة من الاتحاديين تتضمن الحث على هذا السعى والاتحاد . . وعقد

(١) معروف الرصافى للدكتور بدوى طبانة ص ٤٥ .

لذلك اجتماع كبير فى جامع الوزير حضره كثير من أعيان بغداد وكتابها وأدبائها ، يتقدمهم الشيخ محمود شكرى الألوسى ، وجميل صدقى الزهاوى ، وعبد اللطيف ثنيان .

فمن قرأ هذه الرسالة على الحاضرين ، وفيهم هؤلاء القوم من الأعيان والأدباء والكتاب ؟ .

ان الذى قرأها هو معروف الرصافى .

لقد طلب منه ذلك شيخه الألوسى[1] ! !

والألوسى ما كان ليفعل ذلك إلا لأنه قد اطمأن فعلا إلى اكتمال شخصية الرصافى ، وتوسم فيه المقدرة على مجابهة مثل هذه المناسبات ، ووقوفه موقف الذى لا يتهيب ولا يخاف .

ومن منظار خاص واضح ، نستطيع ان نتثبت إلى أى مقدار زاد سخط الرصافى وثورته على والى بغداد ، وسلطان الخلافة عبد الحميد ، وذلك حينما نجح هذا الوالى الألبانى الرجعى — كما وصفه الأستاذ محمد بهجة الأثرى — أن يزين للسلطان عبد الحميد بإبعاد الألوسى من بغداد ، ونفيه إلى الاناضول ، غيظاً منه وحسداً ، بتهمة نشره المذهب الوهابى فى العراق[2] .

ألا يزيد هذا الحادث المؤلم من سخط تلميذه الرصافى وثورته على من سولت له نفسه هذا العمل البغيض ؟

ألم يكن الوالى هو الذى فعل ذلك ؟ !

والوالى نفسه ، هل يستطيع أن يبعد أفضل علماء بغداد ، وأبعدهم صوتاً ، وأرسخهم محبة فى قلوب الناس ، مالم يكن مستنداً إلى قوة تسنده وتشد من أزره . .

ومن تلك القوة غير عبد الحميد وسلطانه وجبروته ؟

وهكذا كان . .

(١) انظر كتاب مختصر تاريخ بغداد بقلم على ظريف الأعظمى صفحة ٢٤٩ — ٢٥٠ . مطبعة الفرات بغداد ١٩٢٦ .

(٢) محمود شكرى الالوسى وآراؤه اللغوية — محاضرات ألقاها الأستاذ محمد بهجة الأثرى على طلبة القسم الأدبى فى معهد الدراسات العربية العالية ص ٨٧ .

حرب لا هوادة فيها بينه وبين السلطان عبد الحميد .

حرب لم يفتر سعيرها حتى خلع عبد الحميد .

وحينئذ خفت سورة ثورته عليه . .

ولسنا نزعم أن هذه الحادثة كانت هى وحدها السبب فى مهاجمته للسلطان عبدالحميد. بل هناك أسباب كثيرة غيرها تجمعت ، سنذكرها فى حينها . وأن هذه الحادثة ، حادثة نفى أستاذة الألوسى ، إنما حدثت بعد إعلان الدستور ، وقبل خلعة ، أى قبل خلع عبد الحميد . وإن تكن هذه الحرب بين الرصافى وبين عبد الحميد كانت مشتعلة الاوار قبل هذا التاريخ بكثير . .

وفى الحقيقة ، إنه لو لم يكن هناك تفاهم روحى ، وصلة نفسية متجانسة ، تربط بينهما ، وتشد أحدهما إلى الآخر ، لما لازمه الرصافى طيلة هذه المدة الطويلة ، مدة اثنتى عشرة سنة ، خاصة وأننا نعلم أن الرصافى قد تتلمذ على يد غيره من شيوخ زمانه ، منهم الشيخ عباس القصاب والشيخ قاسم القيسى[1] .

فالعلاقة بينهما أساسها هذا التفاهم الروحى ، والتقارب النفسى . . ناهيك عن العلاقة العلمية والأدبية بينهما ، فلو لم يجمعهما رابط مقدس من هذا التقارب ، والتجاذب الروحى ، لما كان كافياً أن يجمعهما علم ومعرفة يتلقاها الطالب من شيخه الأستاذ .

* * *

يقول الدكتور بدوى طبانة فى كتابه[2] : (كان بين العرب والترك أخوة يرفرف فوقها علم الإسلام . ولكن غلبت على بعض الترك العنصرية ، فغلبوها على سياستهم ، وأساء بعضهم إلى العرب ، فهبوا ينتقصونهم ، وظهرت بوادر الفتنة ومبادىء الشقاق والتفرقة . وقامت بعض الصحف التركية تزيد الفتنة اضطرابا . . وكان أكثر رجال الصحافة تمنتا وتعصبا وكراهية للعرب (أحمد جودت) صاحب جريدة

(١) معروف الرصافى دراسة ادبية لشاعر العراق للدكتور بدوى طبانة ص ٤٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٩ .

(أقدام) التركية . فقد نال من العرب ، وتطاول على مجدهم ، وعلى رجالهم ، فقام جماعة من المخلصين للعروبة ، فأهانوا صاحبها ، كما أهان عروبتهم وذهب جماعة من الممثلين للعرب فى مجلس المبعوثان العثمانى إلى الصدر الأعظم ، وشكوا إليه تجنى الجريدة وصاحبها ، فأرضاهم بتعطيل الجريدة ومصادرتها . ولم يلبث صاحبها أن أعاد إصدارها بعنوان جديد ، واعتذر إلى العرب عما كان منه ، وأراد أن يبالغ فى تبرئة نفسه من سوء النية ، فأعلن عزمه على إصدار جريدة عربية تشيد بذكر العرب وتقرب الهوة بينهم وبين الترك . فأرسل إلى معروف الرصافى يطلب إليه الشخوص إلى تركية للمساهمة معه فى إصدار هذه الجريدة . ففرح الرصافى بهذه الدعوة ، وخدعه الوعد الخلاب . فلبى الدعوة وأسرع إلى القسطنطينية ، يحدوه الأمل فى خدمة أمته والإشادة بمجدها. ولكن خاب فأله ، إذ وجد أن (أحمد جودت) لم يكن صادق الرغبة فيما وعد) .

وعاد معروف إلى بغداد بعد أن أخذ منه نفقات ذهابه وإيابه[1]

بيد أنه لم يلبث فى العراق إلا قليلا ، حتى استدعى مرة ثانية إلى الاستانة ، لكى يقوم بالكتابة فى مجلة (سبيل الرشاد) التى كان يصدرها عبد الله مبعوث آيدين[2] . إذ بدأ ، قبل إعلان الدستور العثمانى ، التفكير فى السياسة التى تعتمد عليها الدولة فيما لو تحقق الانقلاب المنشود ، وتم خلع السلطان عبد الحميد .

وظهر السؤال التالى :

ماذا يجب أن يكون الأساس الذى يقوم عليه بناء الدولة ؟

فلقد كان هناك جماعة من رجال الفكر والقلم يرون أن الأمور تحتاج إلى تفكير أعمق ، ونظر أبعد ، من المناقشات التى قامت حول نظام المركزية واللامركزية .

وأخذ هؤلاء يفكرون ويتساءلون :

هل يجب على الدولة أن تعتمد على الرابطة العثمانية ، فتبذل أقصى الجهود لتقوية هذه الرابطة ؟

(١) محاضرات مصطفى على ص ٦ .
(٢) معروف الرصافى دراسة أدبية لشاعر العراق للدكتور بدوى طبانه ص ٥٠ .

أم يجب عليها أن تعتمد على الرابطة الإسلامية ، فتوجه سياستها هذا الاتجاه ؟

أم يجب عليها أن لا تعتمد لاعلى هذه ، ولا على تلك ، فتتوجه بكليتها نحو القومية التركية ؟

إن هذه الأبحاث والمناقشات التى جرت قبل الانقلاب ، خارج البلاد العثمانية ، كان من الطبيعى أن تجرى وتتوسع وتتوالى بعد الانقلاب داخل البلاد أيضاً . كما أنه من الطبيعى أن تختلف الآراء حول هذه المسائل الأساسية اختلافاً كبيراً .

إذ صار لكل واحدة من هذه السياسات الثلاث، جماعة من الأنصار المدافعين من بين رجال الفكر والقلم .

ولكن هذه الأمور لم تتبلور فى أذهان رجال السياسة تبلورا كافياً لجعلها موضوع خطط حزبية وسياسية .

حتى أن جمعية الاتحاد والترقى نفسها ، لم تر داعياً لتقرير خطة صريحة فى هذا المضمار. وصار كل من زعمائها الثلاثة يتجه اتجاها يختلف عن اتجاه زميليه كل الاختلاف . فطلعت باشا مثلا ، كان ينزع إلى السياسة العثمانية ، فى حين أن أنور باشا ، كان يتجه نحو السياسة الإسلامية ، وجمال باشا كان يلتزم السياسة التركية .

وعلى هذا الأساس ، بذلت كل من هذه الجماعات الثلاث قصارى جهدها فى الدعاية إلى ما تؤمن به من أفكار واتجاهات سياسية ، وبث هذه الأفكار والاتجاهات بين أوساط الناس .

فأصدرت جماعة الرابطة الإسلامية ، لهذا الغرض ، مجلة سميت فى بادىء الأمر (سبيل الرشاد) ثم تغير اسمها إلى (الصراط المستقيم) ، وقد كانت تمثل شعورا دينيا قويا بعد إعلان الدستور .

كما أصدرت جماعة القومية التركية مجلة بعنوان (تورك يوردى) ومعناها (موطن الترك[1]) .

(١) انظر كتابى الأستاذ ساطع المصرى :
محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ص ١٤٥ و ١٤٦ مطبعة الرسالة ١٩٥١ .
والبلاد العربية والدولة العثمانية ، محاضرات ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية ص ١٠٩

وهكذا سافر معروف الرصافى يحدوه الأمل فى خدمة أمته والإشادة بمجدها ، كما يذهب إلى ذلك الدكتور بدوى طبانة كما يحدوه الأمل ، كل الأمل ، فى تبوء المناصب الرفيعة ، والحصول على مجد مؤثل ليس بإمكانه الحصول عليه إذا هو بقى فى بغداد . ولامراء أنه سوف لا يكتفى بتحرير مجلة ، وهو فى عاصمة الألقاب والمناصب الرفيعة ، وهو القائل :

لقد صغرت بغداد عن أن تضمها وما وسعتها بعد بغداد جلق[1]

وفى الاستانة ، بدأت للرصافى حياة جديدة ، حياة غير التى كنا نألفها له من قبل ، وغير التى كان يألفها هو نفسه .

وعلى أساس هذه الحياة الجديدة ، بدأ ينظم حياته هو والحق أن الرصافى قد أحب استامبول حباً شديدا بعد أن شاهد حسنها وبهاءها ، فامتلأت نفسه رغبة ورهبة لمنظر البحر الذى يحتضن الاستانة ويغمرها بعناقة الأبدى . كما امتلأت نفسه رغبة ورهبة لمنظر عمرانها وشوارعها وحدائقها الغناء .

كل ذلك أثر فى الرصافى ، وهو الشديد الإحساس ، فهام بها حبا ، وأولع بها كما يولع الشعراء عادة . واستطابت لنفسه سبل العيش ، ورفاهية الحياة ، فطلب فيها الزواج ، فتيسر له الأمر ، وتزوج امرأة ثيبا من الأتراك[2] .

وكما قلنا من قبل ، إن الرصافى لم يكن فى نيته أن يكتفى بالمساهمة بتحرير مجلة (سبيل الرشاد) . كما لم يكن فى حسبانه أيضاً ، أن يكون عمله الصحفى هذا كافياً وحده لطموحه ، ومدعاة لتحمل وعثاء السفر من بغداد إلى استامبول . لذلك بدأ اتصالاته برجال الدولة العثمانية ، حتى يفسحوا له بينهم مكانا عليا ، خاصة وأنه كان يحس إحساساً ظاهرا بأنه رجل العراق ، المدافع عن حقه ، المتفانى فى سبيل إسعاده .

وبتوالى الأيام ، استطاع الرصافى ، بجده وطموحه ، أن يحصل على وظيفة مدرس للغة العربية فى المدرسة الملكية الشاهانية[3] . كما عهد إليه فى الوقت نفسه بتدريس

(١) الديوان ص ١٥٩ .
(٢) معروف الرصافى — دراسة أدبية لشاعر العراق للدكتور بدوى طبانه ص ٥١ .
(٣) محاضرات عن معروف الرصافى للأستاذ مصطفى على ص ٦ .

الخطابة فى مدرسة الواعظين التى أسستها وزارة الأوقاف[1] ، بالإضافة إلى عمله الصحفى كمحرر فى المجلة آنفة الذكر .

ولم يمض طويل وقت على ذلك ، حتى عين نائبا فى مجلس المبعوثان العثمانى .

ونعود فنقول ، إن من جملة من اتصل بهم الرصافى ، وهم من علية القوم ، محمود شوكت باشا ، قائد الانقلاب العثمانى المشهور ، الذى قاد الجيش من سلانيك ، وأنزل السلطان عبد الحميد من عرش جبروته .

وكذلك اتصل بطلعت بك الذى كان يشغل منصب وزير الداخلية فى وزارة جمعية الاتحاد والترقى التى وليت الحكم بعد إعلان الدستور العثمانى . وهذا الرجل ، هو الذى قدم معروفا إلى هذه الجمعية ، وأوصى بتعيينه نائباً فى مجلس المبعوثان العثمانى عن (لواء المنتفق) ، وهو أحد ألوية العراق ، وذلك فى عام ١٩١٢[2] .

وعلى الرغم من أن الرصافى لم يكن قد انتمى إلى حزب من الأحزاب التى كانت موجودة فى ذلك العهد[3] ، فإنه كان دائم الاتصال بالهيئات والجمعيات التى كانت تعمل فى سبيل القضية العربية . وعلى الرغم من أن الرصافى كان يشعر بالعلاقة القوية التى تربط بينه وبين السلطنة العثمانية ، باعتباره أحد رعاياها المسلمين ، بيدأنه ، والحق ، كان لايتوانى فى إظهار عروبته ، والحرص عليها . وكان لايألو جهداً فى تدعيم غاياتها ، ويدعو إلى ما كانت تدعو إليه ، ويكافح التدخل الأجنبى الذى كان يروم استغلال تلك الحركات الوطنية .

من ذلك مثلا ، حينما قام الإصلاحيون فى بيروت يطالبون الدولة العثمانية بالإصلاح ، أيدهم الرصافى أول الأمر ، لاعتقاده بعدالة مطالبهم ، ولكنه لما اطلع على لائحتهم الإصلاحية ، ورأى فسادها ، أنبهم أشد التأنيب ، وفند لائحتهم ، واستهجن عقدهم لمؤتمرهم فى باريس ، وكانوا قد عقدوه هناك[4] .

---

(١) نفس المصدر ص ٦ .
(٢) مجلة الثقافة الجديدة نيسان (ابريل) العدد الأول سنة ١٩٥٤ .
(٣) مجلة الثقافة الجديدة — العدد الأول — نيسان سنة ١٩٥٤ .
(٤) انظر قصيدته (فى معرض السيف) ص ٤٠١ ، وقصيدته (ما هكذا) ص ٤٠٤ .

وسنأتى على هذا الموضوع بالتفصيل عند الحديث عن القومية العربية فى شعره .

هذا ، وليس بدعا ، أن يستجيب الرصافى لكل ما يهز عواطفه العربية ، ولكل مايعتقده أنه فى صالح أمته . فلقد أسس شباب العرب فى الأستانة ، منتدى أدبياً لهم ، وطلبوا إلى الرصافى أن ينظم لهم قصيدة ، تنشد فى يوم الافتتاح المذكور . فنظم لهم قصيدته (إلى الشبان[1]) ، مستنهضاً بها همم الشبان العرب . وقد دعاهم ، أول ما دعاهم ، إلى تسليح أنفسهم بالعلم ، لأنه عدة هذا الزمن ، ولأن العز لايكتسب بسواه .

ثم يقارن مقارنة لطيفة بين العالم والجاهل فيقول :

أنت يا جاهل من قبل الممات ... ميت يمرح ما بين البيوت
أو ما تعلم فى هذى الحياة ... أن رب العلم حى لا يموت
إذا قضى للعلم رب الكائنات ... بالعلى فهو زمام الملكوت
وعلى الجهل قضى بالعطب ... فهو فى الناس دليل التلف
فافتكر إن شئت علم السبب ... هل يكون النور مثل السدف

ثم يحدثهم ، يحدث هؤلاء الشبان ، عن تاريخ أمتهم المجيد ، حيث سادوا فيه العالم بفضل العلم ، وبفضل ما نبغوا فيه من العلوم .

ويحدثهم عن تاريخ بغداد ، بغداد عاصمة الدنيا أيام العباسيين ويقول :

سل ربا بغداد عما قد مضى ... لبنى العباس فى تلك الديار

ويحدثهم عن تاريخ الأمويين ويقول :

وأسألن الشام عما قد أضا ... للمعاويين فيها من فخار

ويحدثهم عن العرب فى الأندلس ويقول :

حيث بالعزم أماطوا العنتا ... وبنور العلم ليل الهوس

يحدثهم عن كل هذا ، أيام كان العرب سادة العالم ، أيام :

---

(١) الديوان ص ٦٥ .

أشرفت فيه من العلم النجوم ظن كل الناس أن لن تغربا
زمن قد ضحكت فيـــه العلوم وراها اليوم تبكى العربا

ثم يقارن بعد ذلك بين الماضى والحاضر فيقول :

أفكانوا مثلنـــا مختلفين لا يغيثون إذا خطب عرا
إننا يا شمس فى مضطرب قد ألفناه فلم نأتلف

وبعد أن ينظر إلى ما نحن فيه من فساد واضطراب ، وإلى ما نحن فيه من خلافات ومنازعات، يصرخ:

يا بنى العرب ما هذا المنـام أو ما أسـفر صبح النوم
أين من كان بكم يرعى الذمام ويلبى دعـــوة المهتضم
أفلا يلذعكم منى اللام فلقد ألفظ جمراً من فمى
خارجا عن نفس كاللهب محرقاً مهجمة قلبى الدنف
أنا لولا فيض دمعى السكب لتحرقت بنـار الأسف

وبعد أن تفتر سورة غضبه ، يئن أنين المفجوع ، ويخرج من قلبه آهة محموم ، فيقول :

آه لو رجع ماضى الحقب آه لو عاد زمان الشرف

وهكذا لم يستطع الرصافى أن يمسك زمام نفسه للتحسر على حاضر العرب ومستقبلهم ، ولم يتوان مطلقا فى استنهاضهم حتى ينالوا حقهم الكريم فى الحياة .

وفى هذه الفترة ، وهو فى الاستانة ، قويت عند الرصافى ، ولا شك ، بعض المبادىء السياسية ، والمثل الإنسانية ، وازدادت رسوخاً .

إذ لاريب أنه قد تأثر بمعانى فكرة الثورة التى انبثق نورها عن الثورة الفرنسية ، والتى انتشرت فى أرجاء البلدان العثمانية ، مثلما انتشرت فى كثير من البلدان الأخرى ، والتى كانت تنادى بالعدل والحرية والمساواة .

ونظرا لأهمية هذا الموضوع ، فإننا سنقف عنده قليلا ، ونوضحه على الوجه الآتى :

لقد ذكرنا آنفا أن الرصافى قد إتصل ، وهو فى الآستانة ، بكثير من رجالات الحركة السياسية ، والحركة الفكرية والأدبية . وهو لا ريب أيضاً قد اطلع على كثير من مؤلفاتهم ونشراتهم ، مما يجعلنا نعتقد أنه قد تأثر بكثير من آرائهم السياسية ، واتجاهاتهم الأدبية والفكرية .

ولقد كان كل من هاتين الجماعتين متأثرا جدا بالثقافات الفرنسية ، وبالمبادىء الثورية التى جاءت بها الثورة الفرنسية .

أما عن الحركة السياسية . .

فلقد انقسم الرجال الأحرار الذين تولوا أمر محاربة الاستبداد إلى صنفين : أحدهما يعمل فى داخل البلاد ، والآخر يعمل خارج حدود الدولة .

وهكذا صارت الجمعيات التى ألفها هؤلاء أيضاً نوعين ، الجمعيات السرية التى تعمل فى الداخل ، والجمعيات العلنية التى تمارس نشاطها فى الخارج ، ومعظم هذه الجمعيات العلنية كانت تعمل فى فرنسا .

فى سنة ١٨٨٩ ، أقيم فى باريس معرض عام بمناسبة مرور مائة عام على بدء الثورة الفرنسية . فسافر إليها جماعات من عشاق الحرية فى البلاد العثمانية ، والثوريين منهم . فبقوا هناك يشتغلون فى القضايا الوطنية والمناوئة للسلطان عبدالحميد ، وكانوا يجهدون فى حضور كل احتفال يقام بمناسبة هذه الثورة الفرنسية .

من هؤلاء ، السيد أحمد رضا ، الذى كان مديرا للمعارف فى بروسة ، والذى انتخب، فيما بعد ، رئيسا لأول مجلس نيابى اجتمع فى عهد الدستور . إذ حصل على رخصة للسفر إلى باريس لزيارة معرضها الدولى العام . ولكنه — بعد أن اجتاز الحدود ووصل باريس — قرر أن يبقى هناك للعمل فى سبيل حرية البلاد ، وأخذ يصدر جريدة سماها (مشورت) يعنى (المشورة) . وقد التف حوله جماعة من الشبان الموجودين فى باريس . ثم حصل اتصال بين الشبان الذين يعملون للحركة الوطنية فى استامبول ، وبين أحمد رضا وجماعة الذين اجتمعوا فى باريس ، وتقرر بعد ذلك أن تعمل الجماعتان معا ، وأن تسمى باسم « جمعية الاتحاد والترقى العثمانية » .

وهذه الجمعية ، هى التى نمت فيها بعد وتفرعت داخل البلاد وخارجها ، ووفقت بعد جهود طويلة إلى تحقيق غايتها الأصلية بإعلان الدستور ، وبخلع عبد الحميد .

كما عقدت الجمعيات التى تألفت خارج البلاد مؤتمرين فى مدينة باريس ، الأول سنة ١٩٠٢ ، والثانى سنة ١٩٠٧ ، واشترك فى هذين المؤتمرين ممثلون عن بعض الشعوب المسيحية التابعة للدولة العثمانية أيضاً

وكان مما قرره المؤتمر الأخير :

(ا) إجبار السلطان عبد الحميد على ترك العرش .

(ب) تبديل الإدارة الحاضرة من أساسها .

(ح) تأسيس أصول الدستور والمشورة .

ومن هذا العرض السريع نستطيع أن نستنتج إلى أى مدى تشبع الرجال الأحرار المناوئون لعبد الحميد بفكرة الثورة التى جاءت بها الثورة الفرنسية ، والتى تنادت بشعارات الحرية — العدل — المساواة .

هذا من جهة الحركة السياسية .

أما من جهة الحركة الأدبية والفكرية . .

فقد ساهمت هذه الحركة أيضاً فى شيوع مفاهيم الثورة الفرنسية فى البيئة العثمانية ، وخاصة استامبول ، على اعتبارها عاصمة الخلافة الإسلامية . بل ان شيوع الحركة الوطنية عند الأتراك العثمانيين بدأت أولا كحركة لغوية وأدبية ، ثم صارت تظهر فى الأبحاث التاريخية ، وبعد ذلك انتقلت إلى ميادين الحكم والسياسة .

فالحركة الأدبية والفكرية إذن جاءت مقتبسة من فرنسا بصورة عامة ، وكانت شديدة الصلة بالثورة الفرنسية .

ومن مظاهر هذا التأثير ، أن اللغة التى انتشرت فى الأوساط التعليمية فى استامبول ، كانت هى اللغة الفرنسية ، حتى أنه أسست مدارس رسمية تدرس علومها ، بهذه اللغة . فى حين أن الاتصال بالأدب الانكليزى والثقافة الانكليزية ، جاء متأخرا كثيراً ،

وبصورة محدودة ، إذ يحدد مجيئه فى بداية القرن العشرين ، كما أن اللغة الانكليزية نفسها ، كانت تدرس فى المدرسة البحرية وحدها .

وكذلك جاء تأثير اللغة الألمانية ، والثقافة الألمانية ، متأخراً أيضاً ، فالألمانية كانت تدرس فى المدرسة الحربية فقط .

هذا ، وساد الأدب التركى تياران أدبيان ، وأن كليهما قد تأثرا بما كان سائداً من تيارات فى الأدب الفرنسى .

فالتيار الأول وسمى (أدبيات جديدة) قد تأثر بالمدرسة الكلاسيكية الفرنسية ، وترجم كثيراً من قصص موليير وكتب جان جاك روسو وفولتير . وأن هذا التأثير كان محدوداً فى المواضيع ، وحافظ على العروض ، وانتشرت فيه الفكرة الوطنية :

إن زعيم هذا التيار ، هو شاعر تركيا العظيم (نامق كمال) الذى يعتبر أبو الوطنية فى العالم العثمانى . وقد عاش فترة طويلة فى فرنسا . وكان ثوريا بكل معنى الكلمة ، وكان يهدف على الدوام إلى استثارة روح الوطنية العثمانية المبنية على الحمية الإسلامية .

ومن أجل مواقفه الوطنية هذه نفى إلى قبرص .

يقول الدكتور برنارد لويس : (وقد كان لأفكار هذا المؤلف ، وكتاباته ، أثرها الكبير فى الأدب والسياسة التركية فى المرحلة المتأخرة . ولم يقتصر هذا الأثر على تركيا فحسب ، بل تعداها إلى غيرها من البلاد . ففى خلال القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، تلقى عدد كبير من أشراف العرب فى سوريا والعراق تعليمهم فى المدارس التركية ، وتفتحت عقولهم ، للآراء والأفكار التركية ، ووجدت كثيراً ، من المبادىء السياسية للشبيبة العثمانية طريقها إلى اللغة العربية ، ومن ثم إلى العالم الإسلامى الواسع بطريقة غير مباشرة[1]) .

ويمضى الدكتور برنارد لويس قائلا : (ونامق كمال معروف فى تركيا بأنه كان المبشر بفكرتين هما : الحرية وأرض الآباء (الوطن) . ففى مجموعة كبيرة من

(١) أنظر مجله « الوعى » التى تصدرها السفارة الباكستانية فى القاهرة ، ص ١٤ عدد مايو ١٩٥٩ .

المقالات والبحوث والمسرحيات والقصائد ، بشر هذا الكاتب القارىء التركى المسلم بهاتين الفكرتين المميزتين للمذهب التحررى الأوربى فى القرن التاسع عشر ، بطريقة تتفق مع تقاليد المسلم وأفكاره[1]) .

ويستطرد قائلا : (وتنبع نظرية نامق كمال السياسية فى أكثرها من آراء مونتسيكيو وجان جاك روسو ، كما أخذ آراءه فى مزاولة الحكم عن برلمانى لندن وباريس . أما أعمق وأبقى الآثار على تفكيره السياسى ، فهى تلك التى تركها كتاب مونتسيكيو (روح القانون) والذى بدأ ينشر ترجمته سنة ١٨٦٧ . وقد حاول نامق كمال فى أبحاثه المتأخرة أن يجعل أفكار مونتسيكيو متسقة ومتلائمة مع مبادىء الشريعة الإسلامية[2]) .

وإلى هذه الجماعة كان ينتسب الشاعر (عبد الحق حامد) الذى نشأ معاصراً لنامق كمال ، وكان لهذا الشاعر كثير من الأشعار والمسرحيات الوطنية .

أما التيار الثانى فسمى (أدبيات جديدة حديثة) وهو يؤكد معنى أكثر من معانى التجديد . وقد ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين .

إن هذا التيار متأثر هو أيضاً بتيار فرنسى آخر اتخذ لنفسه اسم (بارناسيان) (وهو اسم الجبل الذى عليه آلهة اليونان) للدلالة على اتجاهه فى الشعر . ولقد امتد هذا التجديد وشمل حتى العروض .

إن (توفيق فكرت) الشاعر التركى الكبير ، هو من أنصار هذ التيار .

هذه هى بيئة الاستانة التى سافر إليها ، وعاش فيها، معروف الرصافى . البيئة التى كانت تصطرع فيها التيارات والاتجاهات ، سواء الأدبية والفكرية منها أوالسياسية ، والتى هى فى جملتها متأثرة بما كان سائداً من أفكار واتجاهات فى فرنسا ، ومستمدة قوتها من معانى فكرة الثورة الفرنسية .

والرصافى الذى وهب حساً دقيقاً ، وشعوراً مرهفا ، سرعان ما تحس هذه

(١) انظر ص ١٤ من المجلة المذكورة سابقاً .

(٢) أنظر ص ١٥ من المجلة المذكورة سابقا .

المعانى الجديدة الشائعة ، معانى الحرية والعدل والمساواة ، ومعانى الثورة والوطن والوطنية . فبدأ يغرف كثيراً مما كان يناسب طبعه ونفسيته وتربيته من المعانى التى استطاعت أن تتغلب على بعض طراز تفكيره السياسى والأدبى ، وعلى بعض طراز معيشته وسلوكه الشخصى .

وفيما يلى ، سوف ننقل بعض الأمثلة التى ترجمها الرصافى من التركية إلى العربية ، وهى تعطينا أكبر دليل على مبلغ تأثره بالأدب التركى ، والاتجاهات السياسية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت .

والرصافى ما كان ليشرع بترجمة هذه النماذج ، ما لم يكن قد تأثر بموضوعاتها كل التأثر ، وأنه قد استجاب لما تحتويه من معان وطنية وانسانية أخذت منه كل مأخذ ، واستولت أشد الاستيلاء على لبه ومشاعره .

فالرصافى قد ترجم ، أول ماترجم ، رواية (الرؤيا) للشاعر نامق كمال . يقول الأستاذ مصطفى على : (الرؤيا . . رواية لأديب الترك نامق كمال ، ترجمها الرصافى عن اللغة التركية . وقيل انه طبعها سنة ١٩٠٩ ببغداد ، لم أطلع عليها ، ولا عرفت موضوعها[1]) .

كما ترجم الرصافى نشيداً وطنيا وضعه بالتركية الشاعر التركى توفيق فكرت ، عقب إعلان الدستور ، ترجمه إلى العربية بنفس الوزن ، ووضع لحنه موسيقار عربى موهوب من أهالى بيروت وهو (وديع صبرا) الذى كان رئيساً لفرقة موسيقى جيش البحرية . أما هذا النشيد فهو (النشيد الوطنى[2]) .

نحن خواضو غمار الموت كشافو المحن
ما لنا غير اكتساء العز أو لبس الكفن
نبذل الأرواح نفديها لإحياء الوطن
هل سوى الأرواح للأوطان فى الدنيا ثمن

(١) انظر كتاب الرصافى — صلتى به ، وصيته ، مؤلفاته ، للأستاذ مصطفى على ص ٨٧ ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٨ .

(٢) الديوان ص ٥٥٦ .

ياضـــــــــلال الآلى لم يكـــونوا الفـــدى
ان نمت نحن فلتحى أوطاننـا

كما أن الشاعر توفيق فكرت نفسه ، كتب قصيدة هاجم فيها بعض المرتشين والمستغلين نفوذهم من بعض رجالات الحكم ، فى عهد جمعية الاتحاد والترقى ، سماها بما معناها فى اللغة العربية (مائدة النهب) ...

هذه القصيدة عربها الرصافى بتصرف ، وجعل عنوانها (من مطبخ الدستور[1]) مشيراً إلى استغلال الحكم عن طريق الدستور ، والقصيدة هى : —

كلوا أيها السادة كما تنكره العادة
كلوا من مطبخ الدستو ر أكل الساسة القادة
كلوا بالسبعة الأمعا ء حتى تنفذوا زاده
كلوا لا تخشوا الناس فإن الناس منقاده
كلوا لا تخشوا الدهر فأم الدهر قواده[2]

هذا ، وإذا أردنا أخيراً أن نحدد باختصار ، اتجاهه السياسى ، فى هذه الفترة ، قلنا :

إنه كان يدعو — بعد أن آمن بهذه الدعوة كل الإيمان — إلى إصلاح أوضاع البلادالعربية ضمن السلطة العثمانية . إذ لم يكن من رأيه ، أن تنفصل هذه الدول العربية عن الخلافة العثمانية ، فى حال من الأحوال . ولا كان يرى ، كما كان يرى غيره من بعض رجالات العرب ، أن هذا الإصلاح المنشود ، لا يتم إلا بهدم كيان السلطنة العثمانية ، وانفصال البلاد العربية عنها ، كما سنرى فيما بعد .

* * *

وتجرى الأيام سريعة . . .

وتعلن الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .

---

(١) الديوان ص ٥٠٦ .

(٢) لقد أفادنا الأستاذ الكبير ساطع الحصرى بكثير من هذه المعلومات ، والأستاذ الحصرى خير من يستطيع أن يتحدث عنها ، لأنه عاش هذه الأحداث ، وتحسس أهدافها وانفعالاتها .

وتقف تركيا إلى جانب ألمانيا . . وتدور رحى الحرب تأكل أجساد الناس . والرصافى لا يزال فى تركيا .

وتجرى الأيام سريعة . . .

وتنتهى الحرب ، بعد تمزيق السلطنة العثمانية ، والاستيلاء على ممتلكات « الرجل المريض » ووضعها تحت سيطرة الدول الاستعمارية .

وتنجلى هذه الحرب الكونية عن عرش هاشمى فى دمشق ، يجلس عليه فيصل ، أحد أنجال الشريف حسين .

ويجىء الرصافى إلى الشام ممنيا نفسه بمنصب كبير خطير .

وكيف لا يمنى معروف نفسه ، ولطالما دافع عن العرب وحقوقهم ؟! والآن ، وبعد أن أصبحت لهم دولة ، فلماذا لا يكون هو فارسها المغوار ، وأسدها الهصور ؟!

ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . .

ذلك أن الملك فيصل ، فيما يبدو ، لم يكن راضيا عن وجود الرصافى فى عاصمة ملكه ، خاصة وأنه كان يعلم أن الرصافى كان قد هجا أباه الشريف حسين هجاءاً مقذعا عندما أعلن الحرب باسم العرب على الدولة العثمانية ، والتى وقف منها الرصافى موقفا معارضا ، كما سنأتى على تفصيل ذلك فى موضوعنا عن موقفه من هذه الثورة .

وهكذا وجد معروف نفسه ، وقد أوصدت من دونه أبواب المناصب والمراكز العالية . فترك دمشق مغاضبا ، وولى وجهه نحو فلسطين ، وقد اعتلج الأسى فى قلبه ، واشتعلت نار الكبرياء فى نفسه .

وفى قصيدته المشهورة (بعد براح الشام[1]) ، والتى قالها بعد أن بارح الشام ، كما هو ظاهر من عنوانها ، يصب الرصافى جام غضبه على أولئك الذين خذلوه فأذلوه من رجال الحكم ، وأذاقوه طعم الخسف والعار . وهو فى هذه القصيدة ، لا ينسى أن يشيد بمواقفه العديدة لنصرة العرب ، والوقوف إلى جانب قضاياهم زمن الأتراك العثمانيين . وكيف إنه الآن ، وبعد أن دار الزمان مداره ، وصار للعرب ملك فى الشام ، أصبح

---

(١) الديوان ص ٤٢٢ .

غير مرغوب فيه بينهم ، منبوذا من ملكهم وحاشيته من رجال العروبة الذين كان الرصافى أعلاهم مجدا ورفعة ، وأكبرهم نفسا ، وأكثرهم غناء فى نشدان الحق والحرية ، أيام السلطنة العثمانية . يقول :

قد كنت أنبط للقريض قريحة ... بمفاخر العرب الكرام تفيض
ولكم وقفت من السياسة موقفا ... محياى فيه على القوى معروض
مستنهضا بالشعر قومى للعلى ... إذ كان فيهم فترة وربوض
أيام لم ينطق بذلك شاعر ... قبلى ولم ينشد هناك قريض
حتى إذا دار الزمان مداره ... خاب القريض وعاد وهو جريض
وغدا ينازعنى الحرورة شاعر ... ما كان حرا شعره المقروض
ويبز فى ثوب الأمانة خائن ... كأبى براقش طبعه المرفوض
كم مدع دعواى فى وطنية ... أنا كنت أبنيها وكان يقوض
من كل عبد فى السياسة باعه ... وشراه هذا الدرهم المقبوض

* * *

ويجىء عام ١٩٢٠ . .

وتحدث فى العراق ثورة ، ثورة عارمة ضد الاستعمار البريطانى . وتتمخض عن هذه الثورة ، حكومة وطنية مؤقتة .

والرصافى لا يزال فى القدس . .

ثم يستدعى للعودة إلى وطنه للاستفادة من مواهبه السياسية والأدبية . ولبى معروف الدعوة . وغادر القدس مشيعا بمظاهر التكريم والاحترام . وجاء إلى بغداد مستبشراً بمستقبل ناصع ، وطامعا فى الحصول على ما لم يستطيع حصوله فى الشام ، وإن كانت التجارب الماضية قد زرعت الشك فى نفسيته الحساسة الثائرة ، خاصة وأن العراق قد بقى فترة طويلة من الزمن تحت الاستعمار البريطانى ، الأمر الذى جعله يصاب بالعفن والفساد من جراء هذا الاستعمار .

وبعد رجوع الرصافى إلى العراق ، بدأ يشارك مشاركة فعالة فى المعارك السياسية

التى كانت تشغل بال العراقيين جميعا فى تلك الفترة ، وذلك حينما علموا أن الانكليز سيمنحون العراق استقلاله ، ويعيدون إليه سيادته ، وأنه سيعين لهم ملك يختارونه هم بالانتخاب ، فى الظاهر على الأقل .

ولكن الناس كانوا يعلمون فى الوقت نفسه ، أن الانكليز يرغبون فى تنصيب الملك فيصل ، الذى فقد عرشه فى الشام ، على يد الفرنسيين الغزاة ، ملكا عليهم .

ولقد كان هناك كثيرون يعارضون هذا الاتجاه ، اتجاه تعيين الملك فيصل ملكا على العراق . وقد كان معروف الرصافى من جملة أولئك الذين يعارضون هذا التعيين ، وكان يؤيد ، بل ويدعو ، إلى تنصيب رجل من العراقيين أنفسهم ، ذلك هو السيد عبد الرحمن النقيب ، أحد أشراف بغداد ، ورئيس الحكومة العراقية المؤقتة ، كما سنرى فيما بعد[1] .

ويتم تعيين الملك فيصل ملكا على العراق . .

وفى الوقت ذاته ، يزداد تشاؤم الرصافى ، ذلك أنه كان يعلم مقدما موقف الملك فيصل منه . إذ مما لا شك فيه أنه قد بلغته مساعى الرصافى لعرقلة انتخابه ملكا على العراق . وهنا علينا أن نتذكر الآن مرة أخرى موقفه من الرصافى وهو فى دمشق .

وهكذا عمل الملك فيصل ، عن قصد وعمد ، على إبعاد الرصافى عن المناصب الرفيعة ، سواء الأدبية منها أو السياسية ، وإن كان قد سهل له أمر تعيينه فى وظيفة بسيطة شكلية فى وزارة المعارف ، هى وظيفة نائب رئيس لجنة الترجمة والتأليف[2] .

وليس يخالجنا شك فى أن الرصافى لم يكن مرتاحا لإسناد هذا المنصب إليه ، إذ كان يراه أقل من منزلته ، وأدنى من همته . بل لقد زاد من حنقه وألمه ، أنه لم يعين رئيسا لتلك اللجنة ، لا سيما وأنها لم يكن لها رئيس ، كما ادعى هو نفسه[3] .

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة — العدد الأول (نيسان) سنة ١٩٥٤ .

(٢) أدب الرصافى — نقد ودراسة للأستاذ مصطفى على ص ٨ ، مطبعة الرسالة ١٩٤٧ . الأدب العصرى فى العراق العربى — رفائيل بطى ص ٧٢ المطبعة السلفية ١٩٢٣ .

(٣) معروف الرصافى — دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية الاجتماعية للدكتور بدوى طبانه ص ٥٥ (الطبعة الثامنة) مطبعة الرسالة ١٩٥٧ .

وهكذا لم يعد الحال يعجبه فى العراق ، لما قد ناله من ظلم مقصود ، وجفاء معهود ، بعد أن أبعد عن المناصب الحكومية الرفيعة . وفى الحقيقة، أن الرصافى كان يشعر أنه مظلوم ، وأنه لم ينل ما نال غيره من كبار القوم ، بله صغارهم ، وهو الرجل الذى نذر نفسه لخدمة شعبه الكريم ، وجند قلمه للذود عنهم ، وعما يلاحقهم من خسف وظلم ، وهو يشاهد كل يوم تقدم الناس عليه ، وهو صقر بغداد ، وأسدها الهصور ، وهم فراخ العقائق :

أترضى وإنى صقر بغداد أننى تقدمنى فيها فراخ العقائق[1]

وفى قصيدته (إلى أول الأمر)[2] نرى الرصافى، يستنكر أشد الاستنكار ، ما قد لحقه من قطيعة وابعاد عن تلكم المناصب . ولا ينسى ، وهو يندد بالوضع القائم ، أن يكشف للناس ماهو عليه من نفسية رفيعة ، تريد أن تنال ما يناله غيرها دون خضوع وخنوع ، ودون أن يدنس نفسه بالاستجداء والتوسل .

وهكذا استمر الصراع بين الرصافى والملك من جهة ، وبينه وبين الانكليز من جهة أخرى ، كما سنرى ، إلى أن وصل بهم الأمر أنهم بدأوا يحاربونه فى رزقه ، ويقطعون عليه سبل عيشه . ومن أجل هذا ، بدأت تعترى الرصافى أحاسيس اليأس والقنوط ، لذا قرر ترك العراق ، على أن لا يعود إليها ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٢ ، حيث سافر إلى الأستانة ، أول الأمر ، ثم عاد إلى بيروت[3] .

وله فى هذا المقام قصيدة تعد من غرر قصائده السياسية والنفسية وعنوانها (بعد النزوح)[4]، حرى بنا أن نقتطف منها بعض الأبيات ، لكى نصور ما كان الرصافى يرجو ويتمنى للعراق ، ولأهل العراق ، وما كان يرجو ويتمنى لنفسه من أهل العراق . يقول :

أنا ابن دجلة معروفا بها أدبى وان يك الماء منها ليس يرويني
قد كنت بلبلها الغريد أنشدها أشجى الأناشيد فى أشجى التلاحين

(١) الديوان ص ١٧١ .
(٢) الديوان ص ٥١٤ .
(٣) محاضرات عن معروف الرصافى للأستاذ مصطفى على ص ٦ . ومعروف الرصافى دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانة ص ٥٦ (الطبعة الثانية) .
(٤) الديوان ص ٤٢٨ .

ويل لبغداد مما سوف تذكره عنى وعنها الليالى فى الدواوين
لقد سقيت بفيض الدمع أربعها على جوانب ود ليس يسقينى

ويقول :

ما كنت أحسب أنى مذ بكيت بها قومى بكيت على من سوف يبكينى
أفى المروءة أن يمتز جاهلها وأن أكون بها فى قبضة الهون
وأن يعيش بها الطرطور ذا شمم وأن أسام بعيش جدع عرنينى
تالله ما كان هذا قط من شيمى ولا الحياة على النكراء من دينى
ولست أبذل عرضى كى أعيش به ولو تأدمت زقوما بغسلين
أغنت خشونة عيشى فى ذرى شرفى عما أرى بخسيس العيش من لين
عاهدت نفسى والأيام شاهدة ألا أقر على جور السلاطين
ولا أصادق كذاباً ولو ملكا ولا أخالط أخوان الشياطين

إلى أن يقول :

علام أمكث فى بغداد مصطبرا على الضراعة فى بحبوحة الهون
لأجعلن إلى بيروت منتسبى لعل بيروت بعد اليوم تؤوبنى
خابت ببغداد آمال أؤملها فهل تخيب إذا استذرت بصنين

هذه بعض الصور التى رسمها لنا الرصافى بقلمة الثائر ، ونستطيع أن نتبين منها بوضوح ، ما كان يؤمله ويبتغيه . غير أن عواقب الأيام ، وصروف الدهر ، قد تغير فى مصائر الناس وآمالهم وغاياتهم ، دون ما رضاهم ، ودون ما يشتهون .

غير أن المقام فى بيروت لم يدم طويلا بالرصافى ، إذ سرعان ما رجع إلى بغداد ، وإن كنا لا نعرف السبب الذى من أجله عاد إليها بعد أن قرر هجرها . وفى ذلك يقول :

آب المسافر للديا ر على اضطرار فى إيابه
لو كان يجنح للأيا ب لما تعجل فى ذهابه[1]

(١) الديوان ص ٧٣ .

وعند رجوعه إلى بغداد ، أصدر جريدة باسم (جريدة الأمل) سنة ١٩٢٣ ، غير أنها ما لبثت أن احتجبت ، بعد أن صدر منها ثمانية وستون عدداً[1] .

ولم يزل الرصافى يشارك بفكره وشعره فى الأحداث السياسية التى كانت تجرى فى العراق . وكان لا يفتأ ينادى ويطالب بتحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية ، ويطلب للعراقيين العدل والمساواة والحرية .

وفى هذه الفترة ، نرى الرصافى ، وقد اشتد فى الحملة على الحكومة ، وعلى الانكليز . فعلى الرغم من أن الانكليز كانوا قد منحوا العراق استقلاله الشكلى ، وعملوا على تأسيس حكم وطنى فيه ، إلا أنهم لا يزالون يحكمونه من وراء ستار ، بواسطة مستشاريهم وأتباعهم ، الذين نددبهم الرصافى كل التنديد ، وأظهرهم للناس على حقيقتهم الاستعمارية البغيضة .

ومن أجل مواقفه الوطنية الرائعة هذه ، تجاه الحكومة ، وتجاه الانكليز ، ظل معروف مبعدا عن المناصب الرفيعة ، مرة أخرى ، منذ مجيئه إلى العراق بعد أن قرر هجره . وكان جل ما استطاع نيله ، هو أنه عين نائباً فى المجلس النيابى العراقى[2] ، وإن كنا ، والحق ، نستغرب هذا التعيين . وأقول « التعيين » لأنه ، كما يعرف الجميع ، لا أساس لانتخابات حرة شريفة فى العراق .

ونتساءل : كيف رضيت الحكومة عن تعيين الرصافى نائباً ، وهو لا ريب ، سيكون شديداً عليها ، وعلى سياستها المتخاذلة ضد الاستعمار البريطانى ؟! وأغلب الظن ، أن الحكومة قد سمحت بهذا التعيين ، حتى تستطيع ، وبرضاها التام ، أن تصطنع ، معارضة قليلة العدد بالنسبة لكثرة أنصارها ومؤيدى سياستها من المأجورين والطامعين ، حتى تضفى بذلك الصفة الشرعية على مشروعاتها ومقرراتها . وهذا مايحدث كثيراً فى البلدان الواقعة تحت الاستعمار ، أوالدائرة فى فلكه ، وكان يجرى فى العراق ، ويعرفه كافة الناس .

(١) محاضرات عن معروف الرصافى للأستاذ مصطفى على ص ٨ .

(٢) ناب الرصافى عن الأمة فى المجلس النيابى خمس مرات ، فتقلب على كرسى النيابة نحو ثمانية أعوام .

أنظر محاضرات عن معروف الرصافى للأستاذ مصطفى على ص ٨ .

ولا غرو ، فإن الحكومة العراقية ، لتعلم علم اليقين ، كم من النواب من يستطيع أن يرفع عقيرته للتنديد بمواقفها وسياستها الاستعمارية ؟

ومن غير الرصافى ، وغير نفر من أمثاله المخلصين ، من يستطيع أن يقف موقف المعارضة ، موقف من لا يرضى عن تلك السياسة الاستعمارية ، ولا يرضى عن رجالها من الخونة والأتباع والمأجورين .

وهذه هى المعاهدة التى فرضت على العراق عام ١٩٣٠ .. كم من النواب عارض ابرامها ، ونددبها ، بل ونددبنورى السعيد ، رئيس الوزراء ، الذى قدمها للمجلس للتصديق عليها .

إن خير شاهد على قولنا هذا ، هو تلك السجلات المحفوظة لدى مجلس النواب العراقى ، وهى أبلغ دليل يدمغ المتخاذلين بالخزى والعار ، ويضع على رؤوس المخلصين ، فى الوقت نفسه ، أكاليل النصر والفار[1] .

ولا يزال الرصافى ثائراً ساخطاً ، حتى قرر أن يهجر بغداد ويسكن الفلوجة (وهى أحدى المدن القريبة من بغداد) ، وكان يرغب بذلك ، ولا شك ، أن ينساه الناس ، وان كان هو لا يقدر على نسيانهم ، لما جبلت عليه نفسه من حب الناس .

وعاش فى الفلوجة عيشة بسيطة هادئة ، هى أقرب ما تكون إلى عيشة الزاهدين والمتصوفين . وانصرف إلى الكتابة والتأليف ، فألف كتابين من أروع كتبه هما : رسائل التعليقات ، وهو مطبوع ، والشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس ، وهو غير مطبوع[2] .

غير أنه ما لبث أن انقلب منها إلى بغداد ، بعد أن داهمها الانكليز بجيشهم

(١) لقد كان عدد المصوتين على هذه المعاهدة (٨٢) نائبا ، والموافقون (٦٩) والمخالفون (١٣) . وحتى بالنسبة إلى هؤلاء المعارضين فقد ذكر الرصافى أنهم تواضعوا على مخالفتها بأمر من رئيس الوزراء . وأنه هو النائب الوحيد الذى رفضها دون أن يواضعه على ذلك أحد ، كما سنذكر ذلك فى موضوعنا عن المعاهدات .

(٢) محاضرات عن معروف الرصافى للأستاذ مصطفى على ص ١٧ ، ٢٧ . ومعروف الرصافى — دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانة ص ٢٥٩ (الطبعة الثانية) .

الغادر ، أثناء ثورة رشيد عالى الكيلانى ، فى أيار سنة ١٩٤١ [١] .
وسكن الأعظمية[٢] .

وفى هذه الفترة العصيبة ، قاسى الرصافى كثيراً من الفاقة والحرمان . وأشد من ذلك ، أنه بدأ يقاسى آلاما نفسية عنيفة ، خاصة وأن أمراض الشيخوخة قد بدأت تصطلح على جسمه العليل . إلا أنه مع ذلك ، لم يضعف ، ولم يتخاذل ، تجاه الحق ، وتجاه ما يمليه عليه ضميره لنصرة شعبه ، وطلب الحرية والعدالة له . وكان ، وهو على تلك الحال ، أقوى ما يكونه الرجل ، من صلابة الرأى ، وقوة العزيمة .

وفى هذه الفترة ، فتح محلا لبيع السيكاير ليتكسب منه ، إلا أنه رحمه الله ، أغلق دكانه ، بعد أن جاء يوم كسدت فيه سوق السيكاير . وكان يردد ، وابتسامته الساخرة ترتسم على فمه :

« والله لو أننى حاولت بيع الأكفان لما استأثرت يد الرحمن بنفس من الأنفس[٣] » .

وعلى هذا الطراز من العوز والإملاق والمرض ، عاش الرصافى آخر أيام حياته ، إلى أن وافاه الأجل المحتوم صبيحة يوم الجمعه ١٦ آذار (مارس) من عام ١٩٤٥[٤] .

هذه هى حياة معروف الرصافى السياسية . . .

رقد حاولنا أن نبين خطوطها ، ونظهر معالمها .

وهى ، كما نرى ، حياة مليئة بالأحداث السياسية ، مفعمة بالمشاعر والأحاسيس النفسية . ومن خلال هذه الأحداث السياسية ، والأحاسيس النفسية ، برز لنا الرصافى كشخصية سياسية تتجاذبة كثير من الصفات الإنسانية . ولعل أبرز هذه

(١) محاضرات عن معروف الرصافى ص ٨ .

(٢) الأعظمية ضاحية من ضواحى بغداد ، وتقع فى القسم الشمالى منها . وسميت بذلك نسبة إلى الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، الذى هو مدفون فيها ، ولا يزال قبره قائما فيها وحوله مسجد من أكبر مساجد بغداد .

(٣) جريدة النداء — العدد ١٦٩ ، ١٨ آذار سنة ١٩٤٥ .

(٤) معروف الرصافى — دراسه أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانة ص ٦٦ (الطبعة الثانية) ١٩٥٧ .

الصفات الإنسانية ، التى اتسمت بها حياته السياسية ، ووضعت اسمه فى مدارج البقاء والخلود ، صفتان ، هما : جرأته وأباؤه .

فلقد كان الرصافى جريئا كل الجرأة فى طلب الحق ، ونشدان العدالة ، وفى تعشقه للحرية . كما كان الرصافى قوى الشكيمة ، صلب العريكة ، لا يلين ولا يتزعزع أمام الباطل — كل الباطل — وهو لا يفتأ يردد :

تعودت تصريحى بكل حقيقة وللمرء من دنياه ما يتعود
إذا رمت نصحا جئت بالنصح واضحا وما كان من شأنى الكلام المعقد[١]

وقد لازمت هذه الجرأة والشجاعة معروف الرصافى منذ بداية حياته حتى مماته .

فمنذ نشأته ، وهو يندد بطغيان السلطان عبد الحميد ، ويثل من عرش جبروته ، غير خائف ولا هياب . ولا أدل على ذلك من قصائده ، إيقاظ الرقود ، ورقية الصريع ، والسجن فى بغداد ، وغيرها من القصائد .

ولقد حكى الرصافى نفسه متحدثاً عن جرأته هذه فقال :

(. . وكانت القصائد تصل إلى أميركا فى ذلك الوقت . وكان فى أميركا جريدة لصاحبها نعوم البعلبكى اللبنانى ، وكان يقتبس هذه القصائد وينشرها فى (المناظر) جريدته . فكتب يوماً مقالاً قال فيه : ان معروف الرصافى اسم مستعار لا اسم حقيقى ، وأورد أدلة على ذلك ، منها أنه لا يمكن فى البلاد العثمانية أن يقوم رجل وينشر هذه القصائد وتتركه الحكومة وشأنه ولا تعمل له شيئاً . فكتب محمد كرد على كتاباً خاصاً إلى صاحب المناظر يقول له فيه : إنك مخطىء ، لأن معروف الرصافى رجل حقيقى ، ولنا معه مكاتبات ، وهو فى بغداد . فنشر البعلبكى هذا الكتاب فى جريدته ، وعلق عليه : بأنا لا نسلم لمحمد كرد على هذا القول ما لم ينقض الدليل الذى أقمناه على ادعائنا . فكرد على أرسل إلى هذه القطعة فكتب إلى أن يا فلان ، اترك هذا

(١) الديوان ص ٧٤ .

الرجل وما يقول ، لأن الرجل يخدمنا فى هذه الناحية ، فلماذا تنبه الحكومة على أن هذا الاسم حقيقى ، فهذا قد يسبب اضطهادنا)[1] .

وفى هذا المعنى يتحدث الشاعر اللبنانى الكبير بشارة الخورى ويقول : « سبقت الرصافى شهرته إلينا بما كانت تنشره له صحف مصر قبل إعلان الدستور ، من غرر القصائد ، تنبعث منها لفحات الحرية ، ويتطاير عن جوانبها شرار الوطنية ، حتى اعتقدنا أن معروف الرصافى إسم مستعار لشاعر عراقى كبير . وإلا فكيف يجسر رجل يظله خيال عبد الحميد ، ورجال عبد الحميد ، على بعث هذه الثورة فى قلب البلاد العثمانية ، وينفخ فى موقد الإصلاح الإسلامى فى بلد كبغداد حيث تسود الرجعية الدينية وتطغى . فإذا أنت قرأت له فى « سجن بغداد » وهى من أبرع قصائده :

بلاد أناخ الذل فيها بكلكل على كل مفتول السبالين أصيد

ثم إذا قرأت له قصيدته « التربية والأمهات » :

وقالوا شرعة الإسلام تقضى بتفضيل الدين على اللواتى

لقد كذبوا على الإسلام كذبا تزول الشم منه مزلزلات

شككت فى أن يكون الرصافى إسماً لرجل من لحم ودم ، يستهدف لنقمة السطان ، ومن تحت قدميه البوسفور ، ثم لمن فى بغداد من الرجعيين ، وهم حرب على رجال الإصلاح ، يخشون منهم أن يقطعوا ما بينهم وبين العامة ، فيرون صغاراً ويموتون جوعا »[2] .

وكما لازمت هذه الشجاعة معروف الرصافى أيام الحكم العثمانى ، لازمته كذلك فى عهد الحكم الوطنى .

إذ أن الرصافى (وهو موظف ، نظم أروع شعره السياسى . وفى طليعة هذا

(١) إن هذه المعلومات قد نقلها الأستاذ كامل الجادرجى مباشرة عن المرحوم معروف الرصافى عند ما كان يتحدث إليه ، فدونها حرفيا وثبتها كما هى . وفيها يلاحظ بعض الهفوات فى قواعد اللغة ، وبعض التقديم والتأخير فى تراكيب الجمل .
عن مجلة الثقافة الجديدة ، نيسان (أبريل) العدد الأول سنة ١٩٥٤ .

(٢) جريدة البلاد لصاحبها روفائيل بطى ، العدد ١٨٨ لسنة ١٩٣٠ :

الشعر ، شكواه العامة وشكواه الخاصة . وقد أنشد هاتين القصيدتين ، فى حفلتين من الحفلات التى أقيمت للريحانى حين زار العراق لأول مرة سنة ١٩٢٢ . ومن ذلك الشعر قصيدته (الحرية فى سياسة المستعمرين) وغيرها ، ما خلا المقطعات التى تتناقلها الأقلام ، وتتلقفها الأفواه)[1] .

والناس فى العراق ، كانوا ولا يزالون ، يتحدثون فيما بينهم ، كيف أن رئيس الوزراء ، المرحوم عبد المحسن السعدون ، أراد أن يصلح بين الملك فيصل الأول وبين الرصافى ، ويبدد ذلك الجفاء المستحكم بينهما . . . وعند ما جاءه الرصافى ، وجرى بينهما الحديث ، وتواصل ، قال له الملك فيصل : « هل أنت لا زلت تعتقد أننى أعدد أياماً وأقبض راتباً »[2] .

فأجابه الرصافى : « أرجو أن لا تكون كذلك » ، فأغضب هذا الجواب الملك فيصل ، وأخذ كلامه هذا مأخذ التحدى له ، ولجلاله ، فأمر بإخراج الرصافى من حضرته .

كما كان الرصافى جريئاً على الإنكليز ، شديداً على سياستهم الاستعمارية فى العراق . ونحن لا نظن أن أحداً من رجالات السياسة ، وأرباب الصحف والفكر ، استطاع أن يقف من الاستعمار البريطانى ، وموقف الحكومة المتخاذل تجاهها ، منددا بمظالمها وجورها ، داعياً للثورة ضدها ، مثل شاعرنا الرصافى .

ولعل هذه الجرأة ، هى التى حملت الرصافى على أن يوطن نفسه على ملاقاة المكاره ، ومواجهة المصاعب ، التي قد تنجم عن هذه الجرأة ، أو هى نتيجة حتمية لها ، فى بلد يحكمه الاستعمار ، ويعمه الظلم ، ويسوده الاستبداد .

ولذلك كان يحس إحساساً ظاهراً بهذه المصاعب والمكاره ، وكان يشعر بها ، ويقول :

(١) أدب الرصافى — نقد ودراسة تأليف مصطفى على ص ٧٧ مطبعة الرسالة ١٩٤٧

(٢) من قصيدة للرصافى غير موجودة فى الديوان ، يهجو بها الملك فيصل الأول ويقول فيها :

لنا ملك تأبى عصابة رأسه لها غير سيف التيمزيين عاصبا

وليس لنا من أمره غير أنه يعدد أياما ويقبض راتبا

وطن حياتك المكاره وارتقب كدر الموارد إن صفا لك مشرب
كل المواطن للاذاة مظنة حتى السماء تدب فيها العقرب[1]

وهكذا وقف الرصافى بكل جرأة وشجاعة واقدام ، موقفه الرائع فى سبيل الحق ، وفى سبيل ما يعتقد أنه الصواب لذلك ليس بدعا أننا نراه وقد ترفع عن الكذب والنفاق والمداجاة ، إنه والحق كما يقول :

وجردت شعرى من ثياب ريائه فلم أكسه إلا معانيه الغرا[2]

وهكذا جلبت عليه جرأته هذه ، وتحديه للباطل ، وثورته على الظلم والاستعباد ، نقمة الحاكمين عليه . فأخذوا يحاربونه فى رزقه ، ويمنعون عنه كل عون مادى ، حتى ينالوا منه، وحتى يريدونه أن يركع تحت أقدامهم، ويخضع لإرادتهم ومشيئتهم... ولكنه كان حراً ، أبى النفس ، عالى الكرامة .

ولقد كان بامكانه ، لو تملق لذوى السلطان ، وتقرب إليهم متزلفا ، بل لو اقفل فمه على الأقل ، لأخذ يرفل بالحرير ، ويسكن فى القصور المنيعة ، وعاش كاحسن مايمكن أن يعيش الرجل الغنى المترف . ولكنه آثر الحرمان فى سبيل الحق ، وترفع عن الذل من أجل الحفاظ على عزته وكرامته ، ألا وهو القائل :

فلا أبتغى بالذل عيشاً مرفها ولو عشته فى العزى بفول مدمس
إذا ابتسمت لى عزتى وتزاهتى فلست أبالى بالزمان المعبس[3]

لأنه كان يعتقد أنه :

لا خير فى العيش يغدو فيه صاحبه وأنفه باحتمال الذل مزدلم[4]

ولعل أروع ما نستطيع أن نذكره هنا ، فى هذه المناسبة ، هو ذلك البيان الذى نشره فى جريدة (البلاد) العراقية ، قبل وفاته بأشهر قليلة ، يرد به على أولئك الذين أذاعوا فى الصحف العراقية ، وغيرها من الصحف فى خارج العراق ، حالة الرصافى التى يكتنفها الفقر والسقام ، وقد طلبوا إلى الحكومة ، والعراقيين كافة ، أن يقدموا المعونة الكافية ، ليساعدوا هذا الصوت القوى الذى كان ينطلق لمناصرة الحق والعدل والحرية .

(١) الديوان ص ٥٠٩ (٢) الديوان ص ٥١
(٣) الديوان ص ٤٧٢ (٤) الديوان ص ٤٤٨

يقول الرصافى : « أرى بعض الصحف ، هنا وفى الخارج ، تكتب عنى من حين إلى آخر ، فتذكر أنى فى عوز ، أعانى منه الفقر والسقام ، وأنى فى ضنك من العيش . ثم هى بعد ذلك ، تستعطف الحكومة على ، كأن من واجبات الحكومة ، أن تسد عوز المعوزين ، إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تجارى الواقع ، ولا تنطبق على الحال .

أما أنا فأقول : لا أشك أن ما تقوله عنى تلك الصحف ، صادر عن نية حسنة ، وعاطفة شريفة ، تستحق الحمد والثناء ، ولكن لا يمنعنى أن أقول بأنه غير صحيح .

نعم ، إننى ذو صحة مختلة ، أحيا حياة معتلة ، ولكنى — والحمد لله — غير محتاج ، ولا يعوزنى شىء من مقومات الحياة . وكل ما هناك ، أننى أعيش كفافا ، ولم يكن عيشى كذلك فى هذه الأيام ، بل قد تعودته منذ زمان طويل ، متبعاً فيه قول أبى العتاهية .

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن لا يموت

فأرجو من كتاب الصحف ، أن يكفوا ، ومن قرائها أن لا يكترثوا لمثل هذه الأقوال . وأنا — وإن شكرت لتلك الصحف اهتمامها بشأنى — أستنكر استعطافها الحكومة على ، إذ لاعلاقة للحكومة بهذا الأمر ، إن صح ما يقولون . فأرجو أن تحول اهتمامها إلى ما هو أهم وأدعم من الأمور » .

بغداد فى ٢٧ كانون الثانى ١٩٤٥
معروف الرصافى[1]

هكذا هو معروف الرصافى . .

الرجل الذى آثر الناس على نفسه ، وتمنى لهم ما منعه عن نفسه ، وامتنع من نفسه عنه . وشغل بهموم الناس ، ويأبى على الناس أن يشغلوا بهمه .

وليس هو دعيا فى ذلك ، وما اصطنع هذه السجايا اصطناعا ، وتكلفها تكلفا .

(١) جريدة البلاد ، العدد ٢٤٣٦ سنة ١٩٤٥ .

بل هى حقائق شاهدها الناس بعيونهم ، وأحسوها بما يملكون من أحاسيس ومشاعر .

وعلى الرغم من أن الرصافى كان قد كبح جماح نفسه ، وما تشتهيه هذه النفس الأمارة بالسوء ، إلا أنه يعود فيحاسب نفسه بين الحين والحين ، لعلها قد استرضت يوما ، ما لا يود استرضاءه ، واشتهت ما لا يرغب فى اشتهائه ، وانحرفت عما رسمه لها من حدود معلومة ، من أجل الحفاظ على كرامته ، وعزة نفسه ، وأبائه . .

نقول ، على الرغم من كل هذا ، يعود فيحاسب نفسه بهذه الأبيات الرائعة :

نهيتك عن هواك فما انتهيت ... ولكن قد فعلت كما اشتهيت
فيانفسى عن الشهوات كفى ... فانت عليك يانفسى جنيت
وما أمارة بالسوء يوما ... سعت فى المنكرات كما سعيت
إذا ما حلبة الحسنات جاءت ... رأيتك أنت صاحبة السكيت
فإن أسدى الإله عليك عفواً ... وإلا يافجار فقد هويت[1]

(١) الديوان ص ٥٤٤

الفصل الثانى

الرصافى سياسيا

والآن — وبعد أن استعرضنا حياته السياسية — يحق لنا أن نتسائل :

هل كان معروف الرصافى رجلا « سياسيا » ، أم إنه اتخذ « الشعر السياسى » غرضاً من أغراضه الشعرية ، وفناً من فنونه الأدبية ، كالشعر الوصفى ، والغزلى ، وغيرهما ، كما ذهب إلى ذلك فريق من الأدباء والناقدين[1] .

وقبل أن نتوسع فى دراسة هذه الناحية من حياة معروف الرصافى ، حرى بنا أن نتعرف أولا ، وقبل كل شىء ، على الشروط اللازمة التى تجعل من الانسان ذا صفة سياسية . حتى نستطيع أن نعرف على وجه الدقة ، إذا كان الرصافى رجلا سياسيا ، له دعوة سياسية واضحة ، اتخذ الشعر السياسى للتعبير عنها ، أم إنه شاعر ، اتخذ الشعر السياسى فناً قائماً بذاته .

لقد ذكر الدكتور أحمد سويلم العمرى ، أستاذ العلاقات السياسية الدولية وعلم السياسة بجامعة القاهرة ، أربعة شروط لرجال السياسة ، يجب توافرها فيهم ، حتى تصح تسميتهم برجال السياسة . ونحن الآن نذكر هذه الشروط ، حتى نستطيع أن نوضح ، أو نبين ، مدى توافرها وانطباقها على معروف الرصافى .

١ — الشرط الأول :

يقول الدكتور العمرى (رجل السياسة هو مواطن من نوع معين ، إذ أن مهمته الأساسية الاشتغال بالسياسة ، أو قد يكون الاشتغال بها فى مرتبة مهنته وحرفته ،

(١) سئل الشيخ محمد رضا الشبيبى السياسى والأديب العراقى الكبير عن رأيه فى الرصافى كشاعر وسياسى . فأجاب : ان الرصافى لم يكن من رجال السياسة ، فالأدب شىء ، والسياسة شىء آخر .
(جريدة الاستقلال ، العدد ٤٠٨١ لسنة ١٩٤٨) .

وقد يبلغ رجل السياسة حد الأضطلاع بأخطر المسئوليات فى الدولة ، والاشتراك فى الحكومة والحكم . ومن هذا النوع الوزراء وأعضاء النواب والشيوخ ، ويطلق على هؤلاء الرجال أيضاً : رجال الدولة .

وقد يكون رجل السياسة مجرد رجل عمومى ، يباشر أعمالا ليست من صميم أداة الحكم ، من تشريع ، وتوجيه سياسى ، وتقلد زمام الوزارة ، ولكنها تتصل بالحياة السياسية ، وحياة المواطن العامة . مثال ذلك ، محافظ المدينة ، ومدير الاقليم ، وسكرتير النقابة ، ورئيس تحرير الصحيفة السياسية ذات الطابع الحزبى المعين ، والعمدة ، ووكيل العمدة ، وعضو المجلس البلدى والمحلى[1]) .

إن هذا الشرط الذى يجب أن يتوفر لدى رجل السياسة ، لينطبق كل الانطباق على شاعرنا معروف الرصافى كرجل من رجال السياسة . وهو يتمثل فى صورة الشرط الخاص باشتراكه بعضوية مجلس النواب . ولقد بينا فى الفصل السابق ، أن الرصافى كان نائباً فى مجلس النواب العراق ، وأنه ناب عن الأمة خمس مرات ، فتقلب على كرسى النيابة نحو ثمانية أعوام .

ومن قبل هذا ، كان الرصافى أيضاً نائباً عن العراق ، أو على الأخص ، عن (المنتفق) وهى إحدى ولايات العراق ، فى « مجلس المبعوثان التركى » ، وهو فى مسمياتنا اليوم «مجلس الأمة» ، وذلك فى عهد جمعية الاتحاد والترقى عام ١٩١٢ .

ولقد ذكرنا أيضاً ، أن طلعت بك ، وزير الداخلية فى هذا العهد ، هو الذى قدمه إلى الجمعية المذكورة كمرشح عن العراق فى هذه المنطقة . ولقد استمر الرصافى فى هذا المنصب ، حتى بعد إعلان الحرب العالمية الأولى .

٢ — الشرط الثانى :

ويقول الدكتور العمرى : (ورجل السياسة ليس بالفنى فى أعمال الاقتصاد ، ولكنه يشرف باعتباره موجهاً سياسياً ، ومنفذا لخطة حزبية معينة ، وباعثا لنهضة ، ومصلحاً يعمل دائما على السير فى سبيل التقدم بما يتفق والأوضاع السياسية التى

(١) أنظر كتابه (بحوث فى السياسة) ص ١٣٨ — ١٣٩ ، مكتبة الانجلو المصرية .

يقرها مؤتمر الحزب ، أو تقرها الهيئة السياسية المضطلعة بأعباء المسئوليات ، أو التى ينتمى إليها ، وتحت إمرته زرافات الفنيين الذين يتلقون توجيهه ، ويسيرون وفق توجيهاته ، وهو يوحى إليهم بالاتجاه يميناً أو شمالا . وهؤلاء هم الفنيون المختصون ، أو قل جيش الموظفين الذين يسيرون دولاب الحكومة اليومى ، ولا يطلب إليهم أن يعرفوا دخائل السياسة الحزبية وأوضاع الأغلبية البرلمانية ، وعملهم محصور فى مباشرة مهامهم الفنية من زراعية وصناعية وثقافية وصحية واقتصادية ومالية وتجاريه وعسكرية بما يتفق والصالح العام ، فى حدود السياسة العليا للحزب ، وما تعهد بتنفيذه فى حالة تقلده مهام الحكم فى سبيل إسعاد الشعب[1]) .

إن أهم مافى هذا الشرط لرجل السياسة ، هو صفته الحزبية ، وأنه يجب أن يكون منفذاً لخطة حزبية معينة .

إن هذا الشرط ، وان بدا ، لأول وهلة ، بعيداً نسبياً عن صفة الرصافى السياسية ، لأنه — كما هو معروف — لم يكن مشتركا فى أى حزب سياسى . فانه عند التحقيق ، تثبت الحقيقة التالية :

صحيح أن الرصافى لم يشترك فى أى حزب من الأحزاب السياسية التى كانت قائمة ، سواء فى زمن الأتراك العثمانيين ، أو فى زمن الحكم الوطنى فى العراق . ولكن مع ذلك ، فقد أشيع أكثر من مرة ، أنه كان يزمع تأسيس حزب وطنى فى العراق . حتى أن الأستاذ روقائيل بطي روى لنا ، أنه شاهد الرصافى وبجانبه كراسة ، على صفحاتها كتابة بقلم الرصافى ، استطاع أن يلمح منها مواد متسلسلة لبرنامج حزب سياسى[2] .

ولعل الظروف الراهنة ، هى التى حالت دون تحقيق رغبة الرصافى فى تأسيس حزب وطنى فى العراق . وعلينا أن نلاحظ فى هذا الخبر ، أن الرصافى لم يكن كأى أحد من المنتسبين العاديين لحزب من الأحزاب . بل كان يريد أن يؤسس حزباً ، أو على الأقل ، يشارك فى تأسيسه . وهذا إن دل على شىء ، فانما يدل بطبيعة الحال ،

(١) المصدر السابق ص ١٣٩ .
(٢) جريدة الانقاذ العدد ١٩ لسنة ١٩٤٩ .

على مكانة الرصافى فى الأوساط السياسية فى العراق ، إذ لايستطيع أحد من الناس أن يؤسس حزباً سياسياً ، مالم يكن له ، من المنزلة السياسية الرفيعة ، والسمعة الوطنية النظيفة ، شأن مهم ، فى هذا المجال الفسيح الحساس .

ومهما يكن من أمر ، فإن من رأينا أن الرصافى لم يشترك فى أى حزب من الأحزاب ، ولم يكن يرغب هو فى ذلك ، وإن كان ميالا لنصرة الأحزاب التى كانت تدعو إلى تحرير العراق من ربقة الاستعمار البريطانى ، والأخذ به إلى شاطىء الأمان والسلامة . مثال ذلك ، وقوفه إلى جانب الحزب الوطنى ، وحزب النهضة ، والدفاع عنهما . حتى أنه لما نفى بعض أعضاء الحزبين للذكورين ، وسدت نواديهما ، قال الرصافى يخاطب « الحزب الحر المعتدل » ، وهو الحزب الذى كان يمالىء الاستعمار البريطانى ، والحكومات الخائنة ، وكان قد تشفى بغلق هـذين الحزبين ، بالأبيات التالية :

قولوا لحزب تسمى الحر معتدلا ... هل أنت من بعد نفى القوم معتدل
وهل لما حـل بالحزبين باكية ... عيناك أم أنت مسرور به جذل
فالله ما أنت حر فى مطالبة ... وانما أنت للحكام معتمل
وما سعيت إلى حق لتدركه ... بل أنت للامر فى مسعاك تمتثل
قد احتملت من التاريخ لعنته ... لله درك ماذا أنت محتمل[1]

ولاريب أن لنفسيته المنطلقة ، التى لاتخضع لقوانين وانظمة حياتيه رتيبة ، ناهيك عن الأنظمة الحزبية التى تطبع أنصاره بطابع التقيد بهذه الأنظمة أثراً فى هذا .

وأحسب أن الرصافى كان يحس هو بهذا الاحساس ، ويشعر أن نفسه المنطلقة لايمكن أن تتقيد بنظام . ومن أجل هذا ردد بيته التالى :

وتـكره نفسى كل عبد مذلل ... فقد كرهت حتى الطريق المعبدا[2]

فالرصافى إذن لم يكن يرغب فى التقيد بأى منهج حزبى . ولعله كان يميل إلى الاعتقاد بأن حزبه الأكبر ، هو فى إيمانه بالقومية العربية ، التي تنادى بالوحدة

(١) الديوان ص ٥١٨ .
(٢) الديوان ص ٧٧ .

والاستقلال . وهذا الاعتقاد كفيل وحده ، بأن يجعله يقف مواقف مشرفة لنصرة الأحزاب والهيئات والجمعيات التى كانت تعمل لخدمة البلاد .

ومن هنا ، فإننا نراه بعيدا وقريبا من الأحزاب السياسية . .

بعيداً ، لأنه لم يشترك فى واحدة منها . .

وقريباً ، قريباً جداً ، لأنه كان يؤيد الأحزاب الوطنية . وأنه كان يؤمن بالقومية العربية كحزب أكبر وأعظم ، ويؤمن بمبادئها ، على اعتبار أنها مبادىء أمثل وأسمى .

وهكذا ، وهو والحالة هذه ، حزبى ، يؤمن بالقومية العربية كحزب أعظم ، وهو لذلك سياسى ، حين يشمله هذا الاعتبار الحزبى .

الشرط الثالث :

يقول الدكتور العمرى (وأهم ما ينبغى أن يتحلى به رجل الدولة ، والمشتغل بالسياسة ، هو أن يؤمن برسالته ، وبشرف المهمة الملقاة على عاتقه ، وبعظم المسؤليات التى يضطلع بها ، وأن الشعب يتلهف للاصلاح ، وأن قسطه منه ، مهما كان ضئيلا ، فهو عظيم القيمة فى بناء صرح الوطن . ولا يهم رجل الدولة ، وهومن بناة الوطن ، ما يكابد من مكاره فى سبيل تحقيق المثل العليا ، والغايات التى جاهد مع أصحابه وزملائه لنجاحها ، وكل شىء يهدف فى سبيل المصلحة العامة[1]) .

وهذا الشرط ينطبق أيضاً على الرصافى ...

فالرصافى قد آمن برسالته كل الإيمان . آمن بأن الأمة العربية يجب أن تنال ماتناله كل أمة حرة أبية من العزة والكرامة والمجد والسؤدد . وآمن أن لهذه الأمة حياة .. وأن حياة هذه الأمة فى تحررها واستقلالها ووحدتها . كما آمن الرصافى بأن هذه الأمة التى فرض عليها الاستعمار ألوانا من الفقر والجهل والمرض . . آمن بأن تنال حصتها من الإصلاح داخل الوطن العربى الأكبر .

ولهذا كافح الفقر . ودعا إلى تطبيق « النظام الاشتراكى » لكل عادل لمشاكل المجتمع الاقتصادية والاجتماعية . وكان فى الوقت نفسه يحرض الأغنياء على مساعدة الفقراء والمعوزين .

(١) نفس المصدر ص ١٤٠

وكافح الجهل ، الذى كان يراه عنواناً ضخما لموت الأمم والشعوب ، ودعا إلى نشر العلم ، وتأسيس المدارس ، والاكثار منها .

وهذا ما سنبسط فيه القول فى الفصل الثالث من هذا الباب .

كل ذلك آمن به الرصافى . . ولاقى ما لاقى فى سبيله من ضروب العنت والاضطهاد شيئا كثيرا ، وكوفح فى رزقه ، بل وكانت هناك خطة مدروسة لتجويعه .

ولكنه صبر على ذلك كله ، ولم يجعل اليأس يدخل إلى قلبه .

وكان من أجل ذلك كبيرا وعظيما .

وقد تناولنا هذا القول ، فى فصلنا السابق ، فى مواضع متفرقة ، وذلك حينما تحدثنا عن حياته السياسية .

فلسنا اذن بحاجة ، إلى إعادة القول بصورة مفصلة ، بأن الرصافى آمن بحق هذه الأمة فى الحياة .

ولسنا إذن بحاجة ، إلى إعادة القول بصورة مفصلة أيضاً ، بأن الرصافى كابد من جراء هذا الإيمان كثيراً من المكاره والمصاعب .

ومن أجل هذا الإيمان برسالته ، ومن أجل هذه المكاره التى كابدها فى سبيل هذا الإيمان ، استطعنا أن نؤكد ، أن صورة هذا الشرط متوفرة عند الرصافى كذلك .

الشرط الرابع :

ويقول الدكتور العمرى : (وأهم ما ينبغى أن يضعه رجل الدولة ، أو السياسة ، نصب عينيه ، هو ايمانه إيمان اليقين ، أنه ليس سيد الشعب ، بل هو من خدامه العديدين ، وأنه اختار عمله هذا أداء لواجبه المقدس فى خدمة بلاده ، لا لكى يتجر من ورائه ويرتزق ويجمع المال لأنه يقبض على أعنة السلطان ويمكنه تسخير الجماعات ، ولأنه يشتغل بالسياسة التى تجلبهم إليه ، تعلقا بكلماته المعسولة ، ووعوده البراقة ، فإذا التفواحوله ، استحالت عباراته إلى سم زعاف ، تخدر أعصابهم ، وتبث

فى هممهم الفتور والخمول ، فيستطيع أن ينتزع منهم ما ينتزع ، وأن يسلب منهم ما يرى سلبه ، ويصبح لا هم له إلا الكسب غير المشروع من عرق الشعب ومن دماء أبناء الوطن[1]) .

وأنا لا أستطيع أن أتصور أو أحسب الرصافى من هؤلاء الساسة الذين يتجرون بآرائهم ، ويرتزقون من مبادئهم . لأن الرصافى ، كما بينا فى الفصل الأول ، وهو ثابت لاجدال فيه ، كان يؤمن برسالته كل الإيمان ، وهو من أجلها ضحى بكل غال ورخيص . ولقد قلنا أيضا إن الحاكمين المأجورين ، كانوا يحاربونه فى رزقه ، ويمنعون عنه كل عون مادى ، حتى ينالوا منه ، وحتى يريدونه أن يركع تحت أقدامهم ، ويخضع لارادتهم ومشيئتهم .

ولكنه كان حراً ، أبى النفس ، عالى الكرامة .

ولقد قلنا أيضا — وهو ثابت لا جدال فيه — إن الرصافى لو تملق لذوى السلطان ، وسعى إليهم ، بل لو أقفل فمه على الأقل ، لنال كل ما يتمناه وغير ما يتمناه .

ولكنه آثر الحرمان فى سبيل الحق ، وترفع عن الذل من أجل الحفاظ على عزته وكرامته .

ومن كانت هذه خصائصه وصفاته ، فاننا لانستطيع ، بحال من الأحوال ، أن نتصور أنه كان يتاجر بآرائه ومعتقداته ، أو أنه كان يسعى لمنافعه الشخصية .

وعلى هذه الصورة توافر هذا الشرط أيضا عند شاعرنا الرصافى وانطبق عليه .

وبعد ....

فهذه هى الشروط التى تتوفر فى الرجل السياسى ، وقد رأينا الآن كيف توافرت جميعها عند شاعرنا معروف الرصافى ، وانطبقت عليه كل الانطباق .

فما الذى يمنعنا بعد كل هذا ، من القول إن الرصافى كان سياسياً ؟ اللهم إلا كون الرصافى « شاعرا » هو الذى جعل بعض الأدباء والساسة يترددون من الاعتراف بأن الرصافى من رجال السياسة .

وأنا لا أدرى لهذا الرأى من سبب ! !

---

(١) نفس المصدر ص ١٤٠ .

وإلا ، فهل يجوز أن نفرق بين معتقدات الإنسان السياسية والدينية والاجتماعية ، وبين طبيعة عمله ، أو ميوله الفنية .

ولتوضيح السؤال نضعه على الصورة التالية :

هل من حقنا أن نقول عن السياسى ، الذى أصل مهنته المحاماة ، إنه محام وليس بسياسى ، لأنه اتخذ المحاماة أساساً لعمله ؟ وهل من حقنا أن نقول عن السياسى الذى أصل مهنته الطب ، إنه طبيب ، وليس بسياسى لأنه اتخذ الطب أساساً لعمله ؟

كلا . .

إذن ما دام الجمع بين مهنة المحاماة ، أو الطب ، وبين المعتقدات السياسية خاصة ، ممكنا ، فانه لمن الممكن كذلك ، الجمع بين صفة « الشاعرية » والصفة « السياسية » فى معروف الرصافى ، ويكون من حقنا القول حينئذ إنه سياسى ، وإنه شاعر ، ولا مانع من جمع الصفتين فى هذه الحالة ، وضمهما إلى بعض .

وهو فى كلتا الحالتين « سياسى » ، سواء كان شاعرا أو لم يكن .

فالرصافى إذن سياسى ...

له دعوته السياسية الواضحة ، وله برنامجه البين ، والذى يمكننا أن نلخصه الآن بثلاثة مطالب :

١ — الاستقلال التام والتحرر الكامل للبلاد العربية .

٢ — وحدة الأمة العربية .

٣ — الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى المتماسك الأجزاء .

وفى اعتقادنا ، أنه كان بمقدور الرصافى أن يصبح من أكبر الزعماء السياسيين فى العراق ، وأنه كان باستطاعته أن يرقى إلى أرفع المناصب السياسية فيه ، لولا أمور ثلاثة ، كانت تحول دون تحقيق ذلك .

وهذه الأمور هى :

(أ) الكراهية المتبادلة بينه وبين العائلة المالكة فى العراق ، على تسلسل أسمائهم ومراتبهم ، فكانوا ، من أجل ذلك ، يضعون العراقيل تلو العراقيل فى مستقبل الرصافى

السياسى ، كأن يتولى وزارة من الوزارات فى الحكومات التى كانت تشكل فى ذلك الوقت .

(ب) العداوة السافرة بينه وبين الانكليز ، وأعوانهم من المأجورين والطامعين . إذ كانوا بدورهم أيضا يحولون دون أن يتولى معروف منصباً سياسياً رفيعاً ، حتى لا يستطيع بواسطة هذا المنصب — حسب ظنهم — أن يعرقل مشاريعهم وخططهم الاستعمارية فى العراق ، وما دروا أن قصيدة واحدة من قصائده الوطنية ، كانت تؤجج نار الحقد والسخط فى صدور الناس ، وفى قلوبهم ، ضد سياستهم الباغية .

(ج) (البوهيمية) التى كان يعيشها الرصافى ويرتضيها لنفسه رضاء تاما ، كانت تحول هى أيضا إلى حد ما ، دون حصوله على كرسى الوزارة . فلقد كان العراقيون ولا يزالون يحفظون قصصا عن تلك الحياة التى عاشها معروف ، مما جعل الحاقدين عليه ، والكارهين له ، من رجال السياسة وغيرهم ، ينشرونها بين الناس على أنها عيب أصاب الرصافى ، ولا يستحق الوزارة من كانت هذه حياته التى يرضى أن يحياها .

والحق ، إنه لو كان هناك نظام ديمقراطى صحيح ، يؤهل لذوى الكفاءات المخلصة أن تهيمن هى على توجيه الحياة السياسية فى البلاد ، لما تقدم غير معروف الرصافى ، وغير نفر من أضرابه ، المخلصين لأمتهم ، العاملين فى سبيل رقيها واسعادها .

ذلك أن فى ظل هذا النظام الديمقراطى الصحيح ، لا يستطيع السياسى ، أى سياسى ، أن يحتل مكانا بارزاً فى الحكم ؛ ما لم يحظ بتأييد الشعب ، أو يحظ بتأييد قسم منه على الأقل .

وأننا يجب أن ننظر إلى هؤلاء القادة أو الزعماء على ضوء الجماعات التى تعمل على خدمة مصالحها ، وعلى ضوء النظم التى سمحت لهم بتولى مناصب السلطة ، وبعد ذلك نتساءل : كم من الساسة فى العراق استطاع أن يحظى بتأييد هذا الشعب ، وينال ثقته وأمانته ؟!

ولكن الأمر فى العراق لم يكن يجرى على هذا النحو . وإنما كان هناك استعمار ، همه الأول والأخير ، أن يقضى على كل رجل مخلص لوطنه ، وأن يسكت كل صوت حر

ينادى بالإصلاح ، ويطالب بتحقيق الرفاهية لشعب سلب قوته ، ونهبت خيراته ، وعاش فى فقر مدقع ، وجهل مطبق .

هذا ، وقد كان الرصافى ، ولا شك ، يطمح إلى أن يصير أحد المسؤولين القادرين على تحرير العراق من ربقة الاستعمار البريطانى ، والعاملين على تحقيق الرفاهية فيه . بيد أنه لم يتمكن من ذلك ، لأنه لم يتسلم زمام الأمور ، ولم يصبح هو صاحب الأمر والنهى فيه . ولكنه مع ذلك ، كان يحس احساساً واضحا بأنه قد أدى رسالته القومية على أحسن وجه ، وذلك حينما اعتقد أنه بث فى الطليعة العربية روح المغامرة فى سبيل استقلالهم وحريتهم ووحدتهم ، وحينما أعتقد أنه دافع عن إرادتهم المسلوبة ، وحقوقهم المهيضة الجناح ، ألا وهو القائل :

وإنى وإن لم أوفق فى تحريره بنيت للمجد فيه خير بنيان[1]

وهنا ، وقبل أن ننتهى من هذا الموضوع ، نرى لزاما علينا أن نشير ، إلى أن مما ينقصنا فى هذه الدراسة ، عن معروف الرصافى ، أننا لم نستطع أن نتعرف بدقة ووضوح ماذا كان يقرأ من الكتب السياسية . وكم كان خليقاً بأصحاب الرصافى ، والمتصلين به ، والمقربين إليه ، أن يلتفتوا إلى ما كان يقرأ فى غير كتب الأدب والتاريخ والفلسفة والمنطق .

والحق أن صديقاً واحداً من أصدقائه ، هو الأستاذ سعيد البدرى ، روى لنا عرضاً ، رواية قصيرة موجزة ، تدفعنا إلى الاعتقاد بأن الرصافى كان ميالا إلى قراءة الكتب السياسية التى تتعلق بمواضيع استعباد الشعوب ، أو انعتاقها وتحررها من نير الاستعمار ، وتشوفها الدائم إلى الاستقلال .

وسبب ذلك فيما نرى ، كراهيته الشديدة للاستعمار الذى يسيطر على كافة الدول العربية . فهو حينما يقرأ مثل هذه الكتب السياسية ، فلكى يقف على أساليب الدول الاستعمارية وألاعيبها فى السيطرة على الدول المستعمرة ، ودوام هذه السيطرة فيها . ولكى يقف على تلك التضحيات الجسام التى بذلتها بعض الدول التى نالت استقلالها ،

(١) الديوان ص ١٧٥ .

واسترجعت حريتها وكرامتها . وهو حريص ، حينما يقرأ هذا كله ، أن يبين للناس ، ويحيطهم علما بهذه الأساليب والألاعيب ، ثم هو بعد ذلك حريص أيضاً على أن يرسم لهم طرق خلاصهم من هذا الاستعمار البغيض ، ونجاتهم منه .

أما هذه الرواية ، فهى قوله متحدثاً عن الرصافى :

(وكان معجباً بكتاب « النفط مستعبد الشعوب » لمؤلفه يوسف يزبك[1] وقد كتب بخطه على الصفحة الأولى منه كتقريظ لهذا الكتاب النفيس هذه العبارة) :

« يجب وجوبا عاما على كل شرقى ، وخاصا كل عربى ، وأخص على كل عراقى ، أن يتقرب إلى الله بمطالعته كل يوم » . . وقد علق عليه بملاحظات دقيقة ، وحواشى رقيقة ، لو جمعت وحدها لتألف منها كتاب فى الأدب والسياسية والاجتماع[2]) .

وما سبب انجذاب الرصافى إلى هذا الكتاب ، واستحسانه له على هذه الصورة ، إلا اعتقاده بأنه من الكتب المهمة التى تكشف أثر النفط فى استعباد الشعوب ، خاصة فى الحرب العالمية الأولى ، والتى سماها المؤلف (حرب النفط) جاعلا إياه السبب الرئيسى لهذه الحرب .

وليس يخالجنا شك ، فى أنه فى أعجابه بهذا الكتاب ، إنما يشارك المؤلف فى أعتقاده بأن الانتداب على فلسطين وشرق الأردن وسورية ولبنان والعراق ، هو نتيجة لاكتشاف هذا النفط فى هذا القطر العربى ، أى العراق ، وذلك لتأمين مجرى هذا السائل الأسود إلى شواطىء بريطانيا .

ولا جرم أن هذا الاعجاب بهذا الكتاب ، والاهتمام به ، يساعدنا على تفسير ما كنا قد ذهبنا إليه ، وهو أن الرصافى كان ميالا إلى قراءة الكتب السياسية التى تتعلق بمواضيع استعباد الشعوب ، أو تحررها وانطلاقها ، للسبب الذى ذكرناه .

هذا وسوف ننقل بعض نواحى تفكير الرصافى السياسية فى ملاحق هذه الرسالة .

(١) واسم مؤلفه بالكامل يوسف ابراهيم يزبك منشىء جريدة (السيار) اللبنانية ويقع حجم هذا الكتاب فى (٢٩٠ صفحة) ، وهو مطبوع فى مطبعة الفن الحديث ببيروت سنة ١٩٣٤ .

(٢) جريدة البلاد — العدد ٥٢٧١ لسنة ١٩٤٥ .

الفصل الثالث

الاصلاح هدفا سياسيا

من المعلوم ، أن لكل سياسى مخلص فى البلاد العربية ، ثلاثة مطالب رئيسية ، يتبناها ، ويدعو لها بصدق وإيمان ، ويعمل جاهداً على تحقيقها ، وبلوغ غاياتها .

وهذه المطالب الثلاثة هى :

الأول : الاستقلال التام وصيانة سيادة الأمة .

الثانى : تحقيق وحدة البلاد العربية .

الثالث : إصلاح المجتمع .

ونحن فى هذا الفصل ، سنتحدث بصورة موجزة عن المطلب الثالث من هذه المطالب التى آمن بها الرصافى ، ودعا إلى تحقيقها ، وقد أشرنا إليها من قبل ، على اعتبار أنه رجل سياسى ، وداعية من أكبر دعاة الإصلاح الاجتماعى فى العراق بخاصة ، وفى البلاد العربية بعامة .

أما فيما يتعلق بمطلبه الأول ، وهو الاستقلال التام ، فاننا سنتحدث عنه بالتفصيل ، حينما نعرض لموقفه من السلطنة العثمانية ، عند ما كان العراق أيالة تابعة لها .. وكذلك موقفه من الانكليز الذين استعمروا العراق أثناء الحرب العالمية الأولى .

أما المطلب الثانى ، وهو تحقيق وحدة البلاد العربية ، فاننا سنعرض له أيضا عند ما نتناول بالبحث ، موضوع القومية العربية فى أدبه .

وفى رأينا ، أنه لا يمكن الفصل بين هذه المشاكل الاجتماعية ، والمشاكل الاقتصادية والسياسية . لأن المشاكل الإجتماعية التى نراها ، ونحسها ، هى وليدة النظام الاقتصادى والسياسى الحاضر .

وفى عصرنا هذا ، حينما أخذت الحجب تتكشف عن مبادىء سياسية مثلى ،

وثورات صناعية طاغية ، وبرزت للوجود هجمات فكرية جامحة ، وجد المجتمع العربى لا يزال فى هذه الفوضى ، وهذا الجهل والعمى .

والمشاكل الإجتماعية التى تعيش فى مجتمعنا الحاضر ، أكثر من أن تحصى . ولابد للدارس الإجتماعى أن يدرس جميع هذه المشاكل متضامنة ، دون الفصل بين واحدة وأخرى ، كما لا يمكن الفصل بينها وبين المشاكل الاقتصادية والسياسية ، كما ذكرنا آنفا .

وفى دراستنا المختصرة هذه ، سنتبع هذه الظواهر الاجتماعية البارزة فى أدب الرصافى ، والتى عنى بها أكثر من غيرها ، وهى مشكلة التعليم ، ومشكلة المرأة ، ومشكلة الفقر ، ثم بعض المسائل الاخلاقية العامة الأخرى .

والرصافى الذى دافع عن استقلال العراق والبلاد العربية الأخرى ، وطالب بتحرره من ربقة الاستعمار ، قد وهب حساً دقيقاً ، وعاطفة جياشة ، يؤلمها أن ترى الناس يعيشون فى جهل ومرض وفقر ، ثم لا تجد هذه الطائفة المتألمة راحما ومواسيا .

وشعر الرصافى هو أصفى وأنقى مرآة تنعكس عليها حياة أمة إنعكاسا صادقا أمينا ، كما إنه خير سجل سياسى للحقبة التاريخية التى اجتازها العراق ، منذ أواخر العهد العثمانى ، حتى يوم وفاة الشاعر .

العلم :

وأولى هذه الأمور الاجتماعية التى طرقها الرصافى ، وأولاها اهتماما خاصا ، هو « العلم » . إذ هو يشد جميع الظواهر الاجتماعية إلى العلم . فالعلم هو الحياة ، ولا حياة لمن لا علم له .. والعلم هو ذلك النور الذى يستضاء به ، والجهل هو ذلك الظلام الذى يعمى القلوب والأبصار .

وهو يحسب « الجاهل » فى هذه الحياة ، ميتا من قبل الممات ، وهو يحسب « العالم » حيا لا يموت .

أنت يا جاهل من قبل الممات ميت يمـــرح ما بين البيوت

أو ما تعلم فى هذى الحيـــاة أن رب العلم حى لا يموت[1]

ويطلب الرصافى إلى المتعلم أن يكون حراً فى آرائه وأفكاره ، وأن ينأى عن التقليد فى اتجاهاته العلمية والعقائدية . فالعلم كحديقة واسعة ، بها تنبت جميع أصناف الورود والأزهار . فعلى من يقطف إحدى هذه الورود ، ويخصها لنفسه ، أن يختار منها ما يحلو له ، ويجذبه إليها . وهكذا العلم ، فعلى الرجل العالم المفكر ، أن يختار من المبادىء والآراء ما يناسب طبعه وأحاسيسه ، وتناسب معتقداته الدينية والإجتماعية وباقى القيم الأخرى . وألا يكون فى ذلك مقلداً ، يحاكى الآخرين فى أذواقهم وآرائهم وإتجاهاتهم . يقول :

أحب الفتى أن يستقل بنفسه فيصبح فى أفكاره مطلقاً حرا
وأكره منه أن يكون مقـــلدا فيحشر فى الدنيا أسيرا مع الأسرى[2]

بل يذهب الرصافى إلى أبعد من هذا ، حين يقرر أن الوطن العربى لن يستقل سياسياً اذا لم يستقل فكريا :

فأوطانكم لن تستقل سياســة إذا أنتم لم تستقلوا بها فكرا
إذا السيف لم يعضده رأى محرر فلا تأملن فى حده ضربة بكرا[3]

كما يدعو الرصافى إلى « التخصص » فى العلم ، وهى دعوة علمية صائبة رشيدة . إذ حرى بالمتعلم أن يتخصص فى نوع واحد من أنواع المعرفة . وهو يطلب إلى المتعلم أن يترك نفسه على سجيتها فى أن تختار ما تشاء وترغب من هذه العلوم والمعارف ، وأن لا يقسرها على ما تأباه العقول ، وتنفر منه الطبائع ، لأن الإنسان — أى انسان — لا يستطيع أن يهضم كل هذه المعارف جملة وتفصيلا ، حتى لو أوتى من الذكاء قدرا كبيرا .

يقول فى قصيدته (إلى المتعلم)[4] :

إخص فى العلم إن أردت كمالا ووصـــولا إلى الفخـار الأتم

(١) الديوان ص ٦٦ .
(٢) الديوان ص ٦٦ .
(٣) الديوان ص ٥١ .
(٤) الديوان ١٥٧ :

وإذا رمت فى التعلم حـذقا فاترك النفس والذى هى ترمى
واجتنب قسرها على ما أبتـه إن قسر الطبـاع أكبر ظـلم
إنمـا الميـل فى الغرائز تيـا ر ومن ذا يرد تيـار يم

ثم لا ينسى الرصافى بعد هذا كله ، بل قبل هذا كله ، أن يبين بوضوح ، علاقة العلم بالأخلاق ، وكيف أنهما ملازمان أحدهما للاخر ، وانه لا غنى للعالم من التحلى بالأخلاق الفاضلة .

فى قصيدته (إلى أبناء المدارس)[1] يشيد الرصافى بالأخلاق على اعتبار أنها عماد رفيع للعلم ، إذ لا علم لعالم ما لم يعززه خلق نضير ، يقول :

ولـكن ليس منتفعا بعلم فتى لم يحرز الخلق النضيرا
فإن عماد بيت المجد خلق حكى فى أنف ناشقه العبيرا
فلا تستغفعوا التعليم إلا إذا هذبتم الطبع الشريرا
إذا ما العلم لابس حسن خلق فرج لأهله خـــيراً كثيرا
وما إن فاز اغزرنا علوما ولـكن فاز أسلمنا ضميرا

ومما التفت إليه الرصافى ، وله علاقته المباشرة بالعلم ، هى المدارس . وهى تلك الرياض النظرة التى تغرس فيها الأفكار الحرة النيرة ، ثم تنمو وتكبر حتى تينع وتأتى أكلها بعد حين . ولكن من الواجب أن يكون هناك من يعتنى بهذا الغرس ، وأعنى بهم النشء الجديد ، الذين سيصبحون فى المستقبل رجال الغد ، والذين من حق الوطن وواجبه أن يعتز ويفتخر بهم ، وبعطورهم الزكية ، وهى تلك الأفكار التى يدعون إليها ، والمبادىء السامية التى يعتنقونها ويذودون عنها :

إنمـا هذه المـدارس روض ينبت المجـد والعلى والفخارا
تتغذى بها النفوس غذاء هو ينمى العقول والافكارا
جل فعلاً أكسيرها المتعالى كيف يجلو القلوب والابصارا
يدخل الناشئون فيها من النا س نحاسا ويخرجون نضارا

(١) الديوان ص ٥٢ .

نضرت هذه المدارس روضا من بنى القوم منبتا أزهارا[1]

وهكذا دعا الرصافى إلى بناء المدارس ، والاكثار منها ، لأنها رمز تقدم الأمة ، وموطن حريتها واستقلالها . وكان لا يفتأ يشيد بعظمة كل مدرسة تؤسس فى العراق . وهو السباق دائما إلى تخليدها فى قصيدة من قصائده . كما كان يدعو الأغنياء إلى تأسيس المدارس الأهلية ، أو يحثهم على التبرع لها . وكان يردد :

ابنوا المدارس واستقصوا بها الأملا حتى نطاول فى بنيانها زحلا
جودوا عليها بما درت مكاسبكم وقابلوا باحتقار كل من بخلا
إن كان للجهل فى أحوالنا علل فالعلم كالطب يشفى تلكم العللا[2]

المرأة :

ولقد التفت الرصافى إلى « المرأة » فيما التفت إليه ، لإصلاح كيان هذا المجتمع العربى الذى يروم نهضته ، ويعزز أمره رقيه . فالمرأة العربية على العموم ، والمرأة العراقية على الخصوص ، فى حالة تأخر محسوس . ومن أجل هذا ، اهتم الرصافى — كرجل سياسى ، يريد بناء مجتمع متكامل فى داخل العراق وخارجه من البلدان العربية الأخرى — بالمرأة العربية .

وللرصافى ، فى الدفاع فى حقوق المرأة ، شعر كثير ، جمعه فى باب خاص سماه (النسائيات) . وأول دعوة مهمة دعا إليها الرصافى للدفاع عن المرأة ، هى سفورها وتحريرها من الحجاب ، وتحبيذه لها لمشاركة الرجل جنبا إلى جنب ، فى جمع ميادين الأعمال .

فهو حين يخاطب أهل الشرق ، ويعنى بهم المسلمين عموما ، فى قصيدته (المرأة فى الشرق)[3] يعنفهم الرصافى أشد التعنيف ، لأنهم غمطوا حقوق النساء والزموهن عقور دورهن ، فهن حبيسات جدران البيوت ، لا يفهمن من أمور الدنيا التى من

(١) الديوان ص ٨٦ .
(٢) الديوان ص ٨٧ .
(٣) الديوان ص ٣٤٤ .

حولهن شيئا ، ولا يحق لهن ذلك الفهم ، فهن كالمتاع عند الرجل ، وإن كن قد صن عن البيع والشراء ، يقول :

لقد غمطوا حق النساء فشددوا عليهن فى حبس وطول ثواء
وما الزموهن الحجاب وانكروا عليهن إلا خرجة بغطاء
اضاقوا عليهن الفضاء كأنهم يغارون من نور به وهواء
قد انتبذوا عنهن فى العيش جانبا فما هن فى أمر من الخلطاء
وقد زعموا أن لسن يصلحن فى الدنا لغير قرار فى البيوت وباء
فما هن إلا متعة من متاعهم وإن صن عن بيع لهم وشراء

وما حالة المرأة هذه ، وما موقف الرجل منها هذا الموقف ، إلا لأنهم :

لقد حكموا العادات حتى غدت لهم بمنزلة الاقيـاد للأسراء

ويرى الرصافى ، كرجل سياسى ، أن جور الساسة ، وذل الاستعباد والاستبداد ، لما حصلا ، لولا أننا قد أصبحنا عبيدا نرسف فى قيود الذل والاستكانة . وما سبب ذلك ، إلا لأننا قد نشأنا فى أحضان أمهات جاهلات لا يفهمن شيئا من أصول التربية وقواعدها ما يمكنهن بواسطتها من تنشئة جيل صالح :

ألم ترهم امسوا عبيداً لأنهم على الذل شبوا فى حجور إماء
وهان عليهم حين هانت نساؤهم تحمل جور الساسة الغرباء

والناس يعدون « حجاب المرأة » من الشرع الحنيف . وهذا ما يؤلم الرصافى ويؤذيه ، لأن الأمر ليس كذلك :

وأكبر ما اشكو من القوم أنهم يعدون تشديد الحجاب من الشرع[1]

وليس يرى الرصافى أن المرأة إنما يحميها حجاب ، ويزيد فى قيمتها ، ويرفع من كيانها ، لبس ملاءة ، لأن الشرف لا يصان بمثل هذه الأمور التافهة . فكم من أمراة سافرة ، لها شرفها الحصين ، وسمعتها الطاهرة النقية ؟ ! وما مرد ذلك إلا لأنها ذات تصرف حميد ، وأخلاق مجيدة . وكم من أمراة محجبة سيئة السمعة ، مشينة الأخلاق ؟ !

(١) الديوان ص ٣٤٦ .

قل للألى ضربوا الحجاب على النسا أفتعلمون بما جرى تحت العبا
شرف المليحة أن تكون أديبة وحجابها فى الناس أن تتهذبا
والوجه إن كان الحياء نقابه أغنى فتاة الحى أن تتنقبا[1]

وفى قصيدة (إلى الحجابيين)[2] ترتسم على وجه الرصافى دلائل البشر ، وقد رأى المرأة المسلمة وقد اسفرت ، ومزقت من دونها الحجاب . . ويخاطب « الحجابيين » ، بمناسبة كتاب « السفور والحجاب » للانسة نظيرة زين الدين ، ويخاطبهم شامتا وقد اسفرت نظيرة هذه ، اسفرت سفورا إن دل على شىء ، فإنما يدل على الاعتزاز بالكرامة ، والحرص على الشرف :

قل للحجابيين كيف ترونكم من بعد سفر للسفور مبين
كشفت به ما كان من حجب العمى عنكم نظيرة بنت زين الدين
سفر أقام على السفور ادلة تركت ذبابكم بغير طنين
يالاجئين إلى العناد خصومة ما كان حصن عنادكم بحصين
هل من نظير بينكم لنظيرة أو من فقيه مثلها وفطين
هدمت نظيرة ما بنت عاداتكم من كل سجن للنساء مهين

ويستمر فى كلامه ، موجها الخطاب لهؤلاء الحجابيين ، لكى يثنيهم عن هذه البدعة الضالة ، التى ماانزل الله بها من سلطان . فنحن السفوريين — على حد تعبيره — أعلم بما قضت شرعة الإسلام ، وبما جاء به نبى الانسانية ، بما لا يخالف شرعة التمدين :

افتمكثون على العناد وقد بدا من بعد ليل الشك صبح يقين
نحن السفوريين أعلم بالذى شرع النبى محمد من دين
أيكون من شرع النبى محمد شيئاً يخالف شرعة التمدين

ومن الأمور التى تتعلق بالمرأة ، والتى عالجها الرصافى معالجة صريحة ، هى مسألة اختيار المرأة لزوجها . إذ أنه أعطاها الحق ، كل الحق ، فى أن تختار الزوج الذى كتب عليها أن تعيش معه الحياة كلها .

(١) الديوان ص ٣٤٨ .
(٢) الديوان ص٣٥٦ .

وللشاعر ، فى حرية المرأة لاختيار زوجها ، قصيدة سماها (حرية الزواج عندنا)[1] وفيها ينحى باللائمة على الذين يكرهون فتياتهم على الزواج من رجال هم أكبر منهن سنا ، وذلك طمعاً بوفرة مالهم ، أو جاههم . يقول :

ظلموك أيتها الفتاة بجهلهم إذ أكرهوك على الزواج باشيبا
طمعوا بوفر المال منه فأخجلوا بفضول هاتيك المطامع أشعبا

وهو بعد ذلك ، يدعوها إلى الرفض ، لأنها حرة ، وعليها أن تتحكم فى مستقبلها ، وتتصرف حسبما تقتضيه عاطفتها وشعورها . وليس العار فى أن ترفض ، وإنما العار ، كل العار ، فى أن تخضع لمشيئة أهلها ، ورغبتهم فى أن تتزوج رجلا كهلا :

فإذا رفضت فما عليك برفضه عار وإن هاج الولى واغضبا
إن الكريمة فى الزواج لحرة والحر يأبى أن يعيش مذبذبا
قلب الفتاة أجل من أن يشترى بالمال لكن بالمحبة يجتبى
أتباع أفئدة النساء كأنها بعض المتاع وهن فى عهد الصبا
هذا لعمر الله يأبى مثله من عاش ذا شرف وكان مهذبا

ويذكر بيت الزواج ، وكيف يجب أن يكون ، إذ يرى أن الحب هو الأساس الذى يجب أن يشاد عليه هذا البيت ، فإذا ما تحقق هذا الحب ، وتصافت النفوس ، وطهرت ، فليس المال بالأمر المهم :

بيت الزواج إذا بنوه مجدداً بالمال لا بالحب عاد مخربا

ويلتفت إلى الآباء الذين يساومون فى مهور بناتهم ، ويصرخ فيهم منددا بفعلهم البغيض هذا ، ويذكرهم أنه لا داعى للاستمساك بهذه القيود الثقيلة التى يسمونها « بالمهر » ويساومون الرجل على أساسها :

يامن يساوم فى المهور مغاليا ويميل فى أمر الزواج إلى الحبا
أقصر فكم من حرة قد أنزلت فى منزل الرجل الغنى بها نبا
إن الزواج محبة فإذا جرى بسوى المحبة كان شيئاً متعبا

(١) الديوان ص ٣٤٧ .

لا مهر للحسناء إلا حبها فبحبها كان القران محببا
خير النساء أقلها لخطيبها مهراً وأكثرها إليه تحببا

والرصافى الذى دافع هذا الدفاع الحار عن المرأة ، وطالب بحريتها ، هاله أمر يأخذ من كرامتها كل مأخذ ، وينزع منها ثوب الحشمة والوقار ، ألا وهو «الطلاق» . ولهذا حارب الطلاق ، ووجه نصائحه إلى الرجال بهذا الشأن ، وطلب إليهم أن يتريثوا قبل أن يقدموا على هذا الخطب الفظيع ، حتى لا يصيبهم الندم بعد ذلك ، ولات حين مندم .

البؤس والفقر :

« كانت مشاهد البؤس من أشد الدواعى عندى إلى نظم الشعر »[1] .

هذا هو قول الرصافى ، ونحن نؤمن به ونقول : لم يستطع شاعر معاصر أن يصور مشاهد البؤس والشقاء والفقر مثلما صورها لنا الرصافى ، ولم يبلغ أحد منهم شأوه فى هذا الميدان ، وذلك لما أوتى من عاطفة جياشة ، وإحساس عميق صادق ، تجاه ما يعانيه شعب العراق ، وشعوب البلاد العربية الأخرى ، من مآسى وآلام .

وديوان الرصافى يزخر بكثير من القصائد التى تصور هذه البيئة الفقيرة ، وأسباب هذا الفقر ، كما تصور جشع الأغنياء واستغلالهم . ومن ثم ، يزخر ديوانه بدعواته المتكررة فى سبيل البر والإحسان .

وكم كان الرصافى ، يفزع أشد الفزع ، حينما يجد الأغنياء وهم يستغلون الفقراء الضعفاء فى سبيل إثرائهم ، وزيادة مدخولاتهم . وهم ، فوق ذلك كله ، ينظرون إلى الفقير نظرة ملؤها التشفى والاحتقار والاستصغار . فكأنما وجدت هذه الطبقة الفقيرة ، الكبيرة العدد ، لتخدم هذه الطبقة الغنية ، القليلة العدد .

يقول الرصافى فى قصيدته (معترك الحياء)[2] .

---

(١) الدكتور بدوى طبانة — معروف الرصافى — دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية ص ١٧١ (الطبعة الثانية) مطبعة الرسالة ١٩٥٧ .
(٢) الديوان ص ٣٦ .

أرى كل ذى فقر لدى كل ذى غنى اجيراً له مستخدما فى عقاره
ولم يعطه إلا اليسير وإنما على كده قامت صروح يساره
ويلبس من تذليله العز صافيا وينظره شزرا بعين إحتقاره

وهكذا يتمايز الناس ، طبقة فقيرة لا تملك من أسباب الحياة شيئاً ، وأخرى غنية تعيش فى جنات النعيم أطيب عيش وأرغده ، تسكن القصور المنيعة ، وتتخذ لها الزينة فى مأكلها وملبسها . أما الفقراء ، فهم الذين يكدحون طوال النهار كالعبيد ، من أجل إسعاد هذه الطبقة الغنية المترفة .

وليس بدعا بعد هذا أن يطالب الرصافى ، وحرى به أن يطالب ، بتحقيق مبدأ « الإشتراكية » ، الإشتراكية العربية ، بين الناس ، حتى تزول بينهم هذه الفوارق الجسيمة فى أموالهم :

إنما الحق فى مذهب الإشتراكية فيما يختص فى الأموال
مذهب قد نحا إليه أبوذر قديما فى غابر الاجيال [1]

وفى قصيدته (إلى العمال)[2] ينساق الرصافى وراء هذا المعنى إنسياقا كاملا ، فهو يرى أن كل أموال الأغنياء ، إنما هى حاصلة من تعب العمال وجهدهم . ولكن حياتنا المضطربة اليوم ، قد حوت الظلم والضلالات ، حيث يسعى الفقير فيها سعى أجير ، ويثرى الغنى وتنتفخ جيوبه ، على حساب هؤلاء الفقراء وسعيهم :

كل ما فى البلاد من أموال ليس إلا نتيجة الأعمال

وبعد ذلك ، يعيب الرصافى على الأغنياء عدم مساعدتهم الفقراء المعوزين . فهم يبذلون أموالهم — وهذا تصوره — فى الملاهى والسفاهات ، ولا ينفقونها على هؤلاء الفقراء البائسين . إن الأغنياء ينعمون بأموالهم ، ولكنهم لا يعلمون ، ولا يريدون أن يعلموا ، كيف يعيش هؤلاء الفقراء ، وكيف يأكلون ويشربون .

---

(١) الديوان ص ١٨٠ .
(٢) الديوان ص ١٨٠ .

وبعد . .

فديوان الرصافى طافح بالقصائد التى تصور مشاهد البؤس والشقاء ، ونذكر منها على سبيل المثال ، لا الحصر ، (اليتيم فى العيد[١] ، والفقر والسقام[٢]) . وفى هذه القصائد جميعها ، يبلغ الرصافى الذروة فى وصف الأحاسيس البشرية ، وتلمس الشاعر الإنسانية النبيلة . وكان ينساق ، فى هذه النزعة الإنسانية ، وراء الفقر والفقراء ، ومشاهد البؤس والشقاء ، كيما يستطيع أن يؤثر فى الناس (لعلهم يبصرون ما تحت أعينهم من آلام مشجية ، وأوجاع مضنية)[٣] .

الإخلاق :

ومن الأمور التى تتعلق بالحياة الاجتماعية ، والتى نالت من اهتمام الرصافى وعنايته نصيباً وافراً ، هى المشاكل الإخلاقية ، مثل الكذب والنفاق والحسد وغير ذلك .

والرصافى لم يعالج مثل هذه الأمور ، ألا لكونها أموراً تتصل اتصالا وثيقاً بنهوض المجتمع ، أو خذلانه وانحطاطه ، وهو المجتمع الذى طلب له الاستقلال ، وآثر له الحرية ، ودافع عن كيانه ووجوده ووحدته . فعلى قدر اضمحلال هذه الآفات الاجتماعية المشينة أو زوالها ، يتوقف سمو المجتمع ، ويتوقف تطلعه الدائم إلى الإمام ... تماماً على عكس مالو عاشت هذه الآفات فى طيات المجتمع وأركانه . فالمجتمع كالتربة ، فإذا كانت صالحة ، نقية ، خالية من الشوائب ، أنبتت نباتاً حسنا ، وبالعكس .

ومن أجل هذا . . .

كان الرصافى يكره الكذب أشد ما تكون الكراهية ، ويراه نقيصة فى المرء ما بعدها نقيصة . فهو يعيب على الإنسان أن يكذب ، ويعيب عليه كذلك أن ينافق . . إنه يكره ويستهجن أن يكون المرء كالثعلب ، يظهر الود ، وهو فى الحقيقة غدار لئيم . يقول :

(١) الديوان ص ٥٨ . (٢) الديوان ص ٩٤ .
(٣) دراسات فى الشعر العربى المعاصر للدكتور شوقى ضيف ص ٤٣ . الطبعة الثانية دار المعارف بمصر ١٩٥٩ .

ورب أفيك جاء يمذق وده ويظهر اخلاصاً وما هو مخلص
ولكنه فى وده الثعلب الذى يروغ أو الكلب الذى يتبصبص[١]

والرصافى يحذر الناس من هؤلاء المنافقين والكذابين ، ويدعوهم إلى أن لا يغتروا بمظهرهم . فربما يخدعك بياض الوجه من بعيد ، ولكن حين يدنو منك صاحبه ، إذا هو أبرص دميم . يقول :

وما غرنى ذو ظاهر متودد إذا كان فيه باطن متلصص
ويارب وجه لم يرقنى بياضه فلما دنا منى إذا هو أبرص[٢]

ومثل هذا المعنى ردده الرصافى فى قصيدته (مثنيات شعرية) إذ يقول :

واشنع الكذب عندى ما يمازجه شىء من الصدق تمويها على الفكر
فإن إبطال هذا فى النهى عسر وليس إبطال محض الكذب بالعسر[٣]

ويكره الرصافى كذلك المنافقين والمرائين ، ويعدهم داء وبالاً ينخر فى جسم الأمة العربية . ولهذا يدعو الناس إلى عدم النفاق والرياء ، لكى تظهر الأمور على حقيقتها ، وينصلح بذلك حال الأمة . وقد قال فى هذا المعنى :

إذا كان فى عرى الجسوم قباحة فأحسن شىء فى الحقيقة أن تعرى
فيمسها من مارست عينه عمى ويبصرها من كابدت أذنه وقرا[٤]

ويحذرنا الرصافى من المرائين ، ويدعونا إلى أن لا نغتر بمزاح العابثين ، وابتسامات المبتسمين . لأنها قد تحوى فى طياتها سموما تلدغ المرء فى أول فرصة تسنح لها :

الحب والبغض لا تأمن خداعهما فكم هما أخذا قوماً على غرر
فالبغض يبدى فى الصفاء كما أن المحبة تبدى الصفو فى الكدر[٥]

وفى قصيدته (مناجاة وشكوى)[٦] التى يخاطب فيها السيد مهدى الجواهرى[٧] ،

(١) الديوان ص ٢١٩ . (٢) الديوان ص ٢١٩ .
(٣) الديوان ص ١٦٦ . (٤) الديوان ص ٥١ .
(٥) الديوان ص ١٦٦ . (٦) الديوان ص ١٧٧ .
(٧) مهدى الجواهرى أشعر شعراء العراق فى الوقت الحاضر ، إلا أنه ليس أطهرهم نفسا ، وأسلمهم تفكيراً ... إذ كان ولايزال مخادعا منافقا كذابا ، فهو يدعى الوطنية ، ولكنه كان =

يردد الرصافى هذا المعنى ، ويحذره من المنافقين الذين يبتسمون فى وجهه ، ولـكنهم يوسعونه ذما وسبا حينما يغيب عنهم . يقول :

إذا جئتهم أبدوا إليك بشاشة وحسن ابتسام فى ثغور مواكر
وإن غبت عنهم أوسعوك مذمة كأن لم يبيتوا منك قيلا لزائر

ولـكنه يعود فيطلب إليه أن يدعهم فى غيهم يعمهون ، وأن لا يلتفت إلى مهاتراتهم ونفاقهم ، وكأنه رجاء لـكل إنسان لبيب :

فدعهم وما هم فيه من جاهلية يدجون منها فى الدياجى الـكوافر
فسوف تراهم من تمادى ضلالهم يعودون فى العقبى بصفقة خاسر

والحسد ، الذى هو لصيق بالـكذب والنفاق ، يراه الرصافى أيضاً عيبا ذميما فى الإنسان ، وبالتالى فى المجتمع . لهذا ولاه اهتمامه حينما اهتم بالمجتمع ، وأراد له الخير والصلاح .

فهو إذن يكره الحسد ، ويكره أيضاً أن يراقب الإنسان أخاه الإنسان ، فيحصى عليه حركاته وسكناته . فإن تقدم أحد من الناس فى مراتب الحياة ومسالـكها ، ونال فيها حظوة حسنة يستحقها عن جدارة ، حسده الحاسدون ، ونغصوا عليه عيشه . ولذا نشأ بين الناس الرياء والتمويه ، حينما صارت أفعالهم للناس لا لهم ، ليدفعوا عنهم بذلك سوء ظنهم بهم ، كل ذلك لما كان كل من الناس رقيباً على غيره ، مترصداً لسواه . يقول :

رأيت الورى كلا يراقب غيره فـكل عليه من سواه رقيب
ومن أجل هذا قد ترى كل فاعل إلى الناس فى كل الفعال ينيب[1]

= يمالىء ويوالى كل الحـكومات العراقية الخائنة قبل الثورة . وهو نفسه اليوم ينافق الحـكم القائم ، ويضع نفسه وقلمه فى خدمة حكم عبد الـكريم قاسم ، حكم الظلم والإرهاب . ولو ظهرت للرصافى حقيقته الهزيلة ، وطباعه الخسيسة ، فى ذلك الوقت ، لما حذره من المنافقين ، لأن الجواهرى نفسه من أكبر المنافقين ، ولـكان قد حذر الناس منه .

(١) الديوان ص ٤ .

ومن ثم . . .

فإن الرصافى حينما يصل إلى هذه الأغراض السامية فى دعواته الاخلاقية البناءة ، يكشف بالتالى عن نفسه للناس جميعاً ، ويعلن الملأ أنه لم يخادع أحداً يوما ، ولا أضمر حسوا فى ارتغاء ، بل هو يحب الصراحة قولا وفعلا ، ويكره أن يميل إلى الرياء أو الـكذب أو النفاق :

أحب صراحتى قولا وفعـلا واكره أن أميل إلى الرياء
فما خادعت فى أحـد بأمر ولا أضمرت حسوا فى ارتغاء
ولسنا من الذين يرون خيراً بابقاء الحقيقة فى الخفاء[1]

دعوة تحررية للاقتصادنا العربى

وقبل أن ننتهى من هذا الفصل ، لابد لنا من الإشارة ، فى هذا المجال ، إلى ما كان يدعو إليه الرصافى من دعوة تحررية للاقتصاد العربى .

فالرصافى الذى كافح الاستعمار السياسى ، والذى كافح الاستعمار الفكرى ، لحرى به قبل كل شىء ، أن يتجه ، أول مايتجه ، إلى الناحية الاقتصادية فى المجتمع العربى ، وأن يحمل الدعوة إلى تحرر اقتصادنا العربى من الأغلال والقيود الاستعمارية التى تـكبله وتقيده .

يقول الدكتور أحمد سويلم العمرى : (وفى مقدمة العلوم التى تمت بصلة للسياسة الاقتصاد ، فـكل منهما يتم الآخر ، ولا يمكن علاج مشكلة سياسية اليوم إلا إذا بحثنا أسباب تعقدها من الناحية الاقتصادية ، وكذلك لا يمـكن مداواة الازمات الاقتصادية إلا عن طريق تصفية الجو السياسى والقضاء على أسباب التوتر)[2] .

والرصافى ، وإن لم يضع خطوطاً عريضة مفصلة لهذا المنهج الاقتصادى الذى دعى إليه ، كما هو الحال بالنسبة إلى المنهج الاجتماعى ، ويفسر ماهية الأسس التى يجب أن يبنى عليها هذا الاقتصاد ، بالمعنى العلمى الدقيق ، إلا أن الدعوة الاقتصادية المعروفة

(١) الديوان ص ١٩١ .
(٢) راجع كتابه (بحوث فى السياسة) ص ٢٠ — مكتبة الانجلو المصرية .

المنهاج ، باطارها العام ، قد تناولها الرصافى ، وعبر عنها فى بعض المناسبات التى كانت تعن فى ذلك الوقت .

إن الرصافى — وهو داعية من دعاة الإصلاح السياسى والاجتماعى — قد دعا إلى الاستقلال الاقتصادى، وتحرره من السيطرة الأجنبية . فالبلاد العربية غنية بمواردها الطبيعية ، من خامات ومعادن وزيوت ، وأن بمقدور هذه البلاد ان تنتج ما يكفيها للاستهلاك المحلى ، بل وبمقدورها أيضاً أن تكون من الدول المصدرة إلى الخارج إذا هى زادت من هذا الإنتاج .

ولهذا السبب ، كان الرصافى يدعو إلى « الاكتفاء الذاتى » — على حد تعبير الاقتصاديين — والسعى إلى إقامة المصانع ، لصنع ماتحتاج إليه الأمة العربية فى جميع الحالات والمجالات .

فى قصيدته (فى سبيل الوطنية)[1] التى بعثها إلى صديقه فخرى البارودى ، وكان قد ألف فى دمشق شركة للمنسوجات الوطنية ، يدعو الرصافى إلى هذا التحرر الاقتصادى ، ويبين فى الوقت نفسه ، أن بامكاننا أن ننتج من البضائع ما يكفينا لسد حاجاتنا ، فلا داعى إذن للاتكال على البضائع التى نستوردها من الدول الأجنبية .

يقول :

تغنى البلاد بسعيها عن غيرها ... وتعيد عهد ثرائها المفقود
وتقوم بالعمل المفيد لأهلها ... من نسج أرديه لهم وبرود
حتى تكون عن الأجانب فى غنى ... وتعيش غير اسيرة التقليد

ثم يبين بعد ذلك أن :

الغرب يكسوهم ملابس هم بها ... يعرون من مال لهم ونقود
وتراه يسلخهم بمصنوعاته ... سلخ الشياه فهم بغير جلود
هذى سفائنهم تروح وتغتدى ... ببضائع لم تحص بالتعديد
فكأنما هى لامتصاص دمائنا ... بعض المحاجم أو كبعض الدود

(١) الديوان ص ٨٤ .

وفى الأبيات التالية ، يبين الرصافى أننا لانستطيع أن ننال استقلالنا السياسى ، إلا إذا استقل اقتصادنا ، وتحرر من قيود الاستغلال والاستعباد :

إن السياسة تستدير مع الغنى ... فى حالتى عدم له ووجود
لايستقل بسيفه الشعب الذى ... لا يستقل بنقده المنقود
من كان محلول العرى فى ماله ... وجب انحلال لوائه المعقود

ومرة أخرى يفطن الرصافى إلى هذا المعنى ، ويربط بين الاستقلال السياسى والاستقلال الاقتصادى ، ويشد بعضهما إلى بعض ، وذلك حينما زار العراق ، عام ١٩٣٦ ، وفد مصرى برئاسة المرحوم طلعت حرب زعيم مصر الاقتصادى ، فأنشد الرصافى قصيدة عصماء ، يحيى بها وفد مصر الشقيقة ، وفيها يقول :

إذا ما مصر فى المال استقلت ... فلا تخشى التأخر فى السياسه
فإن المال أكبر مايرجى ... به نيل السعادة والرئاسه
إذا ما الشعب كان أسير فقر ... فما تجدى السياسة والحماسه
أيصبح فى سياسته طليقاً ... أسيراً وجب الفقر احتباسه[1]

وفى قصيدته (السينما الوطنى)[2] يذكر الرصافى هذا المعنى أيضاً ، وهو أن الاستقلال الإقتصادى سبيل إلى الإستقلال السياسى ، فيقول :

لو جعلنا كل شىء وطنيا ... لقطعنا ثمر المجد جنيا
ولعشنا اليوم فى أوطاننا ... مستقلين بها عيشاً رخيا
ولأضحى نابها خاملنا ... ولامسى كل ذى فقر غنيا
يا بنى بغداد هل من يقظة ... لأمور تكسب القوم رقيا

وأخيراً ، ينبغى أن لاتفوتنا الإشارة إلى الأساس الذى دعا إليه الرصافى لإقامة مجتمع اقتصادى سليم ، وهذا الأساس هو التقيد بمذهب « الاشتراكية » — الاشتراكية العربية ذات الأسس الإسلامية — ولقد ذكرنا سابقاً ، الأبيات التى

(١) الديوان ص ٥٦٤ .
(٢) الديوان ص ٥١١ .

يدعو فيها إلى الاشتراكية . ونضيف إليها بهذه المناسبة الأبيات التالية كأساس أيضاً لهذا المذهب الإشتراكى . يقول :

ولم يصلح فساد الناس إلا بمـــال من مكاسبهم مشاع

وذلك لـكى :

تشاد به المـــلاجىء لليتامى وتمتـار المطاعم للجياع
وتبنى للعلوم به مبان تفيض العـلم مؤتلق الشعاع
وإلا فالشـقاء لهم حليف وما حمل الشقاء بمستطاع[1]

(١) الديوان ص ٨٣ .

الباب الثالث

الأحداث السياسية

الفصل الأول

أدبه فى العهد العثمانى حتى اعلان الدستور

سنبحث فى هذا الفصل ، أدب شاعرنا الرصافى فى سياسة السلطان عبد الحميد . وقبل أن نبين نوعية هذا الأدب ، ومقدار شدته أو ضعفه ، نرى أنه من الضرورى ، أن نعرض لبعض النواحى عن السلطان عبد الحميد نفسه ، ونبحث فى سياسته التى أدت بالرصافى ، أن يقرن كثيراً من قصائده العثمانية بهذه السياسة .

لقد ورث السلطان عبد الحميد ، فيما ورث ، ملكا مهزوزا ، يسوده الاضطراب ، ويعمه الفساد . وهو حينما أتى إلى الحكم ، كان يشعر ولا ريب بهذا الفساد ، وذاك الاضطراب . لذلك حاول أن يصلح ما أفسده الدهر ، ولعبت به أيدى القدر ؛ من تخريب وانحلال فى أمور الدولة . فمنح بلاده دستورا جديدا ، وبرلمانا على النسق الأوربى ، وكان ذلك فى ٢٣ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٧٦ . غير أن هذا البرلمان لم يستمر طويلا ، اذ سرعان ما أمر عبد الحميد بحله إلى أجل غير مسمى ، لأنه لم يتخذ قرارات ذات أهمية فى النواحى السياسية والاجتماعية ، وإنما صرف كل جهده فى موضوع إنشاء خطوط الترام فى بغداد[1] . كما دبت المنازعات الشخصية بين أعضائه ، وأخذوا يوجهون جهودهم بعضهم ضد بعض ، إلى أن قامت فى ذلك الحين الحرب الروسية — التركية .

ولما كانت هذه الحرب ذات أهمية بالغة فى الإسراع بتقويض حكم السلطان عبد الحميد ، رأينا أن نعرج على هذه الحرب ، خاصة وانها تتصل اتصالا وثيقا بالبلاد العربية ، لما هو معلوم منذ ذلك الوقت حتى الآن ، أن أغلب جنود الجيش العثمانى كان من أبنائها ، وخاصة من العراق ، إذ يقدر عددهم بنحو عشرة آلاف جندى عدا المتطوعين[2] . وقد أشار الرصافى إلى ذلك فى قصيدته (تنبيه النيام[3]) .

---

(١) انظر كتاب عبد الحميد ظل الله على الارض ، تأليف الماوتلن ، ترجمة راسم رشدى ص ٨٨ دار النيل للطباعة ١٩٥٠ .

(٢) مختصر تاريخ بغداد تأليف على ظريف الأعظمى ص ٢٤٥ مطبعة الفرات بغداد ١٩٢٦ .

(٣) الديوان ص ١٠٣ .

لقد أعلنت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا ، بحجة إعلان الروس أنفسهم حماة للنصارى ، واتخذوا من المذابح التى حدثت فى البلقان ، وسيلة لإعلان الحرب على الدولة العثمانية . وبالرغم من أن الجيش العثمانى كان خليطا عجيبا من الأتراك والعرب والأكراد والشراكسة ، وبالرغم مما قاسوه من شظف العيش ، أثناء القتال ، وبالرغم من أن الطريق قد أصبح مفتوحا أمام الروس إلى القسطنطينية ، بعد أن سقط آخر حصن تركى نتيجة تفوق عدوهم عدة وعددا . . . بالرغم من كل هذا ، فقد لعب الحظ دوره ، ووقف إلى جانب الدولة العثمانية ، وأنقذها من الدمار والخراب ، وذلك حينما تدخل الإنكليز بحجة رسمية ، وهى حماية الجالية المسيحية فى العاصمة التركية ، من هجوم المسلمين . إذ لم يكن باستطاعة انكلترا ، أن تسمح بسقوط القسطنطينية فى أيدى الروس ، كيلا تتمكن روسيا من اقفال طريق الهند[١] .

وقد انتهت هذه الحرب بعقد مؤتمر برلين ، الذى أعاد بلغاريا إلى تركيا ، رغم أنها خسرت الحرب .

ومن العوامل التى لعبت دورها فى اضعاف مركز السلطان عبد الحميد أيضا ، هى حربه مع الأرمن (١٨٩٤ — ١٨٩٦) إذ ألبت عليه الدول الأوربية ، وخاصة انكلترا ، التى كانت محتفظة بصداقتها للدولة العثمانية مدة طويلة من الزمن .

لقد كانت « أرمينيا » التى يسكنها « الأرمن » ولاية عثمانية ، منذ بداية القرن التاسع عشر . وكان معظم سكانها من المسيحيين الذين احتفظوا بشعورهم المسيحى طيلة هذه المدة .

وبعد أن انعقد مؤتمر برلين أثر الحوب بين الدولة العثمانية وروسيا ، طولب السلطان بأن (يتعهد بإدخال اصلاحات خاصة بأرمينيا) كما نصت الفقرة ١٦١ من معاهدة برلين[٢] .

---

(١) عبد الحميد ظل الله على الارض ، تالف الما وتلن ، ترجمة راسم رشدى ص ٩٨ ، دار النيل للطباعة ١٩٥٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ .

إلا أن الزمن قد مر سريعا ، ولم يلزم السلطان نفسه بالاصلاحات التى تعهد بالقيام بها . لذلك تضافرت عوامل الثورة عند الشعب الأرمنى ضد السلطان ، فثار عليه الأرمن بغضب مجنون تعدى ضروريات أوضاعهم أو مطالبهم الاصلاحية . فأجابهم هو بقسوة ، مستغلا السكان المسلمين المستوطنين فى أرمينيا[١] .

وهكذا (ظلت المذابح مستمرة عامين كاملين ، ليس فقط فى أرمينيا . بل حيثما وجد الأرمن فى أى مكان من تركيا)[٢] .

وبعد انتهاء هذه الحرب ، دخلت السلطنة العثمانية فى فترة هدوء وسلام ، فى الظاهر . غير أن مرافق الدولة ، أو الدولة بأجمعها ، بدأت تنحدر انحدارا سريعا نحو التفسخ والانحلال .

كان عبد الحميد ذا سلطة مطلقة . وكانت كلمته هى القانون . ومن أجل سلطانه المطلقة هذه ، أخذ يخاف من مواطنيه ، شأنه شأن كل حاكم ظالم . فأرسل جواسيسه إلى كل مكان . . أرسلهم إلى الشوارع والمقاهى ، وإلى دواوين الحكومة ودور الناس ، مسترقين السمع لكل كلمة تقال ، ومجتهدين أن يحفظوا ، وأن يعوا ، كل ما يقال أو يوجه من ملاحظات أو انتقادات للسلطان أو للحكومة .

ولهذا لم يأمن الأخ أخاه ، ولم يأمن الجار جاره . فاضطربت الأنفس ، وخافت مغبة الغدر والخيانة ، وكان عبد الحميد يخاف على نفسه أشد الخوف . وكان أى تقرير من هذه التقارير ، وإن كان مختلقا ، يفزعه فزعا شديدا . وعلى الرغم من أنه كان ظل الله على الأرض ، وأنه كان يعتقد نفسه نصف إله ، فإنه كان ضعيف الأعصاب بسبب نشأته الأولى القاتمة بعد وفاة والدته . فكان لا يثق بأحد ، ولهذا السبب ، كان يروم الفتك دائما بأعوانه ووزرائه الأقوياء خاصة . فقد اتهم مدحت باشا ، وزيره السابق ، بتهمة الاغضاء عن موت عمه السلطان عبد العزيز ، فأرسله منفيا إلى الحجاز ، حيث دبر خنقه عام ١٨٨٣[٣] .

كما أصبحت حالة الدولة الاقتصادية فى تدهور وانحطاط . فظلت منابع الثروة

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢١ .

الوطنية معطلة ، وانحلت الصناعات اليدوية ، حتى أن صناعة نسيج الحرير التى كانت تفخر تركيا ، يوما ما ، تدهورت إلى جزء قليل من مقدارها السابق[١] .

وانتشر اللصوص والأفاقون فى أرجاء البلاد . فكان قطاع الطرق يسطون على الآمنين من الناس من أصحاب الثروة . أما الأفاقون فكانوا يتمثلون فى الصيارفة الذين جعلوا التلاعب فى قيمة النقد تجارة فى الأمبراطورية الواسعة[٢] .

وهكذا تظافرت عوامل الفساد كلها فى الامبراطورية الواسعة ، وكان من الطبيعى أن تلقى أسباب هذا الفساد كله على رأس عبد الحميد نفسه ، لأنه هو المتهم الأول لكل ما حدث لهذه الامبراطورية من انحلال وخراب .

ولما كان شاعرنا معروف الرصافى ، قد هاجم السلطان عبد الحميد ، وهو لا يزال فى العراق ، وقبل أن يسافر إلى الاستانة ، فلا بد لنا من أن نوجه عنايتنا لدراسة البيئة التى نشأ فيها الرصافى ، ونعنى بيئة العراق ، فى هذه الفترة بالذات ، والتى كانت سبباً فى سخطه وثورته على السلطان عبد الحميد .

أما من ناحية الإدارة ، فقد كانت المناصب والوظائف فى العراق تمنح لغير مستحقيها . فمن طريق المحسوبية والوساطة ، أو عن طريق الرشوة ، كان الناس يتوصلون إلى مناصبهم الإدارية . والرشوة أيضاً كانت أمضى سلاح للتقدم ، وبدونها لا تنجز مهمة ، ولا تنتهى قضية .

ومن أجل هذا ، وجد العراقيون أنفسهم حيال جماعة من الأميين ، أو أشباه الأميين ، وهم يتولون المناصب الكبرى فى البلاد ، وحيال أناس شريرين فى دوائر الشرطة والأمن نفسها .

والوالى الذى يعينه السلطان ، وكان دائماً من غير أهل البلاد ، هو على رأس هذه الجماعة التى تجمع الأموال بكل طريقة ومسلك . والحق إنه لمضطر أن يفعل ذلك ، لأنه هو بدوره يقدم الرشاوى إلى السلطان والمتنفذين من رجال الحكم ، حتى يستطيع

(١) المصدر السابق ص ١١٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١١٢ .

أن يبقى أطول مدة ممكنة فى الحكم ، وإلا خلع من منصبه ، وعين بديلاً عنه ، من يستطيع أن يدفع مالا أكثر منه .

ومن أجل هذا ، رأينا الوالى يتغاضى عن تلاعبات مرؤوسيه وسرقاتهم . فضعفت سيطرته عليهم ، وتراخت سطوته وحزمه تجاههم ، وتهالكت بالتالى قوة الأمن ، وقوة الإدارة .

إذ كان من نتائج سوء الإدارة ، أن فقد الأمن فى ربوع البلاد ، وأصبح اللصوص ، وقطاع الطرق ، يعيثون فى الأرض فسادا ، فينهبون الأموال ، ويزهقون الأرواح ، دون خوف من سلطة تفرض عليهم العقاب الشديد ، أو وجل مما يفعلون .

ومن الطبيعى ، أن تكون هناك طبقة من الناس لا ترضى عن هذه الأوضاع السيئة ، فكانت دائمة الشكوى والتذمر . وكان نصيبها من هذه الدولة ، أن عوملت بقسوة وضراوة ، بل أصاب بعض أفرادها النفى أو السجن ، هؤلاء الأفراد المتمثلين فى طبقة المفكرين والأدباء . ولقد رأينا مثالا لذلك نفى العلامة الشيخ محمود شكرى الألوسى إلى الأناضول .

وتبعاً لهذه الفوضى والاضطراب ، كثر عدد الجواسيس الذين يسترقون السمع ، وينقلون الأخبار الصحيحة منها ، أو الملفقة ، إلى السلطات الحاكمة . ولهذا بدأ التشكك والارتياب يسودان بين أبناء الشعب الواحد ، ويرمى كل منهم الآخر بتهم قد تكون باطلة أو محقة . وبالتالى سيطر الخوف على الناس من وشايات الجواسيس ، فكمت أفواههم ، واضطروا إلى أن يقولوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، وأن يتقبلوا هذا الجور والارهاب بصبر بالغ ، خشية أن يلحق بهم الأذى وهم آمنون .

ولم يكن للثقافة والتعليم نصيب من العناية والاهتمام ، بل كان حظهما مثل حظ الإدارة ، فى السوء والاضطراب . بل إن تعثر الحركة التعليمية والثقافية ، إنما سببه ضعف هذه الإدارة ووهنها ، ونتيجة من نتائج سوءاتها . إذ أن الحركة التعليمية اقتصرت على الكتاتيب ، وبعض المساجد الدينية ، كما اقتصرت على فتح المدارس الأولية . وهناك مدرسة إعدادية واحدة سميت (المدرسة الرشدية العسكرية) وكانت ذات طابع عسكرى ، وتهيىء لخريجيها فرصة إكمال الدراسة العسكرية العليا فى استامبول ،

إذ لم تكن فى بغداد ، فى هذا الوقت ، كليات أو دراسات عالية . ولقد كانت الدراسة فى هذه المدرسة العسكرية ، وغيرها من المدارس ، باللغة التركية ، بل حتى قواعد اللغة العربية ، كانت تدرس فيها باللغة التركية . أما القرى والأرياف فقد حرمت من التعليم حرماناً كبيراً

ولا ريب أن بلداً كالعراق ، يحكمه الفساد ، ويهيمن على شئونه نفر من المرتشين والمستغلين ، لا بد أن يعيش أغلب أبنائه فقراء معوزين . فسكان المدن كانوا يشتغلون ببعض الصناعات البدائية ، ويتجرون بالتجارة البسيطة . أما معظم سكان العراق ، وهم من العشائر الذين يعيشون على النظام القبلى ، فكانوا يزرعون الأرض لخدمة أسيادهم من رؤساء العشائر . وعدد هؤلاء قليل ، وهم مرفهون نسبيا ، أما الباقون ، وهم الكثرة الغالبة ، فكانوا يعيشون عيشة الكفاف ، وهم أقرب إلى البهائم فى طراز معيشتهم منهم إلى الآدميين .

كما أهملت الحكومة مشاريع الرى التى هى عماد الزراعة فى العراق ، فقلت المحاصيل الزراعية ، ولم يعد يزرع فيه من المزروعات إلا مايعتمد على الأمطار .

أما الحالة الصحية فى البلاد ، فقد كانت متأخرة كل التأخر ، بل هى لم تكن ذات بال ، فى دولة استشرى فيها الفساد فى كل أوصالها . وأما الأطباء فكانوا من الندرة بحيث أنه لايوجد أكثر من واحد فى مركز الولاية [1] .

وكانت الأمراض تفتك بالناس شر فتك ، وتقتل منهم المئات والآلاف ، كما حدث حين انتشر وباء الطاعون [2] ، خاصة وأن الناس لايعرفون من وسائل الوقاية غير المسائل البدائية التى لاتحول دون الانتشار السريع لهذا المرض الخبيث الفتاك .

ولم يكن فى العراق كله غير مستشفى المجيدية الصغير فى بغداد ، والذى كان مخصصاً للجيش (وسمى بعدئذ المستشفى الملكى ، وتحول إلى المستشفى الجمهورى بعد الثورة) ، ومستشفى صغير فى الكرخ ، أنشأهما الوالى مدحت باشا بضمن ماقام به من إصلاحات فى العراق [3] .

(١) فى غمرة النضال ، مذكرات سليمان فيضى ص ٥٣ .
(٢) مختصر تاريخ بغداد تأليف على ظريف الأعظمى ص ٢٤٧ ، مطبعة الفرات بغداد ١٩٢٦
(٣) فى غمرة النضال مذكرات سليمان فيضى ص ٥٣

كما لم تكن هناك مشاريع اسالة الماء ، بل كان الناس يشربون من مياه الأنهر ، وينقلونه منها إلى بيوتهم بالقرب . وكان هذا عاملا كبيراً من عوامل نقل الأمراض الفتاكة وانتشارها بين الناس [1] .

هذا ، واننا نستطيع أن نضيف إلى مجموعة هذه الأوضاع السيئة فى العراق ، والتى أثارت الرصافى ، حوادث أخرى معينة ، أثارته أيضاً ، بل زادت من سخطه ونقمته وثورته على السلطان عبد الحميد .

من ذلك ماذكرناه آنفا ، إرسال هذا العدد الهائل من أبناء الشعب العراق للاشتراك فى محاربة الجيش الروسى ، أثناء الحرب الروسية التركية ، دون رغبة هؤلاء الأبناء ورضاهم .

وكذلك ، إرسال جيش كبير العدد من جنود العراق وضباطه إلى (القصيم) ، عاصمة الرشيديين ، لمساعدة ابن الرشيد على قتال ابن السعود ، فقد مات أكثر هذا الجيش جوعاً ، مما حدا بالرصافى أن يطلق صرخته المدوية ، مستنكراً هذا الأمر البغيض ، خاصة وأن الجيش العراقى ، وهو جيش عربى ، إنما ذهب لمحاربه جيش عربى آخر .

يقول الرصافى فى قصيدته الرائعة « إيقاظ الرقود » [2] فى موضوع هذه الحرب :

لقد غص « القصيم » بكل نذل ... وأمسى من تخاصمهم بشغل
فريقا خطتى غى وجهل ... كلا الخصمين ليس له بأهل
ولكن من لتنكيل المريد
إليهم أرسلت بغداد جندا ... ليهلك فيه من عبث ويُفدى
لقصد ابن الرشيد أضاع قصدا ... فلا يابن الرشيد بلغت رشدا
ولا بلغ السعود ابن السعود
مشوا يتحركون بعزم ساكن ... ورثة حالهم تبكى الأماكن
وقد تركوا الحلائل فى المساكن ... جنود أرسلت للموت لكن
بفتك الجوع لا فتك الحديد

(١) المصدر السابق ص ٥٣
(٢) الديوان ص ١١٦

قد التفعوا بأسمال بوال مشاة فى السهول وفى الجبال
يجدون المسير بلا نعال بحال للنواظر غير حال
وزى غير مازى الجنود

ويمضى الرصافى فى وصف هذه المسيرة ، مسيرة الجيش ، حتى يصل وصفه إلى الحرب نفسها ، التي تأكل الناس بين رحاها . وحين ينتهى من وصفه الرائع هذا ، يوجه نداءه إلى الجيش العراق الهالك ويقول :

أناديهم ولى شجن مهيج وأذكرهم فينبعث النشيج
ودمع محاجرى بدم مزيج ألا يا هالكين لكم أجيج
ذكا بحشاى محتدم الوقود

سكنا من جهالتنا بقاعا يجور بها المؤمر ما استطاعا
فكدنا أن نموت بها ارتياعا وهبنا أمة هلكت ضياعا
تولى أمرها عبد الحميد

ومن الأحداث التى أثارت سخط الرصافى وحنقه على المسؤلين ، وعلى السلطان عبد الحميد ، انكسار السد فى بغداد ، الأمر الذى حسبه أكبر دليل على إهمال هؤلاء المسؤولين ، وعدم عنايتهم بشؤون العراق العمرانية والإنشائية .

وفى قصيدته (سوء المنقلب[1]) ، يصور لنا الرصافى حالة بغداد يوم أن فاض نهرا دجلة والفرات ، ولم تمنعهما السدود المتآكلة ، وكيف اتصلت مياههما ، وزحفت على أحياء بغداد تغمرها ، فتحولت ، وخاصة جانب الكرخ ، إلى برك آسنة ، ذات روائح كريهة ، وكيف سدت الطرقات ، وتهدمت الدور القديمة ، حتى استحال هذا الجانب من بغداد إلى مشهد من مشاهد البؤس المؤلمة . .

يقول :

تلك الرصافة والمياه تحفها والكرخ قد ماجت به الأزمات
سالت مياه الواديين جوارفا فطفحن والأسداد مؤتكلات

(١) الديوان ص ١٠٥

فتهاجم الماءان من ضفتيهما فتناطحا وتوالت الهجمات
حتى إذا اتصل الفرات بدجلة وتساوت الوهدات والربوات
زحفت جيوش السيل حتى أصبحت بالكرخ نازلة لها ضوضاة
القصيدة . . .

ومن الأحداث الهامة المعينة التى أثارت الرصافى ، وسببت سخطه أيضاً ، نفى شيخه العلامة محمود شكرى الألوسى ، وابن عمه ثابت أفندى ، فى عهد الوالى عبد الوهاب باشا ، بتهمة نشر المذهب الوهابى فى العراق . وقد عرضنا لهذا الحادث سابقا ، وبينا أثره فى معروف الرصافى ، فلا حاجة بنا لإعادة القول فيه مرة أخرى .

وليس بدعا ، والحالة هذه ، أن تكون هذه الأوضاع السيئة التى كانت تلف العراق ، وتربطه ربطاً محكماً إلى سلسلة متينة من الفقر والجهل والمرض ، وهذه الحوادث المعينة التى أتينا إلى ذكرها تباعا ، هى من دون شك أثارت الرصافى ، وحمل من أجلها مشعل الحق والحرية لمقارعة أسياف الظلم والفساد ، أسياف السلطان عبد الحميد ، والتنديد بحكمه الغاشم .

ومن يكون المسئول عن هذه الفوضى الضاربة أطنابها فى العراق ، فى الشئون السياسية والاقتصاديه والاجتماعية والعمرانية ، غير السلطان عبد الحميد ، وغير أتباعه من الولاة والحاكمين ؟ .

ومن هنا بدأ تحمس الرصافى — وهو الثائر بطبعه — لمهاجمته ، والتنديد بسياسته الجائرة .

وللرصافى فى تبيان الأوضاع السيئة التى كان يعيشها العراق ، قصائد متعددة ، وفيها نستطيع أن نرى بوضوح تام ، ذلك الحنق الشديد ، والغضب البالغ ، على هذه الأوضاع السيئة ، وموجد هذه الأوضاع السيئة . كما نلحظ كيف بدأ الرصافى ينبه الناس إلى مساوىء هذا الحكم الفاسد .

فى قصيدته الرائعة (إيقاظ الرقود[1]) ، يخاطب الرصافى بغداد التى غاب

(١) الديوان ص ١١٦

عنها العز ، وأذلها الفقر والجهل والمرض ، ذاكرا حالها التى هى عليها ويقول :

أقام الجهل فيك شهودا وسامك بالهوان له السجودا
متى تبدين منك له جحودا فهلا عدت ذاكرة عهودا
بهن رشدن أيام الرشيد

ويقول :

برحت الأوج ميلا للحضيض وضقت وكنت ذات عُلىً عريض
وقد أصبحت فى جسم مريض وكنـت بأوجـه للعز بيض
فصرت بأوجه للذل سود

وبعد أن ينتهى الرصافى من وصف حال بغداد ، بعد أن انقلبت من عز إلى ذل ، يعرض للسلطان عبد الحميد ، كاشفا سياسته الجائرة للناس ويقول :

أقول وليس بعض القول جـدا لسلطان تجـبر واستبـدا
تعدى فى الأمور وما استعدا ألا أيها الملك الفـدى
ومن لولاه لم تك فى الوجود

أنم عن أن تسوس الملك طرفا أقم ما تشتهى زمراً وعزفا
أطل نـكر الرعيـة خل عرفا سم البلدان مهما شئت خسفا
وأرسل من تشاء إلى اللحود

فدتك الناس من ملك مطاع ابن ما شئت من طرق ابتداع
ولا تخشَ الإله ولا تراع فهل هذى البلاد سوى ضياع
ملـكت أو العباد سوى عبيد

القصيدة . . .

وفى قصيدته المشهورة(تنبيه النيام[1]) يحاول الرصافى أن يلقى المسئولية — كل المسئولية — على أكتاف الحكام الجائرين الذين كانوا يحكمون الدولة ، ويهمهم جميعاً ، وعلى رأسهم السلطان عبد الحميد ، بأنهم المسؤلون الوحيدون عن سبب هذا التدهور والفساد .

(١) الديوان ص ١٠٣

وإنه ، بعد ذلك، ليعجب أشد العجب أن بنى قومه لايزالون يخضعون لمثل هؤلاء الحكام الجائرين ، ويرتضون أن يكونوا أتباعاً أذلاء لهم ، فيقول :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسومهم بالموبقات عميـدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها

ويحث الرصافى أبناء وطنه على الثورة ضد السلطان عبد الحميد ويقول :

بنى وطنى ما لى أراكم صبرتم على نوب أعيا الحصاة عديدها
أما آدكم حمل الهوان فإنه إذا حملتـه الراسيات يئودهـا
قعدتم عن السعى المؤدى إلى العلى على حين يزرى بالرجال قعودها
ولم تأخذوا للأمر يوما عتاده فجاءت أمور ساء فيـكم عتيدها
ألم تروا الأقوام بالسعى خلدت مآثر يستقضى الزمان خلودها
وساروا كراما رافلين إلى العلى بأثواب عز ليس يبلى جديدها

وبناء على ذلك كله ، فاننا نرى الآن بكل جلاء ووضوح ، أن الرصافى كان قد حمل مشعل الثورة ضد السلطان عبد الحميد ، وهو لا يزال فى بغداد ، ومن قبل أن يؤم الاستانة ، كما ذهب إلى ذلك الاستاذ مصطفى على[1] ، خلافا لما ذهب إليه الدكتور بدوى طبانه ، من أن الرصافى قد بدأ بمهاجمة السلطان وهو فى الاستانة[2] ، أى بعد سفره ، وان ما ذكرناه فى هذا الفصل خير دليل على صحة هذا الرأى . بيد أن كلاً من الأستاذين الفاضلين ، لم يبينا أسباب هذه الثورة على عبد الحميد ، وان كنا قد أرجعنا هذه الثورة عليه إلى جملة أسباب ذكرناها بالتفصيل .

وعلى هذه الحالة ، سافر معروف الرصافى إلى الاستانة عام ١٩٠٨ ، سافر وهو يتوقد نارا متأججة ، يحملها بين طيات قلب ممتلىء باللوعة والحسرة على حاضر العراق ومستقبله .

فما الذى سيحدث بعد أن وجد نفسه فى الاستانة ؟

(١) أدب الرصافى نقد ودراسة للأستاذ مصطفى على ص ١٥ ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٧
(٢) معروف الرصافى دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانه ص ١٠٥ الطبعة الثانية مطبعة الرسالة بمصر ١٩٥٧ .

هل سيزداد سخطاً وثورة على السلطان عبد الحميد ؛ أم سيقفل فمه خوفا من أن يبطش به ، وهو قد أضحى فى عاصمة ملكه ، قريبا منه ومن عيونه ؟

الحق أن الرصافى كان قد عودنا على أن يكون جريئا ، شديداً فى جرأته ، لايخاف سجناً أو عقاباً . . .

والحق أن الرصافى كان وهو فى بغداد، لايخشى واليا من ولاة عبد الحميد ، أصحاب السلطة ، وأولى الأمر والنهى فيها .

فمن كانت طباعه على هذا النحو من الجرأة والإقدام فليس من ديدنه أن يتراجع عن مواقفه الجريئة المشرفة وهو فى الاستانة .

وكان الرصافى عند حسن ظننا به .

ذلك لأننا قد وجدناه بالاستانة رجلا ماضياً فى التنديد بسياسة السلطان عبدالحميد ، وحاشيته وأتباعه ، وما انفك ساخطا ثائرا ، لايزعزعه الشك ، ولايعتوره الوهن ، حتى أجبر السلطان على التخلى عن الحكم عام ١٩٠٩ .

بل لقد زادت ثورته وتأجج سعيرها ، بعد ما سافر إليها وأصبح فى عقر دار الخلافة ، وصار فى مقدوره أن يرى عن كثب ، مساوىء الإدارة الحميدية ، وكيف كانت هذه الإدارة تسوس رعيتها بالتعسف والظلم .

كما إن الرصافى قد شاهد عن قرب قصر يلدز ، وقصور الأمراء والوزراء . ولاريب أنه قد خمن كيف يعيش هؤلاء جميعاً فى نعيم وترف ، وهم فئة لا يميزهم عن غيرهم من الناس إلا فى امعانهم فى الجهالة ، ورسوخهم فى النذالة ، بل إنهم لوغربلوا مع هؤلاء الناس لما كانوا غير نفاية وحثالة .

ومما لا ريب فيه إن الرصافى ، وهو الفقير المعدم ، سيكون موتورا من هذه الطبقة ، حاقداً عليها، لذلك لم يستطع أن يكتم هذا الشعور فى نفسه ، شعور الكراهية ازاء هذه الطبقة الغنية المترفة. إذ سرعان ما يكشف عن نفسه ، ويسمعنا قصيدة يصف بها حالة السلطان وحاشيته وأتباعه سماها (آل السلطنة)[1] وفيها يعرض الرصافى

(١) الديوان ص ٤١٠

كيف يعيش هؤلاء جميعاً فى ترف ونعيم، بينما ملايين من الناس يعيشون فى كفاف، وقد لايحصلون على قوتهم فى أحايين كثيرة . يقول :

هم يعدون بالمئات ذكوراً وأناثاً لهم قصور مشاله
ولهم أعبد بها وإماء ونعيم ورفعة وجلاله
تركوا السعى والتكسب فى الدنيا ... وعاشوا على الرعية عاله
يتجلى النعيم فيهم فتبكى أعين السعى من نعيم البطاله
يأكلون اللباب من كد قوم أعوزتهم سخينة من نخاله
فكأن الأنام يشقون كدا كى تنال النعيم تلك السلاله
وكان الإله قد خلق النا س لمحيا آل السلاطين اله

كما إن الرصافى قد استمر على هذه الثورة ، وذلك حينما شاهد بعينه حسن القسطنطينية وجمالها وبهاءها، ورأى العمران يعم البلاد، فيقارن ذلك كله بالحالة فى العراق فيزداد حسرة ولوعة ، بل ثورة قاتلة .

ففى قصيدته (ما رأيت فى بك أو غلى[1]) نرى هذه الحسرة واضحة جلية ، حينما يصف هذا الحى الجميل فى استامبول ، ويصف مبانيه وطرقاته ومنتزهاته ، والحياة الصاخبة الضاحكة فيه . ثم يلتفت إلى بغداد ، حيث الشوارع ضيقة قذرة ، والدور قديمة متهالكة ، والحدائق معدومة ، فيزداد حسرة وألماً ، ويشرع قائلا :

شقاء تمطى فى العراق تمطيا وألقى جراناً لايزحزح واستلق
فإن العراق اليوم قد نشبت به نيوب الدواهى فهى تعرقه عرقا
تمشت به حتى أعادت سواده بياضاً ومدت للبوار به ربقا
فلهفى على بغداد إذ قد أضاعها بنوها فسحقا للبنين بها سحقا
سابكى عليها كلما جلت سائحا وشاهدت فى العمران مملكة ترقى
واندبها عند الأغاريد شاربا من الدمع كاسا لا أريد لها مذقا

إن الرصافى حين حمل مشعل الثورة ضد السلطان عبد الحميد، وقارع بشعره سيوف

(٢) الديوان ص ٢٣١

هذا الطاغية، ليعلم حق العلم، ما هو جزاؤه من هذه الثورة، ومصيره فيها. ولكنه كان شجاعاً، جريئاً، لايبالى بعقاب، ولايرهبه قتل أو تشريد.

ونحن نعلم أن الرصافى قد رأى بعينيه ما كان يصيب المسجونين من أذى واضطهاد، ومن ذل وعذاب فى سجن بغداد. بيد أنه مع ذلك، لم يبال أن يسجن معهم ويلقى فى غياهب هذا السجن الرهيب، الذى وصفه ووصف المسجونين فيه، أبلغ وصف وأروعه.

ان الرصافى قد حدثنا كيف دخل هذا السجن فقال (كان له «أى مخلص بك» ولد يسمى رؤف، وكان موظفاً مع والده فى الجندرمة.. وقد زرت سجن بغداد يومئذ بواسطته. وهذه الزيارة أثرت (على) تأثيراً كبيراً وقد الهجتنى هذه القصيدة[1] التى هى تصوير حقيقة ما شاهدته فى السجن[2]).

يقول فى وصف هذا السجن:

هى الساحة النكراء فيها تلاعبت ... مخاريق ضيم تخلط الجد باللدد
ثلاثون مترا فى جدار يحيطها ... بسمك زهاء العشر فى الجو مصعد
تواصلت الأحزان فى جنباتها ... بحيث متى يبل الأسى يتجدد
تصعد فى جوف المراحيض فوقها ... بخار إذا مر به الريح تفسد

ويمضى الرصافى واصفاً حالة المسجونين:

بها كل مخطوم الخشام مذلل ... متى قيد مجروراً إلى الضيم ينقد
يبيت بها والهم ملء أهابه ... بليلة منبول الحشا غير مقصد
يبيت باعباء الهوان مقيداً ... ويكفيه ان لو كان غير مقيد
وتقذفهم تلك القبور بضغطها ... عليهم لحر الساحة المتوقد
فيرجع بعض من حصير ظلاله ... ويجلس فيها جلسة المتعبد
وليست تقيه الحر إلا تعلة ... لنفس خلت من صبرها المتبدد

القصيدة..

(١) يقصد قصيدته (السجن فى بغداد) الديوان ص٤٢
(٢) مجلة الثقافة الجديدة العدد ١ نيسان (أبريل) سنة ١٩٥٤

نقول على الرغم من أن الرصافى كان قد شاهد بنفسه كل هذه المناظر المحزنة والمؤلمة، وعلى الرغم من أنه كان قد شاهد المسجونين وهم يعيشون فى ضيم مابعده ضيم، وخسف مابعده خسف، ورأى كيف تهدر الإنسانية فى هذا السجن الفظيع الرهيب، إلا أن ذلك كله لم يفت فى عضده، ولم يثنه عن المطالبة بالاصلاح لبلده، ولم يصرفه عن مهاجمة السلطان عبد الحميد، واتهامه بالظلم والجور والاستبداد، بل يطلق صرخته المدوية:

على أى حكم أم لاية حكمة ... ببغداد ضاع الحق من غير منشد
نهوضاً نهوضاً أيها القوم للعلى ... لتبنوا لكم بنيان مجد موطد
أفى كل يوم يزحف الدهر نحونا ... بجند من الخطب الجليل مجند
فيا رب نفس عن كروب عظيمة ... ويارب خفف من عذاب مشدد

وإذا أردنا أن نعرف إلى أى مدى وصلت إليه شجاعة الرصافى وجرأته، علينا أن نقارن بينه وبين غيره من الأدباء والساسة وطلاب الإصلاح، من رجال العرب وغيرهم. ففى الوقت الذى بدأ هؤلاء جميعاً يجهرون بدعوتهم، والروح الإصلاحية يطلبونها من السلطان عبد الحميد، نجدهم قد حملوا دعوتهم الإصلاحية هذه خارج البلاد العثمانية[1]، والتجأ معظمهم إلى مصر، التى وان كانت تشعر بالعطف على السلطان وتشفق عليه، إلا أنها لم تكن خاضعة لنفوذه وسلطانه، فى حين نجد الرصافى، وهو الرجل الشجاع، يأبى أن يطلق صرخاته الثورية هذه، ويطالب بخلع السلطان عبد الحميد، إلا فى أرض المعركة، أرض العراق التابعة للسلطنة العثمانية، بل نجده وقد حمل هذه الثورة بكل قوة وجرأة إلى الاستانة نفسها، عاصمة عبد الحميد، بدلا من أن يحملها إلى خارج هذه السلطنة كما فعل غيره.

وقبل أن ننتهى من هذا الموضوع، نرى لزاما علينا أن نذكر ونؤكد، أن الرصافى حينما كان يهاجم السلطان عبد الحميد، فإنه كان يطالب بخلعه فقط، وإنه كان ينادى بوجوب إصلاح مرافق الدولة، وشئون الرعية، فى السلطنة العثمانية، ومن ضمنها العراق،

(١) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث تأليف الاستاذ أنيس المقدسى ج ١ ص ٢٢ (الطبعة الاولى).

إذ لم يكن من رأيه، كما كان من رأى غيره، أن هذا الاصلاح المنشود لايتم ولا يتحقق إلا بهدم كيان هذه الدولة الواسعة، أو وضعها تحت مراقبة الدول الأجنبية وأشرافها .

وإذا كانت (الرهبة من الاستبداد ، أو الرغبة فى جر المغانم ، كانتا قبل العهد الدستورى ، من أهم الدواعى إلى شيوع النزعة العثمانية فى الأدب العربى[1]) فليس الأمر كذلك بالنسبة لشاعرنا معروف الرصافى .

ذلك لأننا رأيناه وعرفناه كيف كان جريئاً شديد الجرأة على عبد الحميد وسياسته التعسفية ، وكيف كان موقفه من هذا الفساد الضارب أطنابه فى أرجاء البلاد العثمانية .

هذا من جهة . .

ومن جهة أخرى، فعلى الرغم من أن الرصافى كان عظيم الولاء للسلطنة العثمانية ، شديد التمسك بها،على اعتبارأنها حامية حمى المسلمين، إلا أنه فى نفس الوقت، كان ينافح فى سبيل حقوق الأمة العربية، ويدافع عن قضاياها ، ويناصر كل دعوة تنادى بوجوب اصلاح شأن العرب . وهذا ما سنعرض له بالتفصيل عند حديثنا عن القومية العربية فى أدبه .

إذن ، وبناء على هذا ، لا الرهبة من الاستبداد ، ولا الرغبه فى جر المغانم ، كانتا السببين فى شيوع النزعة العثمانية فى أدب الرصافى ، قبل العهد الدستورى ، بل وبعده كذلك ، كما سنرى .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠

الفصل الثانى

إعلان الدستور وخلع السلطان عبد الحميد

لقد بينا فى الفصل السابق ، كيف جاء السلطان عبد الحميد إلى الحكم . وكيف واجهته بعض المصاعب الداخلية والخارجية عند مجيئه إلى هذا الحكم . وذكرنا المساوىء الداخلية التى ورثها عن أسلافه من سلاطين آل عثمان : ثم عرضنا لكل من الحربين اللتين قامتا بينه وبين روسيا ، ثم بينه وبين الأرمن ، واللتين كانتا سببين كبيرين فى إضعاف ملكه وسلطانه ، منذ السنين الأولى لبداية حكمه الذى استمر ثلاثة وثلاثين عاما .

هذا ، وقد ظلت عوامل الضعف والفساد هذه تنخر فى جسم السلطنة العثمانية غير وانية ولا مستضعفة ، سواء فى الميدانين الخارجى أو الداخلى .

ففى مستهل عام ١٩٠٨ ، بلغت الأحوال فى الامبراطورية العثمانية غايتها فى السوء . فتمزقت أوصالها ، وتشتت شمل بلدانها التى كانت واقعة تحت سيطرتها ونفوذها .

فمن قبل هذا التاريخ ، استولت النمسا على البوسنة والهرسك . واحتلت روسيا مقاطعة القارص وباطوم وأردهان . وسطت اليونان على تساليا . كما أنزلت بريطانيا جيوشها فى قبرص ومصر فسيطرت عليهما . واستقلت كل من رومانيا والصرب والجبل الأسود وبلغاريا وكريت . وتدفق الجنود الفرنسيون على تونس فطردوا منها العثمانيين[1] .

أما الوضع فى الداخل ، فقد استمر على ما هو عليه ، إلى أن بلغ حداً لايطاق من العفن والفساد والاضطراب . . مما أوجد سخطا عاما بين أبناء الجامعة العثمانية ورعاياها ، وانتشرت بينهم موجات عارمة من التذمر والتشكك فى إصلاح الأمور . واتجه الأحرار منهم إلى تكوين جمعيات سرية وعلنية ، داخل البلاد وخارجها ،

---

(١) فى غمرة النضال — مذكرات سليمان فيضى ص ٦٠

غايتها القضاء على الاستبداد الحميدى ، وإحلال العدل والحرية والمساواة ، محل الظلم والجور والفساد .

وفى الحق ، إن السلطان عبد الحميد كان قد بذل بعض المحاولات لإصلاح ما كان فاسداً ، وحاول أن ينهض بامبراطوريته ، ويبعثها من جديد . فأخذ يشجع العلم بواسطة فتح المدارس . وكذلك اهتم بطرق المواصلات ، فمنح امتيازات عدة لبناء خطوط السكك الحديدية . وفكر بإنشاء قوة من الدرك للمحافة على الأمن والنظام ،واستحداث نظام جديد للضرائب . كما أنه قد ضرب من نفسه مثلا للاقتصاد الوطنى ، وذلك بعد أن فرض على الدولة العثمانية غرامة قدرها ٣٠٠ مليون فرنك على أن تدفع إلى روسيا بعد الحرب الروسية التركية . . (فكان يلبس دائما نفس الجبة السوداء الخالية من الزخارف . ويأمر بإعداد طعام متواضع من اللبن والخضار والبيض. لقد أصدر أوامره المشددة بمنع الافراط فى تحضير الأطعمة الملكية ، بينما كان فائض الأطعمة، وفتات الموائد، يكفيان فى الماضى لاطعام حى من أحياء القسطنطينية بأكمله . وقد رفض السلطان باباء أن يقدم عشرات الآلاف من الجنيهات للانفاق على حفلات ختان أولاده ، أو زواج بناته ، بينما كانت تبتلع هذه الاحتفالات فى الماضى مئات الألوف[1]) .

ولكن يبدو أن هذه الاصلاحات التى قام بها عبد الحميد ، أو التى حاول القيام بها ، كانت تجرى بين فترات متباعدة ، مما أكسبها جانب الضعف بالنسبة لقوة عوامل الفساد التى تنخر فى جسم الامبراطورية العثمانية .

ومهما يكن من أمر ، فإن جهوده فى إصلاح شئون الامبراطورية الواسعة ، والنهوض بها ، قد ذهبت أدراج الرياح . ولم يستطع ، وهو الرجل الفرد ، أن يحقق ما كان يحلم به رعاياه من إصلاح شامل فى جميع مرافق الدولة .

وكانت الثورة الفرنسية قد ارتفعت بأوربا ارتفاعا شاهقا ، كان بود السلطان الارتفاع إلى هذا المستوى الأوربى . ولكن قلة الموارد المالية ، وخوف السلطان من ازدياد نفوذ الشعب ، جعلاه يتردد كثيرا فى أخذ رعاياه إلى المستوى الأوربى .

---

(١) راجع الإصلاحات التى قام بها عبد الحميد فى كتاب عبد الحميد ظل الله على الأرض تأليف ألما وتلن ترجمة راسم رشدى ص ١١٥ ومابعدها ، دار النيل للطباعة ١٩٥٠ .

ومن أجل فشله فى ذلك ، كره الغرب كرها شديدا ، وكره المادة من أجل الغرب . لذلك اتجه اتجاها روحيا ، نبذ فيه المذهب المادى ، ودعا إلى (الجامعة الإسلامية) وتمسك بها ، وعمل لها[1] .

على أن المستنيرين من رجال تركيا ، لم يكن ليطمئنهم هذا الاتجاه الجديد الذى دعا إليه عبد الحميد . وكانوا قد تشبعوا بمبادئ الثورة الفرنسية ، وتعاليم جان جاك روسو وفولتير . فتولدت فى نفوسهم حركات تحررية تنادى بوجوب إصلاح الأمبراطورية على الشعارات المعروفة (العدل — الأخاء — المساواة) . فتألفت جمعية (الاتحاد والترقى) التى تضم الساخطين على سياسة عبد الحميد وتعسفه . وقد أجبروا السلطان على قبول الدستور يوم ٢٤ يوليه (تموز) ، ثم تبعه افتتاح البرلمان يوم ١٧ ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٠٨ .

بيد أن السلطان الذى قبل أن يكون فى جانب جماعة الاتحاد والترقى ، عاد وأخذ يعمل ضدها . فأسس هيئة جديدة تحمل اسم (الجمعيه الإسلامية) وكان على اتصال بها . . (وقد كانت هذه الجمعية التى تحمل الصبغه الدينية فى الظاهر ، غرضها الحقيق مقاومة تركيا الفتاة[2]) .

وفى نفس الوقت ، ظلت عناصر الشغب والقتل مسيطرة على القسطنطينية والمقاطعات الأخرى ، وتعمل جاهدة على خلق الفوضى والاضطراب ما وسعها إلى ذلك من سبيل . إلى أن تحرك جيش من (سلانيك) بقيادة محمود شوكت باشا ، قائد حامية مقدونيا ، إلى القسطنطينية ، لإقرار النظام فى العاصمة أول الأمر ، إذ لم يكن يفكر بخلع السلطان ، ولكن سرعان ما تحول التيار ضده . . . فقوى الرأى بوجوب تنحيته عن العرش[3] .

وهكذا كان . . .

ونفى السلطان عبد الحميد إلى سلانيك ، التى كانت مقر حركة تركيا الفتاة ، فى يوم

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٠ .
(٢) المصدر السابق ص١٩٣
(٣) المصدر السابق ١٩٣ .

٢٨ أبريل (نيسان) سنة ١٩٠٩ ، وأجلسوا أخاه محمد رشاد على العرش بدلا منه .

لقد كان إعلان الدستور يوم ٢٤ يولية (تموز) حدثا عظيما فى تاريخ الخلافة العثمانية . إذ سرت لإعلانه موجه طاغية من الفرح والسرور والاستبشار ، لأنه كان يعنى — وهذا ظن الناس به فى ذلك الوقت — بداية عهد جديد من الحرية والأخاء والمساواة والعدل ، وزوال عهد كان قائما على الذل والظلم والإستبداد .

يقول الأستاذ أنيس المقدسى متحدثا عن أثر إعلان الدستور فى نفوس العثمانيين فى كتابه القيم « الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث » ما يلى :

(وباعلان الدستور سرت فى نفوس العثمانيين عموما ، وأبناء العربية خصوصا ، نشوة حبور لم يعهد لها مثيل . فعقدوا الحفلات الباهرة فى الوطن وفى المهاجر ، وأنبرى خطباؤهم وشعراؤهم يشيدون بحسنات الانقلاب وأعمال القائمين به . ولا نبالغ إذا قلنا إنه ما من حدث حرك الأقلام العربية كهذا الحدث العظيم ، فقولنا قول من شهد بعينه تلك الحال ، وعرف باختباره شعور الناس ، وشاركهم فى غبطتهم العامة ، وآمالهم الواسعة[1]) .

والأب لويس شيخو ، هو الآخر ، يصف لنا الإنعكاسات التى ظهرت على أثر إعلان الدستور ويقول : (أعلن الدستور العثمانى بعد فوز الحزب العسكرى فى الاستانة فى ٢٤ تموز سنة ١٩٠٨ ، فكان لهذا النبأ فرح شمل عموم الرعايا فى تركيا ، واستبشر به الجميع خيراً ، وشعر الناس كأن حملا باهظا سقط من كواهلهم ، أو حلت عنهم ربقة الاستعباد ، وكسرت أغلال أسرهم . فانطلقت الألسنة بالمديح ، وشحذت الأذهان بالقريض ، فضاقت صفحات الجرائد عن استيعاب ما تنتج به القرائح من الفصول الشائقة ، والقصائد الرنانة الرائقة[2]) .

أما العراق فقد جرى فيه ماجرى فى غيره من الأقطار العثمانية الأخرى ، فقد عمت

(١) الجزء الأول ص ٣٤ ، الطبعة الأولى .

(٢) تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ص ٣٧ ، ٣٨ طبع فى مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٢٦ .

الناس نشوى إعلان الدستور ، وأسكرتهم تباشير الغد الجديد ، بعد أن وردت البرقيات إلى العراق تزف إعلان هـذا الدستور ، وكان ذلك فى عهد الوالى حازم بك .

يقول صاحب كتاب مختصر تاريخ بغداد : (فلاق البغداديون ذلك الأمر بالفرح ، وأقاموا مظاهرات السرور[1]) .

وقد رسم لنا الزهاوى يومئذ صورة لبغداد تعد مثالا صادقاً لجميع المدن العثمانية . قال:

وقفت والعين تبكى من مسرتها ... أمام شعب من الأفراح عجاج
أمام بحر من الأفكار مضطرب ... أمام جيش من الأصوات رجراج
إن الشعوب إذا هاجت عواطفها ... كالبحر يضرب أمواجاً بأمواج[2]

ولا غرو ، فإن حدثا عظيما كإعلان الدستور ، الذى كان ينتظره الناس بشوق ولهفة ، لأنه الحرية التى يعتنقها كافة الناس ، سيقع من نفس الرصافى موقعاً حسنا ، وينال منه الرضى والقبول ، وهو الذى طالما نادى بالعدل والاخاء والمساواة ، هذه المبادىء الثلاثة السامية التى من أجلها أجبر السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور .

يقول الرصافى فى قصيدته (تموز الحرية[3]) .

أكرم بتموز شهراً إن عاشره ... قد كان للشرق تكريماً وتعزيزا
شهر به الناس قد أضحت محررة ... من رق من كان يقفو أثر جنكيزا
سل أهل باريز عن تموز تلق لهم ... يوماً به كان مشهوداً لباريزا
كانت لهم فيه لما ثار ثائرهم ... بسالة هـدت البستيل مبزوزا
وأن تمـوز شهر قام فيه لنـا ... على البقاع لواء العز مركوزا
فى شهر تموز صادفنا لما وعدت ... بيض الصوارم بالدستور تنجيزا
هى المساواة عمتنا فما تركت ... فضلا لبعض على بعض وتميزا
أمست لنا قسمة بالملك عادلة ... حكما وكانت على علاتها ضيزى

(١) ص ٢٧٤ ، مطبعة الفرات بغداد ١٩٢٦ .

(٢) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث للأستاذ أنيس المقدس ج ١ ص ٣٤ ، الطبعة الأولى .

(٣) الديوان ص ٣٩٠ .

بيد أن نظرة الرصافى إلى إعلان الدستور ، تختلف عن نظرة الشعراء الآخرين إليه ، وخاصة شعراء مصر ، مثل أحمد شوقى وحافظ ابراهيم وغيرهما . إن هؤلاء الشعراء جميعاً كانوا يقرنون إعلان الدستور العثمانى بالثناء على السلطان عبد الحميد ، داعين إلى الالتفاف حول عرشه ، طالبين حمايته ، على اعتبار أنه هو الذى أعلنه ومنحه للناس ، فكأنه فضل وهبة منه . ولهذا فإن القصائد (الدستورية) التى نظمها هؤلاء الشعراء كانت كلها فى مدح السلطان عبد الحميد .

من ذلك قصيدة شوقى التى مطلعها[1] .

بشرى البريه قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها

وفيها يقول :

أسدى إلينا أمير المؤمنين يدا جلت كما جل فى الأملاك مسديها
وليس مستعظماً فضل ولا كرم من صاحب السكة الكبرى ومنشيها
إن الندى والرضى فيه وأسرته والله للخير هاديه وهاديها
خلافة الله فى أحضان دولتهم شاب الزمان وما شابت نواصيها
حقنت عند مناداة الجيوش بها دم البرية ارضاء لباريها

القصيدة . . .

ومثلها قصيدة حافظ ابراهيم « تحية الإخلاص[2] » التى يستهلها بقوله :

أثنى الحجيج عليك والحرمان وأجل عيد جلوسك الثقلان
أرضيت ربك إذ جعلت طريقه أمناً وفزت بنعمة الرضوان
وجمعت بالدستور حولك أمة شتى المذاهب جمة الأضغان
ثلجت صدورهم وقر قرارهم لما حلفت بأوثق الايمان
يا يوم عاد النازحون لأرضهم يتسابقون لرؤية الأوطان
لله كم أطفأت من نار ذكت دهراً وكم هدأت من أشجان

فى حين أن الرصافى كان يرى أن الشعب المظلوم المستعبد القوى الجبار هو الذى

(١) الديوان (الشوقيات) ج ١ ص ٣٥٨ .
(٢) الديوان : ج ١ ص ٢١ طبع عام ١٩٢٢ .

أجبر السلطان عبد الحميد على إعلانه بعد ثورته العارمة عليه . وبدلا من أن يكيل الرصافى المديح لعبد الحميد ، استمر — على عادته — بالنيل منه ، والتنديد به ، وما انفك يصفه بأنه الظالم الطاغى ، ويصف حكمه بالظلم والقسوة والاستبداد ، وأنه شبيه بحكم جنكيز خان الذى رق الناس واستعبدهم .

يقول الرصافى :

حتى نهضنا إلى العليا تقدمنا عصابة برزت فى المجد تبريزا
إن تلقهم تلق منهم فى الوغى جبلا أوهجتهم للمنايا هجت راموزا
قوم إذا طعموا فى حومة تخذوا قصاعهم من قحوف القوم لا الشيزى
قمنا على الملك الجبار نفرعه بالسيف منصلتا والرمح مهزوزا
حتى تركناه فى هيجاء معضلة ألقت ضراما على الطاغين مأزوزا
إنا لنأبى على الطاغى تهضمنا حتى نهوز فى الهيجاء تهويزا
ونأكل الموت دون العز نمضغه كمضغنا التمر برنياً ومهريزا
لا عاش من لا يخوض الموت مرتضيا بقاءه بعصى الذل موكوزا

القصيدة . . .

ومن ثم . .

فإن الرصافى وإن استبشر بالدستور ، وبالعهد الجديد ، فإنه لم يغتر به كثيرا ، لما كان يحس ويشعر برغبة عبد الحميد على الاستمرار والمضى فى سياسته التعسفية الرجعية .

ولهذا نادى بسقوطه . . .

إن الرصافى هو الشاعر الوحيد الذى طالب بخلع السلطان عبد الحميد بعد إعلان الدستور مباشرة[1] .

بل إن الرصافى كان قد طالب بخلعه قبل إعلان الدستور ، وأعان رأيه هذا

(١) راجع تاريخ آداب اللغة العربية فى القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو — الجزء الثالث ص ٣٧ — ٣٨ ، تحت موضوع ، الآداب العربية من ١٩٠٨ — ١٩١٨ ، طبع مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٢٦ .

صراحة فى قصيدته المشهورة (رقية الصريع[1]) ، والتى نادى فيها بقيام حكم جمهورى ، وسقوط الملكية .

يقول الرصافى فى هذه القصيدة :

أبت السياسة أن تدوم حكومة ... خصت برأى مقدس من لم يسأل
مَثَلُ الحكومة تستبد بحكمها ... مَثَلُ البناء على نقا متهيل
يا أمة رقدت فطال رقادها ... هبى وفى أمر الملوك تأملى
أيكون ظل الله تارك حكمه الا ... منصوص فى آى الكتاب المنزل
أم هل يكون خليفة لرسوله ... من حاد عن هدى النبى المرسل
تلك الخلافة لا خلافة مثلها ... حقا فهل هو من صحيح تعقل
إن الحكومة وهى جمهورية ... كشفت عماية قلب كل مضلل

وبعد ذلك يبين الرصافى مزايا الحكم الجمهورى فيقول :

سارت إلى نجح العباد بسيرة ... أبدت لهم حمق الزمان الأول
فسموا إلى أوج العلاء ونحن لم ... نبرح نسوج إلى الحضيض الأسفل
حتى استقلوا كالكواكب فوقنا ... تجلو الظلام بنورها المتهلل
وعلوا بحيث إذا شخصنا نحوهم ... من تحتهم ضحكوا علينا من عل

القصيدة . . .

ذلك أن الرصافى ، بعد إعلان الدستور ، لم يكن فى قصائده الدستورية سريعاً إلى الصفح عن مساوىء عبد الحميد . بل ظل يندد به ، ويعدد مساوئه ما وسعه إلى ذلك من سبيل ، ويدعو إلى خلعه . حتى تم له ذلك ، وهذا غاية ما يتمناه الرصافى ويبتغيه

ولما زحف جيش الثورة من سلانيك إلى الآستانة ، بقيادة محمود شوكت باشا ، أستخفه الطرب ، وأمتلأت نفسه زهوا ومرحاً واستبشارا بهذا اليوم الموعود ، اليوم الذى سيطرد فيه عبد الحميد من عرش ملكوته وجبروته .

(١) الديوان ص ١٦٢ .

والرصافى كان فى سلانيك عند ما زحف الجيش منها متوجها نحو الاستانة ، ولذلك فهو يصف لنا هذا الزحف المقدس ، وصفاً دقيقاً لطيفا ، فى قصيدته (فى سلانيك[1]) ، ويظل يلاحق هذا الجيش إلى أن دخل القسطنطينية ويقول :

أتينا دار قسطنطين صبحا ... وقد فتحت لهم فتحا مبينا
وظل الجيش جيش الله يشفى ... بحد سيوفه الداء الدفينا
فأزهق أنفس الطاغين حتى ... سقاهم من عدالته المنونا
ورد الخائنين إلى جزاء ... أحلهم المقابر والسجونا
وحطوا قصر يلدز عن سماء ... له فانحط أسفل سافلينا

ويلتفت الرصافى بعد ذلك إلى عبد الحميد ، ويقول عنه :

لقد نقض اليمين وخان فيها ... فذاق جزاء من نقض اليمينا
وقد كانت به البلدان تشقى ... شقاء من تجبره مهينا
فكم أذكى بها نيران ظلم ... وكم من أهلها قتل المئينا
وكان يدبر من سفه رحاها ... بجهجة ولم يرها طحينا
وقد كانت به الأيام تمضى ... شهوراً والشهور مضت سنينا

(١) الديوان ص ٣٨٤ .

الفصل الثالث

الرصافى والاتحاديون

وعند ما آل الحكم إلى محمد رشاد ، أخى السلطان عبد الحميد ، بناء على رغبة الثائرين الزاحفين من سلانيك إلى الاستانة ، وتنفيذا لأوامرهم ومشيئتهم ، انصرف الاتحاديون بالحكم ، وتصرفوا فيه ، واستأثروا بالسلطة من دونه ، لأنه كان ضعيفا ومترددا وطاعنا فى السن . وفوق هذا وذاك ، فإنهم هم الذين جاءوا به إلى الحكم ، وأجلسوه على عرش الخلافة العثمانية .

وهكذا صار رجال جمعية الاتحاد والترقى محور السياسة العثمانية الجديدة مدة تقرب من خمسة أعوام ، وهى الأعوام التى سبقت الحرب العالمية الأولى ، ما عدا فترات قليلة تولى فيها السلطة حزب آخر ، وهو حزب الائتلاف ، وكان قد تألف بعد أن اشتط الإتحاديون بالحكم ، وأساءوا التصرف فيه ، وخرجوا عن مبادئ الثورة التى كانوا قد رسموها من قبل ، وأعلنوها صريحة واضحة على رءوس الأشهاد .

وإذا كان الرصافى من أشد الناقمين والساخطين والثائرين على سياسة السلطان عبد الحميد ، كما بينا من قبل ، فإنه الآن من أشد أنصار العهد الجديد ، وأعظم الداعين إلى الالتفاف حوله ، وأكثر المدافعين عنه شدة وحماسا ، على الرغم مما قد قاموا به من سىء الأعمال تجاه رعاياهم العثمانيين ، وعلى الرغم من السلوك المشين الذى بدأوا يتبعونه فى إدارة ملكهم الجديد .

فلقد خيل إلى الناس ، فى أول الأمر ، أن عهدا جديدا من العدل والمساواة والحرية يوشك أن ينشر نوره على الناس جميعا على اختلاف عناصرهم وأجناسهم ومشاربهم ، وأن عهدا جديدا من الأمن والرخاء والسعادة والرفاهية سيعمهم بعد ليل طويل حالك الظلام كان يلفهم بقسوة ووحشية . ولكن سرعان ما تبددت أحلام الناس وتصوراتهم وأمانيهم ، وإذا العهد الجديد هذا لا يختلف عن سابقه فى شىء ، إن لم يكن أسوأ منه بكثير ، وإذا الحكام الذين يحكمون الدولة الآن قد

تعددوا وتعددت مشاربهم ونزعاتهم ورغائبهم ، وإذا بالوطن الذى كان يحكمه بالأمس فرد واحد ، وهو عبد الحميد ، قد أصبح اليوم يحكمه ألف عبد الحميد .

ولقد سعى الاتحاديون وراء المال حلالا وحراما ، حتى يستطيعوا أن يسدوا نفقات الحياة الجديدة بعد أن ارتقوا إلى أعلى المناصب وأسماها فى الدولة . فبدأوا يساومون رجال العهد البائد لاخراجهم من السجون مقابل اعطائهم أموالا جسيمة ، كما استهوتهم تلك النفائس والمجوهرات والخزائن التى كانت تملأ قصر يلدز ، فنهبوها واستحلوها لأنفسهم .

ولذلك ، فإن مما يؤاخذ به الرصافى ويلام عليه ، هو سكوته عن كثير من تصرفات الاتحاديين البغيضة ، إذ لم نعد نسمع منه ذلك التقريع الشديد ، واللوم العنيف ، للعهد الجديد ، وللمسئولين الجدد ، عما اقترفوه من آثام وهم فى دست الحكم ، كما كنا نسمع منه ذلك أيام عبد الحميد ، حينما رأى فيه الرصافى رجلا لا يصلح للحكم ، هذا مع العلم أن الحال لم تتبدل أو تتغير ، بل إنها ازدادت سوءا بعد سوء ، واضطرابا فوق اضطراب .

وهناك دلائل كثيرة لهذا الولاء ، منها قصيدته التى رثى فيها محمود شوكت باشا[1] الذى اغتيل بأيدى الاتحاديين ، وقد عرفناه من قبل ، حينما قاد الجيش من سلانيك إلى الأستانة ، وأجبر السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور ، وصار فيما بعد صدرا أعظم ، إذ لم يتعرض الرصافى لهؤلاء القتلة بالذم أو التقريع ، بل إن كل ما أجاز لنفسه أن يعمله ، أنه استنكر قتله ، لأنه رأى فى فقده خسرانا للأمة العلية التى سعى إلى رقيها ، وبذل الجهد الجهيد لإعلاء كلمتها ، فهى ، والحالة هذه ، كمن تفقد الغيث فى الزمن الصلد . ونحن إذا مضينا فى قراءة هذه القصيدة وتتبعناها بيتا بعد بيت ، وكلمة وراء كلمة ، لم نجد فيها ذكرا لهؤلاء الذين اغتالوه ظلما وغدرا ، بل أعرض عنهم ، كما أعرض عن فعلتهم الذميمة هذه ، وهو بعد ذلك كله ، يطلب إليهم الهداية حتى يتوصلوا إلى

---

(١) وعنوانها (فى الملكوت الأعلى) انظر الديوان ص ٣٠٢ .

المجد والعزة والكرامة ، علماً بأنه ، أى المقتول ، كان عراقيا صميما ، وهو وإياه من بلد واحد ، وأخوته أصدقاء له .

كما وقف من الذين لم يسيروا فى ركابهم ، ويذعنوا لارادتهم ومشيئتهم ، موقف العداوة والبغضاء ، كما فعل مع الصدر الاعظم كامل باشا أول رئيس للوزارة بعد إعلان الدستور ، والذى لم يسمح لنفسه أن يسايرهم فى أعمالهم التى اشتطوا فيها ، وخرجوا عن إجماع الأمة ، فأوعزت جمعية الاتحاد والترقى إلى مجلس النواب بسحب الثقة من وزارته . فلما أعياه أمر الدفاع عن نفسه ، وكانوا قد استوضحوه لمخالفته الدستور ، استقال من منصبه ، وسقطت وزارته .

فى قصيدته (بعد الدستور[1]) التى يرسم فيها صورة الفرح والاستبشار اللذين عما الناس بعد إعلان الدستور ، وقد انتظره النـاس بشوق ولهفة ، لكى يقدم اليهم الحرية مصانة من تلاعب الحكام الطائشين والداخلين ، وينشر لواء العدالة والطمأنينة بينهم ، ويهىء لهم سبل العيش الرغيد ، والسعادة الحقة ، يقف الرصافى لمحاسبة الصدر الأعظم ، فيذكر كيف جاء إلى الحكم ، وكيف ناء بهذا الحكم ، وكيف أن الاتحاديين قد كشفوا عجزه عنه ، لفطنتهم وذكائهم ، فيقول :

تحمل أعباء الوزارة كامل ... فناء به ما لم يخف به وما خفا
طوى كشحه منها على غير لطفها ... وأظهر من وجه الخداع بها اللطفا
نحا أن يتم الدست فيها لحزبه ... علينا وظن الأمر فيما نحا يخفى
وقد فاته أنا أولو المعيـة ... بها نخطف الأسرار من قلبه خطفا
وأنا نرى من قد تأبط شره ... بعين تقد الابط أو تخلع الكتفا
لنـا فطنة ترمى الزمان بنورهـا ... فيبدو حجاب الغيث منه وقد شفا

ويمضى الرصافى فى إلقاء اللوم عليه ، متصورا ومصورا أنه قد قصر أشد التقصير إزاء الدستور ، مما أغضب الناس والذين أعلنوا الدستور :

(١) الديوان ص ١١٣ .

تربع فى صدر الوزارة كامل ... فخط من النقصان فى وجهها حرفا
وأنحى عليها بالجفاء مشتتا ... نجاحا بركنيها الركينين ماتفا
لقد أغضب الدستور فعلا ونية
ومن أعانوا الدستور والشعب والصحفا

ويشير بعد ذلك إلى كيفية استقالته فيقول :

قد استوضحوه الأمر والامر واضح ... فأعياه إيضاح الحقيقة فاستعفى
ولم يطلب الامهال إلا لأنه ... رأى عذره إن لم يطل سبكه زيفا
كذلك من صاغ الكلام ملفقا ... تمهل حينا يكثر الخط والحذفا
ومن قال حقا قاله عن بديهة ... ويحتاج للتفكير من موّه الخلفا

ومما لا شك فيه إن هذا التأييد لسياسة الاتحاديين ، هو الذى جعله فيما بعد ، يغض الطرف ، ويسكت سكوتا بغيظا عن تلك المجزرة التى راح ضحيتها واحد وعشرون عربيا ، مسلما ونصرانيا ، فى سبيل العروبة ، وفى سبيل قضية العرب ، على يد السفاح جمال باشا ، ولم يحرك ساكناً ، وهو الذى كان يردد على الدوام أنه قد نذر نفسه لخدمة أمته العربية ، علماً بأن هذا العمل الشنيع قد قوبل باشمئزاز واستنكار شديدين من قبل أغلب الناس .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا لا يعنى ، فى حال من الأحوال ، أن الرصافى كان لا ينتقد بعض أعمالهم ، ولا يفند كثيرا من تصرفاتهم ، خاصة إذا كانت هذه الأعمال والتصرفات مخالفة لمبادىء الدستور ، ومنافية للحق والعدالة . ولكن هذا الانتقاد ، وذاك التفنيد ، لم يتخذا طابع الهدم والتخريب ، بقدر ما كانا يتميزان بتوجيه النصح والإرشاد لهم . فهما أشبه بالنسيم الذى يجرى على صفحة النهر الهادىء فيزيد من تكسره وتموجه ، ولكن برفق وأناة ، وعطف وحنان . كما أنه كان يدلهم ، بين الحين والآخر ، على عمل كانوا قد قاموا به ، فأثار سخط الشعب وغضبه ، مثلما أثار سخطه وغضبه هو الآخر ليتجنبوه ، ويرشدهم إلى الأعمال التى تسعد الأمة ، ويذكرهم بأن المسئولية الملقاة على عاتقهم جسيمة ، وأنه يجب عدم التهاون إزاءها .

إن أصدق مثل لهذا الانتقاد، هو ما أودعه فى قصيدته (شكوى إلى الدستور[1])، حينما شكا إليه اعوجاج الاتحاديين وانحرافهم عن جادة العدل والحق ، اللذين تعشق لقاءها الناس ، وهتفوا لها من صميم قلوبهم ، موضحا له استئثارهم بالحكم دون الناس جميعاً ، ومبيناً له تلاعبهم بمقدرات هذا الشعب كيفما تحلو لهم مشاربهم ، وتستسيغ طباعهم .

يستهل الرصافى قصيدته ببيان شكاته هذه فيقول :

شكاية قلب بالأسى نابض العرق ... إلى قائم الدستور والعدل والحق
ملوك على كل الملوك ثلاثة ... لها الحكم دون الناس فى الفتق والرتق
فهل أيها الدستور تسمع شاكيا ... بك اليوم يرجو أن يرى نهضة الشرق
لقد جئت من أفق الصوارم طالعا ... علينا طلوع الشمس من منتهى الأفق
فصادفت منا أمة قد تعشقت ... لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
ولم تبد عنفا حين جئت وإنما ... هتفنا جميعا بالوفاق وبالرفق
وظلنا نرجى منك للخرق راقعا ... ولكن تراخى الأمر متسع الخرق

ويحاول الرصافى بعد ذلك أن يصدق الدستور القول ، فيصارحه بما يفعله الاتحاديون حيال الشعب ، ويلقى اللوم عليهم ، لأنهم صاروا سبب بعض شقائه وبلائه ، وكان من اللازم أن يكونوا علة إسعاده وهنائه ، لأنهم هم الذين ثاروا من أجلك — هكذا يخاطب الدستور — ليحلوك محل الهداية بدل الضلال ، محل العدالة بدل الجور ، محل النور بدل الظلام :

بك اليوم أشقانا الألى أنت مسعد ... لديهم فيالله للمسعد المشقى
تراك بأيديهم على الخلق حجة ... وأنت عليهم حجة لا على الخلق
قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به ... وسدوا على من حولهم منبع الرزق
كأنا لهم شاء فهم يحلبوننا ... وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزق
وهم يأخذون الزبد من بعد مخضها ... ولم يتركوا للساكنيها سوى المذق
أترضى بأن تختص بالحكم معشرا ... وتصبح للباقين حبرا على رق

ثم يتساءل عما استفاده الناس من إعلان الدستور غير تبديل الوزارات الواحدة

(١) الديوان ص ٣٩٩ .

بعد الأخرى . أما الوضع الداخلى للبلاد فقد بقى على ما هو عليه لم يتبدل ، ولم يتغير . وماذا يجدى تبديل هذه الوزارات إذا لم يتبعه تبديل فى الأوضاع الراهنة ، ويلحقه إصلاح جذرى لما قد استقر من مفاسد وسيئات كثيرة ؟ !

ولم نستفد إلا سقوط وزارة ... وتأليف أخرى مثل تلك بلا فرق
وما ضرهم لو أسقطوا نهج سيرهم ... وساروا بمنهاج التبصر والحذق
ألم يبصروا للعدل غير طريقهم ... فإن طريق العدل من أوضح الطرق
وماذا عسى يجدى سقوط وزارة ... إذا لم تقم أخرى على العدل والصدق

ويود الرصافى بعد ذلك لو أنه يصرح بأن الاتحاديين وراء هذه الوزارات جميعها ، وأنهم هم الذين يسيرونها حسب أهوائهم ورغائبهم ، ولكن دون ذكرهم ، والتعرض بهم ، يد خفية شدت لسانه ، وكمت فاه :

ولكن وراء الستر كف خفية ... تزحزح من شاء عن الأمر أو تبقى
ولولا يد شدت لسانى بنسعة ... لبحت بسر كالشجا هو فى حلقى

ويعود الرصافى من جديد فيخاطب الدستور جاعلا منه حكما يقضى بين الشعب وبين الحكومة ، ويبين له أن المطالب الأساسية التى يتطلع إليها الناس هى تحقيق العدالة والمساواة ، وضمان الحرية والأمن ، وتهيئة أسباب العيش الرغيد لجميع أفراد السلطنة على اختلاف مذاهبهم ومعتقداتهم وأجناسهم ، فإن هم استجابوا لهذه المطالب فمرحبا بهم ، وإلا فإن الحق سيناله أهله آخر الأمر مهما كلفهم الأمر :

فيا أيها الدستور فاقض بما ترى ... وأبرق ولكن لا تكن خلّب البرق
ولسنا نريد اليوم حكما عليهم ... ولكن نناديهم وندعو إلى الحق
تعالوا إلى أمر نساويه بيننا ... وبينكم فى الجل وفى الدق
فإن يفعلوا هذا فيامرحبا بهم ... وإلا فياسحق المعاند من سحق

ومن ناحية أخرى ، فإن الرصافى كان لا يألو جهداً فى توجيه النصائح لرجال الحكم ، داعيا إياهم إلى إصلاح أجهزة الدولة التى انتشر فيها الفساد ، وعمها الخراب ، وعشش فيها الجهل .

فى قصيدته (المجلس العمومى[1]) وهو المجلس الذى تم انعقاده بعد إعلان الدستور ، واستيلاء الاتحاديين على السلطة ، يدعو الرصافى إلى تحقيق العدالة بين الناس ، وإشاعة الطمأنينة بين ظهرانيهم ، بعد أن كان الخوف والفزع مسيطرين على حواسهم ومشاعرهم . وكانت الفوضى ضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها .

فهو الآن هنىء النفس ، قرير العين ، حينما يجد أنه :

قد أصبح الأمر شورى بيننا فبه ... على الرعية لا يستأثر الملك
وأصبح الناس فى قربى وإن بعدت ... أديانهم ما بهم حقد ولا حسك
هذا الذى جاءنا الدين الحنيف به ... وحياً من الله مبعوثاً به الملك
هذا به نهض الإسلام نهضته ... من قبل إذ قام يستولى ويمتلك

ويحثهم الرصافى على طلب المجد والرفعة ، ويبين لهم أن سبيل ذلك هو العلم ، والعلم وحده ، وأنه هو الذى رفع أوربا وسار بها خطوات حثيثة نحو التقدم والرقى . وهذه دعوة يكررها الرصافى فى كل زمان ومقام ، ولا يكل الحديث عنها . فهو قد آمن الإيمان كله ، بأن العلم هو طريق التقدم ، طريق النجاة والحياة :

هلا نظرتم لما فى الغرب من سنن ... كل به سائر طلقا ومنسلك
لم تلق للحق وجها فيه محتقراً ... ولم تجد حرمة للعلم تنتهك
فى الغرب أصوات علم يبعثون بها ... من فى القبور فهل فى سمعكم سكك

القصيدة . . .

وهكذا كان الدستور حياة هذه الأمة ، وهكذا أصبح المجلس العمومى الوسيلة الحقة لبلوغ هذه الحياة .

وعلى غرار هاتين القصيدتين فى توجيه النصائح والارشادات ، والحث على العمل فى سبيل الوطن ، قصيدته المعروفة (الوطن والأحزاب[2]) .

فليس بدعا ، والحاله هذه ، أن ينظر إليه الاتحاديون نظرة تقدير واحترام كبيرين ،

(١) الديوان ص ٣٩٢ .
(٢) الديوان ص ٤١١ .

مادام قد أيدهم ، وانتصر لهم فى كثير من القضايا ، ورضى عن سياستهم فى قيادة الدولة العثمانية ، فاتصلوا به ، وطلبوا إليه أن يرشح نفسه عن لواء (مديرية) المنتفق ، وهو أحد ألوية العراق المعروفة ، لتسهيل مهمة انتخابه عضوا فى مجلس المبعوثان التركى . وهكذا دخل الرصافى هذا المجلس فى عام ١٩١٢ وهو المجلس الثانى بعد إعلان الدستور ، وظل فيه حتى بعد انتهاء مدته عام ١٩١٦ ، إذ مددت مدته ، ولم يجر انتخاب مجدد[1] .

ولكنه ، على الرغم من أنه صار نائباً من نوابهم ، غير أنه لم ينتسب إلى جمعية الاتحاد والترقى ، كما أخبرنا هو بذلك[2] .

وكم نحن نتمنى لو اطلعنا على ما قاله الرصافى وناقشه فى مجلس المبعوثان ، لاستطعنا أن نضع أيدينا على أعظم مصدر من مصادر آرائه السياسية ، واتجاهاته الفكرية ، فى هذه الفترة بالذات ، ولتعرفنا على كثير من دقائق الحياة السياسية التى كانت تجرى فى الوطن التركى حينذاك ، ولكان بمقدورنا أيضاً أن نتعرف على مواقفه السياسية بصورة أوسع شمولا ، وأوضح دلالة ، وإن زعم أنه كثيراً ما كان يقف ضدهم فى بعض المسائل المعروضة ، ولكنه مع ذلك لم يخف تأييده لكثير من القضايا الأخرى ، مدار البحث والمناقشة والاستفتاء[3] .

وفى الحقيقة ، فإننا لم نستطع أن نتعرف على وجه الدقة ، وبوضوح ، على سبب هذا التأييد لرجال جمعية الاتحاد والترقى ، وسبب سكوته عن كثير من تصرفاتهم الخاطئة كما رأينا .

ترى ، هل أغراه المنصب الجديد على السكوت عن هذه التصرفات الخاطئة ؟ ! أم إنه سكت عن ذلك تقديراً لبطولاتهم ، وإجلالا لما قد قاموا به من إعلان الدستور ، وخلع السلطان عبد الحميد ، وعرفاناً منه بذلك ؟ ! أم إن ولاءه الصادق للدولة العثمانية هو الذى أجبره على ذلك ، باعتبارهم عثمانيين ، وأنه قد أيدهم ، وانتصر لهم ، لأنه يؤيد

(١) مجلة الثقافة الجديدة ، نيسان (أبريل) العدد الأول سنة ١٩٥٤ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .

العثمانيين وينتصر لهم ، خاصة وأن زوابع الخطر قد اقتربت منهم ، وحاقت بهم ، وأصبحت أحوال أوربا تنذر بحرب بين الغرب وآل عثمان . فالخطر فى هذا كله واقع على الإسلام والمسلمين .. والعثمانيون مهما كانوا ، فقد كانوا أيضاً سداً منيعاً لحفظ دولة المسلمين من غزو الغرب .

أما بعد . .

فإن دراستنا هذه، كما هو واضح ، مقتصرة على الوضع الداخلى للسياسة الجديدة ، وبيان موقف الرصافى من هذه الأحداث الداخلية التى استجدت بعد إعلان الدستور، وخلع السلطان عبد الحميد . أما خطتهم السياسية ، ومنهجهم التعسفى إزاء العرب ، فقد أغفلناها الآن ، لنتناولها بصورة أوسع وأشمل فى بابنا التالى ، حيث نتحدث به عن الثورة العربية

كما سنتناول تنازع شعوره الدينى ، وعاطفته القومية ، بين الولاء للدولة العثمانية ، والدعوة إلى القومية العربية التى تبغى ، أول ماتبغى ، إستقلال البلاد العربية ووحدتها ، فى بابنا الخاص الذى سنعقده للحديث عن القومية العربية فى أدبه .

الفصل الرابع

الثورة العربية الكبرى

وقبل أن نأتى على معرفة أدب الرصافى من الثورة العربية الكبرى ، نرى أنه من المفيد ، أن نبين بإيجاز ، الدوافع التى أدت إلى قيام هذه الثورة ، والأسس التى قامت عليها ، حتى نستطيع أن نتبين بدقة ووضوح ، الموقف الذى وقفه شاعرنا من هذه الثورة .

إن مما لا جدال فيه أن السياسة الخاطئة التى بدأ الاتحاديون السير بموجبها ، بعد توليهم الحكم ، تجاه العرب وقضاياهم ، كانت هى السبب المباشر فى اتساع الهوة بين العرب والأتراك ، والتى أدت بالتالى إلى قيام هذه الثورة .

وإذا أردنا أن نحدد هذه السياسة الخاطئة ، أمكننا حصرها فى ثلاث نقاط :

الأولى : سير الأتراك على السياسة العنصرية التى بدأوا يتبعونها فى علاقاتهم مع الأجناس والعناصر الأخرى الواقعة تحت سيطرتهم ونفوذهم ، واشتدادهم فى التأكيد على فكرة القومية التركية ، والدعوة إلى الجامعة الطورانية ، التى ترمى إلى وحدة الشعوب التى تنحدر من الأصل الطورانى الذى ينحدر منه الأتراك بدورهم .

وهم فى سبيل ذلك ، كانوا يمعنون (فى ادراج العناصر والأجناس المختلفة فى الدولة فى قومية واحدة يسودها الجنس التركى ، ولم يراع تطور الوعى القومى ونموه بين هذه العناصر والأجناس المختلفة . كما لم يراع رجال الثورة ممن انتهى إليهم حكم الدولة العثمانية هذا التطور الجديد ، وغلبت عليهم نزعة التعصب للجنس التركى ، وبرزت هذه النزعة واضحة فى الطريقة التى ساسوا بها انتخابات البرلمان الجديد . فقد عملوا على ترجيح الأغلبية للعناصر التركية ، سواء فى المجلس المنتخب ، أو المجلس المعين[1]) .

---

(١) السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط للدكتور حسين فوزى النجار ص ٣٠٧ (الطبعة الاولى) مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ .

ولا ريب أن مثل هذه النزعة لو لم تكن قد نشأت عن دوافع غير الاثرة ، ومبرأة من اضطهاد العناصر الأخرى (فإن الرغبة فى تجميد العنصر التركى ، ورفعه فوق العناصر الأخرى ، هى رغبة طبيعية فى ذاتها إذا ذكرنا أن الترك هم الذين أسسوا هذه الامبراطورية[1]) .

ولقد كان من نتيجة هذه النزعة (أنهم دبوا الذعر فى نفوس الأجناس الأخرى ولا سيما العرب ، فباتوا يعتقدون أن الدعوة إلى الوحدة العثمانية التى طلب منهم أن يقبلوها ويخلصوا لها ، إنما هى دعوة كاذبة ، وأن التفسير الوحيد الذى يمكن أن تفسر به هو حملهم على نبذ أمانيهم الفكرية العربية والسكوت على تتريكهم فى سبيل تحقيق تلك الوحدة[2]) .

الثانية : سيرهم على سياسة مركزية فى الحكم كانوا قد اهتدوا بها على ضوء عقائد الثورة الفرنسية ، واستعاروها منها كما استعاروا كثيرا من النظم والمبادئ . وبما أننا على علم بأن الدولة العثمانية كانت تجمع كثيراً من الأجناس والعناصر الاخرى غير التركية ، فإن ذلك كان يتطلب حكما لا مركزيا يعطى هذه الأجناس ، ومن بينهم العرب الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من سكان الدولة العثمانية[3] ، نصيبا وافرا من الحكم الذاتى ضمن الامبراطورية لرفع شأن البلاد ، وملاحظة نموها الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، ويتم ذلك تحت إشرافها ورعايتها . بيد أن السياسة التى سار عليها الإتحاديون كانت على العكس من ذلك تماما ، لأنهم راحوا يتبعون فى حكم الامبراطورية حكما مركزيا ، وينشدون بمختلف الطرق والوسائل إلى تقوية سيطرة الادارة المركزية . أما نتائج هذه السياسة فيشير إليها الأستاذ جورج انطونيوس فى كتابه القيم (يقظة العرب) ويقول: (وكان لابد لسعيهم إلى تقوية وحدة المملكة

(١) يقظة العرب تاليف جورج انطونيوس ، تعريب على حيدر الركابى ص ١١٤ مطبعة الترقى بدمشق ١٩٤٦

(٢) المصدر السابق ص ١١٤ .

(٣) ان عدد السكان فى المملكة العثمانية (باستثناء مصر)كان يبلغ الاثنين والعشرين مليونا فى عام ١٩٠٨ ، بينهم سبعة ملايين ونصف من الاتراك وعشرة ملايين ونصف من العرب ، بينما كانت الاربعة الباقية مؤلفة من اليونان والالبان والارمن والاكراد وغيرهم من العناصر الاخرى . (انظر يقظة العرب ص ١١١) .

على هذا الشكل من أن يصيبه الفشل . فإن الأعمال الخرقاء المثيرة التى قاموا بها تنفيذاً لسياستهم ، جعلت هذا الفشل واضحا ، كما زادت فى شدة الالم الذى ولدته[1]) .

الثالثة : أن الإتحاديين لم يكتفوا بذلك ، بل عمدوا إلى إلغاء جمعية (الآخاء العربى العثمانى) التى باركوا قيامها ، وحضروا الحفل الحماسى الذى جمع بين العرب والترك ، ولما تنقضى ثمانية أشهر على افتتاحها . وكان من نتيجة هذا الإلغاء أن دفع الزعماء العرب إلى العمل السرى لمقاومة حكم جمعية الاتحاد والترقى ، فتشكل عدد من الجمعيات السرية التى تعمل ضدها ،وصار فى نظر المتطرفين منهم ، أن حكمها أصبح حكما بغيضاً أكثر من الحكم الحميدى ، وأنه لا بد من الخلاص منه .

ولما اشتعلت نيران الحرب بين الحلفاء من جهة ، وألمانيا والنمسا من جهة أخرى ، ووقفت تركيا إلى جانب ألمانيا ، استصوب بعض الزعماء العرب خوض هذه الحرب ضد الدولة العثمانية ، لكى يتحرروا من نيرها إلى الابد . وعلى هذا الأساس قامت الثورة العربية ، يقودها الشريف حسين بن على ، شريف مكة فى ذلك الوقت .

ولم تبدأ هذه الثورة هكذا فجأة وبدون تدبير ، وإنما تقدمتها سلسلة من التدابير والمفاوضات بين الشريف حسين ، وبين بريطانيا ، لضمان نجاحها وبيان نتائجها ، نوجزها على الوجه الآتى :

بدأت هذه المفاوضات بسلسلة من المباحثات الشفهية وتبادل الرأى بين الامير عبد الله أحد أنجال حسين واللورد كتشنر ، المعتمد السامى البريطانى فى القاهرة ، حيث نقل له رغبة والده فى خوض حرب ضد الاتراك العثمانيين للخلاص من استعمارهم ، بشرط أن يضمن الحلفاء بعد انتصارهم وفوزهم إستقلال البلاد العربية ووحدتها . غير أن اللورد كتشنر لم يؤيد هذا المطلب ، أو يتعهد به ، وإنما اكتفى بالقول إن بريطانيا ستحمى هذه الاجزاء من العدوان .

ثم استقر رأى بعض الزعماء العرب بعد ذلك على أن يعلن الشريف حسين هذه الثورة وهو فى مكة ، بعد أن يكون قد فاوض بريطانيا من جديد للحصول على استقلال البلاد العربية ونيل حريتها ، كشرط أساسى لدخولهم الحرب بجانبهم ، وأيضاً وفق شروط أخرى معينة ، وهى تلك الشروط التى قدمت له من قبل الزعماء العرب بواسطة

(١) يقظة العرب ص ١١٥ . ترجمة على حيدر الركابى ، مطبعة الترقى بدمشق ١٩٤٦ .

الأمير فيصل عندما زار دمشق وهو فى طريق عودته من استامبول حينما ذهب إليها للتفاوض ظاهريا مع الباب العالى حول سلامة حياة والده المهددة من قبل والى الأتراك حينذاك فى الحجاز .

لقد كانت مطالب العرب هذه تتلخص فى اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالا — خط مرسين — أضنه حتى درجة ١٧ شمالا ، ومنها على امتداد خط بريجيك - أورفه — ماردين — مديات — جزيرة ابن عمر — عمادية — حتى حدود فارس .

جنوباً — المحيط الهندى (خلا عدن التى تحافظ على وضعها الحالى) .

غرباً — البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين .

إلغاء الامتيازات الأجنبية .

عقد تحالف دفاعى بين بريطانيا العظمى والدولة العربية المستقلة العتيدة .

منح بريطانيا الأفضلية فى الشئون الاقتصادية[1] .

هذه الشروط إذا ما تمت الموافقة عليها ، فإن الزعماء العرب مستعدون إستعدادا تاماً لتأييد ثورة عربية يعلنها شريف مكة .

غير أن هذه المباحثات قد توقفت بعد أن نقل اللورد كتشنر وزيراً للحربية بريطانيا .

ثم استؤنفت هذه المحادثات مرة أخرى ، حينما أرسل حسين مذكرته الأولى إلى السير هنرى ماكماهون الذى عين مندوبا ساميا لبريطانية فى القاهرة خلفا للورد كتشنر ، أوضحت الشروط التى يقبل العرب بموجبها أن يدخلوا الحرب ، وهى نفس هذه الشروط المعلنة (مع إضافة شرط واحد يتعلق بالخلافة وينص على وجوب اعتراف بريطانيا بالخليفة العربى فى حالة مبايعته[2]) .

(١) يقظة العرب — تأليف جورج انطونيوس — ترجمة على حيدر الركابى — ص ١٢٨ مطبعة الترقى بدمشق ١٩٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٦ .

غير أن هذه المذكرة الخطيرة التى طالبت باستقلال الدول العربية وتعيين حدودها ، لم تجد آذانا صاغية عند البريطانيين وممثلهم فى مصر السير هنرى ماكماهون . إذ رد عليه رداً فاترا مترددا خاصة فيما يتعلق بتعيين هذه الحدود ، بيد أنه من ناحية ثانية ، أكد مساعدته للشريف حسين للحصول على الخلافة التى كان قد طالب بها .

وفى المذكرة الثانية التى بعث بها ما كماهون للرد القاطع على رسالة حسين ، إعتذر فيها عن عدم رغبته سابقا فى بحث مسألة الحدود ، ولاعتقاده بعدم حلول الوقت المناسب لذلك .

أما وقد خولته الحكومة البريطانية ذلك الآن ، فإنه يؤكد تعهد بريطانيا بأن تعترف باستقلال البلاد العربية وتؤيده (وذلك فى نطاق حدوده التى عينها الشريف مع استثناء بعض أجزاء آسية الصغرى وسورية . وأورد تحفظا يتعلق ببعض الأقسام الواقعة ضمن هذه الحدود التى ترتبط بريطانيا العظمى فيها بمعاهدات عقدتها مع بعض أمرائها العرب .

أما الفقرات التى تحدد تعهدات بريطانيا والتحفظات التى ترافقها فى مذكرة ماكماهون فهى :

« إن مقاطعة مرسين والاسكندرون وكذلك أجزاء سورية الواقعة إلى غرب منطقة دمشق وحمص وحماة وحلب لايمكن اعتبارها عربية صرفة . ولهذا السبب وجب استثناؤها من التحديد المقترح . إننا نقبل بهذا التحديد مع مراعاة التعديل الموضح أعلاه على أن لا يؤثر ذلك فى المعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض أمراء العرب .

أما فيما يتعلق بالمناطق الواقعة ضمن الحدود المقترحة والتى تستطيع بريطانيا العظمى أن تعمل فيها دون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا ، فإنى مكلف باعطائكم التعهدات التالية باسم حكومة بريطانية العظمى ، وبأن أجيب على مذكرتكم بما يلى :

إن بريطانيا مستعدة للاعتراف باستقلال العرب وتأييده فى جميع المناطق الواقعة ضمن الحدود التى اقترحها شريف مكة مع مراعاة التعديلات المبينة أعلاه »[1]

(١) المصدر السابق ص ١٩٢ — ١٩٣

أما العراق فبالنظر إلى مطامع الانكليز فيه منذ زمن قديم ، كما رأينا فى باب سابق ، فليس من الأمر الهين أن تفرط فيه انكلترا ، لذلك لم تذكره ضمن هذه الدولة التى تعترف باستقلالها ، وإنما اكتفت بالقول أن تتعاون هى والعرب فى ذلك الجزء من الدولة العربية المستقلة[١] .

بيد أن الشريف حسين فى مذكرته الثالثة ، التى أرسلها إلى ما كماهون ، لم يوافقه بشأن اقتراحه الخاص بالعراق (ولكنه وافق أن تحتل بريطانيا بعد الحرب أجزاء العراق الواقعة فى هذا التاريخ (٥ نوفمبر) بيد البريطانيين ، شريطة أن يكون هذا الاحتلال مؤقتا ، وأن لا يفهم منه ساخ أية بقعة عربية ، على أن تقوم بريطانية لقاء ذلك بدفع إعانة مالية للدولة العربية العتيدة يتفق عليها فيما بعد ، لتكون بمثابة مساعدة لخزانتها فى عهد طفولتها[٢]) .

غير أنه ، من ناحية ثانية ، وافق على إخراج ولاية أضنه التى تضم ميناء مرسين من منطقة الاستقلال العربى (ولكنه رفض الموافقة على إخراج سورية الواقعة غرب مناطق دمشق وحمص وحماة وحلب محتجا بأنها خلافا لاضنه ومرسين ، بلاد عربية محضة كما لم يقبل باستثناء الاسكندرونه[٣]) .

وبالجملة ، فإن هذه المذكرات المتعلقة باعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية ، وتعيين حدودها ، هى أهم هذه المذكرات التى بلغ مجموعها ثمانى مذكرات .

وفى يوم ٥ يونيه (حزيران) عام ١٩١٦ ، أطلق الشريف حسين أول رصاصة من قصره ، معلنا بدء هذه الثورة ضد الاتراك لنيل حرية العرب واستقلالهم .

وبدأت ثورة العرب ضد المستعمرين العثمانيين . . ثورة على الظلم والاستعباد ، وثورة فى سبيل الحرية والاستقلال ، كما هو المفروض ، وإن شاب أحداثها ، كثير من الغموض والتساهل من قبل حسين باقتطاع بعض الاجزاء المهمة من الوطن العربى الكبير كما عرضنا الآن .

(١) المصدر السابق ص ١٩٣
(٢) المصدر السابق ص ١٩٤
(٣) المصدر السابق ص ١٩٤

فهل وقف الرصافى إلى جانبها ؟ هل أيدها ؟ هل دعا العرب جميعاً إلى الانضمام تحت لواء قائدها الشريف حسين ؟

إن جوابنا على هذا هو النفى .

ونؤكد فنقول :

إن الرصافى لم يؤيد الثورة ، ولم يدع العرب إلى الانضمام فى صفوف المقاتلين ، وإنما هو قد استنفر العرب والمسلمين قاطبة للوقوف إلى جانب تركيا ، والتطوع فى صفوفها .

وله فى هذا الموضوع قصيدة مستقلة مشهوررة عنوانها (الوطن والجهاد[١]) قالها — كما جاء فى الديوان — عند دخول الدولة العثمانية فى الحرب العامة الكبرى ، يستنهض المسلمين إلى الجهاد فى سبيل الذود عن الوطن . ولا ريب أن البيت الأول من هذه القصيدة واضح الدلالة فى تقسيم المتحاربين إلى فريقين ، الفريق الأول ، هم المسلمون الذين ناداهم بـ « قومه » ، والفريق الثانى هم أعداؤهم من الدول المتحالفة ضدهم . وهو فيها يستنفر هؤلاء القوم ، ويدعوهم إلى الجهاد لمقاتلة الأعداء الذين يضمرون الشر كل الشر ، للاسلام والمسلمين وللوطن ، فيقول :

يا قوم إن العدا قد هاجموا الوطنا
فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا
واستنفروا لعدو الله كل فتى
ممن نأى فى أقاصى أرضكم ودنا
واستنهضوا من بنى الإسلام قاطبة
من يسكن البدو والارياف والمدنا
واستقتلوا فى سبيل الذود عن وطن
به تقيمون دين الله والسننا
واستلئموا للعدا بالصبر واتخذوا
صدق العزائم فى تدميرهم جننا

(١) الديوان ص ٤٩١ .

واستنكفوا فى الوغى أن تلبسوا أبداً
عار الهزيمة حتى تلبسوا الكفنا
إن لم تموتوا كراما فى مواطنكم
متم أذلاء فيها ميتة الجبنا
لا عذر للمسلمين اليوم إن وهنوا
فى هوشه ذل فيها كل من وهنا

ثم يلتفت إلى كل من حسين كامل سلطان مصر فى ذلك الوقت ، ووزيره حسين رشدى ، ويهاجمهما هجوما عنيفا باعتبارهما مسلمين ، كان من الواجب عليهما أن يعلنا الجهاد ، ويقفا إلى جانب تركيا ، لا أن يشايعا الإنكليز الطامعين . والحق أن الشعور الرسمى للمسؤولين فى ذلك الوقت كان شعوراً أقرب إلى الإنكليز منه إلى الاتراك العثمانيين ، لأن الإنكليز هم الذين جاءوا بهم إلى الحكم ، بعد أن خلعوا السلطان الشرعى الخديوى عباس حلمى من منصب الخديوية ، ووضعوا الأمير حسين كامل على عرش السلطنة المصرية[1] .

يقول الرصافى :

قل للحسينين فى مصر رويدكما
قد خنتما الله والإسلام والوطنا
شايعتما الإنكليز اليوم عن سفه
تالله ما كان هذا منكما حسنا
قد بعتما الدين بالدنيا مجازفة
فكنتما فى البرايا شر من غبُنا
هذى جيوش بنى التوحيد زاحفةً
على العدا وعلى من ضل مفتتنا
لترسلن عليكم كل راعدة
تهمى الدماء وتمريها ظبى وقَنَا
حتى تعود إلى مصر كرامتها
ويطهرُ النيل من ماء به أجنا

ويلتفت بعد ذلك كله إلى الشريف حسين قائد هذه الثورة ، فيهاجمه هجوما شديداً هو الآخر ، ويهجوه هجاءا مقذعا فيقول[2] :

(١) الساسية والاستراتيجية فى الشرق الاوسط للدكتور حسين فوزى النجار ص ٣٨٣ الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ .

(٢) هذه الابيات الاربعة هى من نفس القصيدة المذكورة ولكنها لم تذكر فى الديوان لما =

دع الحسينين[1] فى مصر وقد بغيا
فنى الحجاز حسين ثالث لهما
هذان قد أخجل الأهرام بغيهما
وبغى ذلك أخزى البيت والحرما
فأنت ياأرض ميدى تحته جزعا
وياسماء عليه أمطرى نقما
قالوا الشريف ولو صحت شرافته
لم ينقض العهد أو لم يخفر الذمما

ومن هذا نرى أن موقف الرصافى من الثورة العربية كان موقفا صريحا غاية فى الصراحة ، وهو أنه لم يكن ميالا للوقوف إلى جانب الشريف ، ولم ينتصر له حينما أعلن هذه الثورة باسم العرب جميعاً .

ولا ريب أن هذا الموقف قد أثار كثيراً من الأقاويل ، كما استهجن كثير من العرب منه ذلك الأمر فى الماضى والحاضر ، وكانوا ينظرون إليه شزراً ، وقلوبهم مليئة بالموجدة والسخط عليه ، حتى أنه حينما توجه إلى الشام ، عندما تولى الأمير فيصل حكم الشام — كما ذكرنا من قبل — لم يجد الرصافى مايشجعه ويعينه على البقاء فيها للجفاء الذى قوبل به من رجال العروبة وعلى رأسهم فيصل نفسه .

وهنا نرى أنه من حقنا أن نتساءل :

هل كان الرصافى على خطأ فى عدم تأييده لهذه الثورة التى وضع فيها العرب جل آمالهم وآمانيهم فى التحرر والاستقلال ؟

وهل كان مقصراً بعيداً عن الحق والصواب فى اتخاذه مثل هذا الموقف ، كما ذهب إلى ذلك كثير من ساسة العرب ومفكريها وأدبائها ؟

إن الإنصاف يدعونا ، حينما نتخذ مثل هذا القرار ، أن نأخذ بنظر الاعتبار الزمن الذى حدثت فيه هذه الثورة ، والظروف التى لامست مجرياتها ، ولاحقت أحداثها ، مجردين عن كل عاطفة دينية وقومية ، حتى نستطيع بالتالى الحكم على هذا الموقف الذى وقفه من الثورة العربية حكما صائبا لا غبار عليه .

= جاء فيها من هجاء قاذع للشريف حسين . وقدتكرم الدكتوربدوى طبانه ووضعها — مشكوراً — تحت تصرفنا هى وغيرها من القصائد التى لم تنشر فى الديوان أو فى الصحف والمجلات لاسباب سياسية معلومة ، وكان قد حصل عليها خلال اقامته فى بغداد مدرسا فى دار المعلمين العالية .
ونحن سنشير إلى بعضها فى هذه الرسالة فى مناسباتها الخاصة .

(٢) حسين كامل سلطان مصر وحسين رشدى رئيس وزرائه .

إن الحرب العامة بدأت — كما هو معلوم — فى عام ١٩١٤ بين المانيا والنمسا من جهة ، وبريطانيا وفرنسا وحليفاتهما من جهة أخرى . وإنه وإن كانت تركيا مترددة فى دخول هذه الحرب ، فى بداية الأمر ، إلا أنه كان من المؤكد أنها ستخوض غمارها ، وتنحاز إلى جانب حليفتها المانيا ، لأسباب لاداعى لذكرها الآن لأنها خارجة عن نطاق بحثنا هذا .

وبالفعل لم تكد تمضى بضعة أشهر ، حتى أعلنت تركيا الحرب على الدول المتحالفة ضد المانيا .

وليس يخالجنا شك ، أن الرصافى ، فى هذا الوقت ، لم يكن ليتردد فى الوقوف موقف المدافع الذى لا تغمر له قناة عن الأتراك العثمانيين ، الذين طالما ناصرهم ودافع عنهم وعن قضاياهم .

وإنه ، وإن ليس فى ديوانه أية قصيدة تشير إلى وقوفه إلى جانب الأتراك فى هذا الوقت ، أى بعد دخولهم الحرب العامة مباشرة ، إلا أنه يكفينا للدلالة على صدق هذا الموقف وصوابه ، شعور المحبة الصادقة التى كان الرصافى يظهرها للعثمانيين بين حين وآخر . ويكفينا للدلالة على ذلك أيضاً قصائده التى أنشدها فى حرب طرابلس الغرب ، وحرب البلقان ، التى صب فيها الرصافى خالص عاطفته الجياشة نحو الدولة العثمانية ، دولة الإسلام التى كان يدين لها بولاء عميق ، عندما حزبها الأمر ، وضيق عليها الخناق ، فى هاتين الحربين .

فلما أعلن الشريف حسين ثورته فى ٥ يونيه (حزيران) عام ١٩١٦ ، أى بعد مرور حوالى سنتين على بداية هذه الحرب ، فهل من المعقول أن ينقلب الرصافى على موقفه السابق ، ويناصر الشريف حسين ؟ . . والرصافى كما ظهر لنا من دراسة شخصيته ، لا ينقلب بسهولة على رأى يقوله ، أو يتنكر لقرار يتخذه ، خاصة إذا ماعلمنا أن الدعايات العثمانية كانت قد صورت حسين بصورة الطامع لتحقيق أغراضه الشخصية من جهة ، ومن جهة ثانية ، لانحيازه إلى جانب كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا ، الدول الكافرة ، التى كانت تبغى النيل من دنيا الإسلام ، وتحارب دولة

مسلمة ، لها حق الإشراف الفعلى على المسلمين ، باعتبارها وارثة الخلافة الإسلامية ، وحاملة رسالة الدين ، وحامية ذماره .

ولا ريب فى أن هذا التصوير قد أثار حفيظة المسلمين عليه ، وجعلهم يتهمونه بالخيانة والخروج عن الدين الحنيف بتعاونه مع الكفار .

وهذا ما قد حصل بالفعل . .

لذلك حاول من جانبه أن يبرر إعلان هذه الثورة ، فادعى أنه ماقام بها إلا حفظا لمصلحة الدين والقومية . وهاجم الاتحاديين ، زاعما أنهم قد خرجوا عن الدين الحنيف ، وعدهم مسؤلين عما حدث من شنق وسجن وتشريد لكثير من رجال العرب البارزين فى بلاد الشام ، وناشد بعد ذلك ، جميع مسلمى العالم أن يؤيدوا هذه الثورة ، ويسيروا معه بصفته أميرا على مكة ، وفى سبيل صيانة التضامن الإسلامى[1] .

بيد أنه ليس لدينا من المصادر مايؤكد أن هذا التبرير قد أثر تأثيرا كبيراً فى سائر الدول العربية والإسلامية ، مثلما أثر تصوير الأتراك له بصورة الخروج على الدين الإسلامى بسبب اطماعه الشخصية .

فالعراق مثلا — وهو بلد عربى إسلامى — وقف موقفاً معادياً صريحا من الثورة العربية[2] ، ذلك بعد أن ظهرت للعراقيين سياسة بريطانية التعسفية تجاه بلدهم ، وهى الدولة التى تحالف معها الشريف فى تلك الحرب .

وفى الجزيرة العربية ، لم تقابل هذه الثورة كذلك ، مقابلة حسنة ، خاصة من قبل كل من الأميرين ابن الرشيد والإمام يحيى ، وإن كان أمراء آخرون قد ايدوها مثل ابن السعود وأمير الكويت[3] ، ليس بدافع الرغبة فى هذه الثورة ، أو انتصارا للقضية العربية ، أو مودة للشريف حسين ، وإنما مرد ذلك راجع إلى ذلك الإخلاص العميق الذى يكنه هذان الأميران لبريطانية التى علقوا مصائرهم بمصائرها ، وأطماعهم بما قد وعدوا به من وعود خلابة ، كما تكشفت عنه الأيام فيما بعد .

---

(١) يقظة العرب — تاليف جورج انطونيوس ترجمة على حيدر الركابى — ص ٢٣٢ مطبعة الترقى بدمشق ١٩٤٦

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٠

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٠

أما العراق فبالنظر إلى مطامع الانكليز فيه منذ زمن قديم ، كما رأينا فى باب سابق ، فليس من الأمر الهين أن تفرط فيه انكلترا ، لذلك لم تذكره ضمن هذه الدولة التى تعترف باستقلالها ، وإنما اكتفت بالقول أن تتعاون هى والعرب فى ذلك الجزء من الدولة العربية المستقلة[١] .

بيد أن الشريف حسين فى مذكرته الثالثة ، التى أرسلها إلى ما كماهون ، لم يوافقه بشأن اقتراحه الخاص بالعراق (ولكنه وافق أن تحتل بريطانيا بعد الحرب أجزاء العراق الواقعة فى هذا التاريخ (٥ نوفمبر) بيد البريطانيين ، شريطة أن يكون هذا الاحتلال مؤقتا ، وأن لايفهم منه سلخ أية بقعة عربية ، على أن تقوم بريطانية لقاء ذلك بدفع إعانة مالية للدولة العربية العتيدة يتفق عليها فيما بعد ، لتكون بمثابة مساعدة لخزانتها فى عهد طفولتها[٢]) .

غير أنه ، من ناحية ثانية ، وافق على إخراج ولاية أضنه التى تضم ميناء مرسين من منطقة الاستقلال العربى (ولكنه رفض الموافقة على إخراج سورية الواقعة غرب مناطق دمشق وحمص وحماة وحلب محتجا بأنها خلافا لاضنه ومرسين ، بلاد عربية محضة كما لم يقبل باستثناء الاسكندرونه[٣]) .

وبالجملة ، فإن هذه المذكرات المتعلقة باعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية ، وتعيين حدودها ، هى أهم هذه المذكرات التى بلغ مجموعها ثمانى مذكرات .

وفى يوم ٥ يونيه (حزيران) عام ١٩١٦ ، أطلق الشريف حسين أول رصاصة من قصره ، معلنا بدء هذه الثورة ضد الاتراك لنيل حرية العرب واستقلالهم .

وبدأت ثورة العرب ضد المستعمرين العثمانيين . . ثورة على الظلم والاستعباد ، وثورة فى سبيل الحرية والاستقلال ، كما هو المفروض ، وإن شاب أحداثها ، كثير من الغموض والتساهل من قبل حسين باقتطاع بعض الاجزاء المهمة من الوطن العربى الكبير كما عرضنا الآن .

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٣
(٢) المصدر السابق ص ١٩٤
(٣) المصدر السابق ص ١٩٤

فهل وقف الرصافى إلى جانبها ؟ هل أيدها ؟ هل دعا العرب جميعاً إلى الانضمام تحت لواء قائدها الشريف حسين ؟

إن جوابنا على هذا هو النفى .

ونؤكد فنقول :

إن الرصافى لم يؤيد الثورة ، ولم يدع العرب إلى الانضمام فى صفوف المقاتلين ، وإنما هو قد استنفر العرب والمسلمين قاطبة للوقوف إلى جانب تركيا ، والتطوع فى صفوفها .

وله فى هذا الموضوع قصيدة مستقلة مشهوررة عنوانها (الوطن والجهاد[١]) قالها — كما جاء فى الديوان — عند دخول الدولة العثمانية فى الحرب العامة الكبرى ، يستنهض المسلمين إلى الجهاد فى سبيل الذود عن الوطن . ولا ريب أن البيت الأول من هذه القصيدة واضح الدلالة فى تقسيم المتحاربين إلى فريقين ، الفريق الأول ، هم المسلمون الذين ناداهم بـ « قومه » ، والفريق الثانى هم أعداؤهم من الدول المتحالفة ضدهم . وهو فيها يستنفر هؤلاء القوم ، ويدعوهم إلى الجهاد لمقاتلة الأعداء الذين يضمرون الشر كل الشر ، للاسلام والمسلمين وللوطن ، فيقول :

يا قوم إن العدا قد هاجموا الوطنا
فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا
واستنفروا لعدو الله كل فتى
ممن نأى فى أقاصى أرضكم ودنا
واستنهضوا من بنى الإسلام قاطبة
من يسكن البدو والارياف والمدنا
واستقتلوا فى سبيل الذود عن وطن
به تقيمون دين الله والسننا
واستلئموا للعدا بالصبر واتخذوا
صدق العزائم فى تدميرهم جننا

---

(١) الديوان ص ٤٩١ .

واستنكفوا فى الوغى أن تلبسوا أبداً
عار الهزيمة حتى تلبسوا الكفنا
إن لم تموتوا كراما فى مواطنكم
متم أذلاء فيها ميتة الجبنا
لا عذر للمسلمين اليوم إن وهنوا
فى هوشه ذل فيها كل من وهنا

ثم يلتفت إلى كل من حسين كامل سلطان مصر فى ذلك الوقت ، ووزيره حسين رشدى ، ويهاجمهما هجوما عنيفا باعتبارهما مسلمين ، كان من الواجب عليهما أن يعلنا الجهاد ، ويقفا إلى جانب تركيا ، لا أن يشايعا الإنكليز الطامعين . والحق أن الشعور الرسمى للمسؤولين فى ذلك الوقت كان شعوراً أقرب إلى الإنكليز منه إلى الاتراك العثمانيين ، لأن الإنكليز هم الذين جاءوا بهم إلى الحكم ، بعد أن خلعوا السلطان الشرعى الخديوى عباس حلمى من منصب الخديوية ، ووضعوا الأمير حسين كامل على عرش السلطنة المصرية[1] .

يقول الرصافى :

قل للحسينين فى مصر رويدكما قد خنتما الله والإسلام والوطنا
شايعتما الإنكليز اليوم عن سفه تالله ما كان هذا منكما حسنا
قد بعتما الدين بالدنيا مجازفة فكنتما فى البرايا شر من غُبِنا
هذى جيوش بنى التوحيد زاحفةً على العدا وعلى من ضل مفتتنا
لترسلن عليكم كل راعدة تهمى الدماء وتمريها ظبي وقَنَا
حتى تعود إلى مصر كرامتها ويطهرُ النيل من ماء به أجنا

ويلتفت بعد ذلك كله إلى الشريف حسين قائد هذه الثورة ، فيهاجمه هجوما شديداً هو الآخر ، ويهجوه هجاءا مقذعا فيقول[2] :

(١) الساسية والاستراتيجية فى الشرق الاوسط للدكتور حسين فوزى النجار ص ٣٨٣ الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ .
(٢) هذه الابيات الاربعة هى من نفس القصيدة المذكورة ولكنها لم تذكر فى الديوان لما =

دع الحسينين[1] فى مصر وقد بغيا فى الحجاز حسين ثالث لهما
هذان قد أخجل الأهرام بغيهما وبغى ذلك أخزى البيت والحرما
فأنت ياأرض ميدى تحته جزعا وياسماء عليه أمطرى نقما
قالوا الشريف ولو صحت شرافته لم ينقض العهد أو لم يخفر الذمما

ومن هذا نرى أن موقف الرصافى من الثورة العربية كان موقفا صريحا غاية فى الصراحة ، وهو أنه لم يكن ميالا للوقوف إلى جانب الشريف ، ولم ينتصر له حينما أعلن هذه الثورة باسم العرب جميعاً .

ولا ريب أن هذا الموقف قد أثار كثيراً من الأقاويل ، كما استهجن كثير من العرب منه ذلك الأمر فى الماضى والحاضر ، وكانوا ينظرون إليه شزراً ، وقلوبهم مليئة بالموجدة والسخط عليه ، حتى أنه حينما توجه إلى الشام ، عندما تولى الأمير فيصل حكم الشام — كما ذكرنا من قبل — لم يجد الرصافى مايشجعه ويعينه على البقاء فيها للجفاء الذى قوبل به من رجال العروبة وعلى رأسهم فيصل نفسه .

وهنا نرى أنه من حقنا أن نتساءل :

هل كان الرصافى على خطأ فى عدم تأييده لهذه الثورة التى وضع فيها العرب جل آمالهم وآمانيهم فى التحرر والاستقلال ؟

وهل كان مقصراً بعيداً عن الحق والصواب فى اتخاذه مثل هذا الموقف ، كما ذهب إلى ذلك كثير من ساسة العرب ومفكريها وأدبائها ؟

إن الإنصاف يدعونا ، حينما نتخذ مثل هذا القرار ، أن نأخذ بنظر الاعتبار الزمن الذى حدثت فيه هذه الثورة ، والظروف التى لامست مجرياتها ، ولاحقت أحداثها ، مجردين عن كل عاطفة دينية وقومية ، حتى نستطيع بالتالى الحكم على هذا الموقف الذى وقفه من الثورة العربية حكما صائبا لا غبار عليه .

= جاء فيها من هجاء قاذع للشريف حسين . وقدتكرم الدكتوربدوى طبانه ووضعها ـ مشكوراً ـ تحت تصرفنا هى وغيرها من القصائد التى لم تنشر فى الديوان أو فى الصحف والمجلات لاسباب سياسية معلومة ، وكان قد حصل عليها خلال اقامته فى بغداد مدرسا فى دار المعلمين العالية .
ونحن سنشير إلى بعضها فى هذه الرسالة فى مناسباتها الخاصة .
(٢) حسين كامل سلطان مصر وحسين رشدى رئيس وزرائه .

إن الحرب العامة بدأت — كما هو معلوم — فى عام ١٩١٤ بين المانيا والنمسا من جهة ، وبريطانيا وفرنسا وحليفاتهما من جهة أخرى . وإنه وإن كانت تركيا مترددة فى دخول هذه الحرب ، فى بداية الأمر ، إلا أنه كان من المؤكد أنها ستخوض غمارها ، وتنحاز إلى جانب حليفتها المانيا ، لأسباب لاداعى لذكرها الآن لأنها خارجة عن نطاق بحثنا هذا .

وبالفعل لم تكد تمضى بضعة أشهر ، حتى أعلنت تركيا الحرب على الدول المتحالفة ضد المانيا .

وليس يخالجنا شك ، أن الرصافى ، فى هذا الوقت ، لم يكن ليتردد فى الوقوف موقف المدافع الذى لا تغمر له قناة عن الأتراك العثمانيين ، الذين طالما ناصرهم ودافع عنهم وعن قضاياهم .

وإنه ، وإن ليس فى ديوانه أية قصيدة تشير إلى وقوفه إلى جانب الأتراك فى هذا الوقت ، أى بعد دخولهم الحرب العامة مباشرة ، إلا أنه يكفينا للدلالة على صدق هذا الموقف وصوابه ، شعور المحبة الصادقة التى كان الرصافى يظهرها للعثمانيين بين حين وآخر. ويكفينا للدلالة على ذلك أيضاً قصائده التى أنشدها فى حرب طرابلس الغرب ، وحرب البلقان ، التى صب فيها الرصافى خالص عاطفته الجياشة نحو الدولة العثمانية ، دولة الإسلام التى كان يدين لها بولاء عميق ، عندما حزبها الأمر ، وضيق عليها الخناق ، فى هاتين الحربين .

فلما أعلن الشريف حسين ثورته فى ٥ يونيه (حزيران) عام ١٩١٦ ، أى بعد مرور حوالى سنتين على بداية هذه الحرب ، فهل من المعقول أن ينقلب الرصافى على موقفه السابق ، ويناصر الشريف حسين ؟ . . والرصافى كما ظهر لنا من دراسة شخصيته ، لاينقلب بسهولة على رأى يقوله ، أو يتنكر لقرار يتخذه ، خاصة إذا ماعلمنا أن الدعايات العثمانية كانت قد صورت حسين بصورة الطامع لتحقيق أغراضه الشخصية من جهة ، ومن جهة ثانية ، لانحيازه إلى جانب كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا ، الدول الكافرة ، التى كانت تبغى النيل من دنيا الإسلام ، وتحارب دولة

مسلمة ، لها حق الإشراف الفعلى على المسلمين ، باعتبارها وارثة الخلافة الإسلامية ، وحاملة رسالة الدين ، وحامية ذماره .

ولا ريب فى أن هذا التصوير قد أثار حفيظة المسلمين عليه ، وجعلهم يتهمونه بالخيانة والخروج عن الدين الحنيف بتعاونه مع الكفار .

وهذا ما قد حصل بالفعل . .

لذلك حاول من جانبه أن يبرر إعلان هذه الثورة ، فادعى أنه ماقام بها إلا حفظا لمصلحة الدين والقومية . وهاجم الاتحاديين ، زاعما أنهم قد خرجوا عن الدين الحنيف ، وعدهم مسؤلين عما حدث من شنق وسجن وتشريد لكثير من رجال العرب البارزين فى بلاد الشام ، وناشد بعد ذلك ، جميع مسلمى العالم أن يؤيدوا هذه الثورة ، ويسيروا معه بصفته أميرا على مكة ، وفى سبيل صيانة التضامن الإسلامى[1] .

بيد أنه ليس لدينا من المصادر مايؤكد أن هذا التبرير قد أثر تأثيرا كبيراً فى سائر الدول العربية والإسلامية ، مثلما أثر تصوير الأتراك له بصورة الخروج على الدين الإسلامى بسبب اطماعه الشخصية .

فالعراق مثلا — وهو بلد عربى إسلامى — وقف موقفاً معاديا صريحا من الثورة العربية[2] ، ذلك بعد أن ظهرت للعراقيين سياسة بريطانية التعسفية تجاه بلدهم ، وهى الدولة التى تحالف معها الشريف فى تلك الحرب .

وفى الجزيرة العربية ، لم تقابل هذه الثورة كذلك ، مقابلة حسنة ، خاصة من قبل كل من الأميرين ابن الرشيد والإمام يحيى ، وإن كان أمراء آخرون قد ايدوها مثل ابن السعود وأمير الكويت[3] ، ليس بدافع الرغبة فى هذه الثورة ، أو انتصارا للقضية العربية ، أو مودة للشريف حسين ، وإنما مرد ذلك راجع إلى ذلك الإخلاص العميق الذى يكنه هذان الأميران لبريطانية التى علقوا مصائرهم بمصائرها ، وأطماعهم بما قد وعدوا به من وعود خلابة ، كما تكشفت عنه الأيام فيما بعد .

---

(١) يقظة العرب — تاليف جورج انطونيوس ترجمة على حيدر الركابى — ص ٢٣٢ مطبعة الترقى بدمشق ١٩٤٦

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٠

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٠

وفى مصر والسودان ، لم يحدث نبأ قيام هذه الثورة فيهما أثرا كبيراً ، بل وقفت كل منهما موقفاً معاديا صريحا تجاه الثورة ، وخاصة فى مصر التى كان عداؤها للثورة حقيقياً بينا ، وقد غذاه الشعور بكره بريطانية بدرجة ماغذاه الشعور بالعطف على الترك[١].

بل إن المسلمين من غير العرب فى جميع أقطارهم وديارهم استنكروا موقف حسين من الدولة التركية المسلمة ، ووقوفه إلى جانب بريطانية التى كانت ترمى إلى إضعاف شوكة الدين الإسلامى الذى تتبناه ، وتدعو له ، الدولة العثمانية . لذلك (عدوا الثورة عصيانا على سلطة الإسلام ، ومصدعاً لوحدته ، وكانوا كذلك يرتابون بنوايا البريطانيين نحو بلاد العرب ، ويحرصون حرصاً شديداً وصادقاً على سلامة الأماكن المقدسة . فعقدت اجتماعات عامة ، وأهمها اجتماع (لكناو) يوم ٢٧ يونية (حزيران) للتنديد بحركة الشريف بعبارات صريحة)[٢].

وبناء على ماتقدم ، يتضح لنا أن هذه الثورة لم تلق أى تأييد من قبل كثير من الدول العربية والإسلامية ، حينما انحاز الشريف حسين إلى جانب الدول المسيحية المتحالفة لمحاربة دولة مسلمة ، وهى الدولة العثمانية ، وذلك لسيطرة الروح الدينية على الغالبية العظمى من الناس فى هذه الدول جميعها . مضافاً إلى ذلك ، اعتقادهم أن حسين إنما فعل هذا لتحقيق أطماعه الشخصية ، وإلا لما كان قد تحالف مع دول كافرة ، وهو الرجل المسلم ، سليل البيت الهاشمى ، وأمير مكة .

وليس يخالجنا شك فى أن الرصافى قد أيقن هو الآخر بصحة هذا الاتجاه ، وآمن به . وإلا فكيف يتحالف زعيم مسلم ، وأى مسلم ، مع دول كافرة لمحاربة دولة مسلمة .

لذلك استنكر من الشريف هذا الموقف من الدولة العثمانية ، ورأى فيه رجلا قد أغضب رب البيت والمسلمين قاطبة ، لخروجه عن الدين الحنيف .

ومن يدرى ، لعل من الجائز أن الرصافى كان يستشعر ويحس بأطماع هذه الدول فى البلاد العربية ، وخاصة بريطانية التى كان يعرف نواياها وأطماعها فى العراق ،

(١) المصدر السابق ص ٢٣٢
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٠

مما جعله أيضاً يخاصم ثورة الشريف حسين مخاصمة فيها شىء كثير من الشدة والغلظة .

هذا وقد أثبتت الأيام ، فيما بعد ، صدق أحاسيسه ومشاعره هذه ، حينما بدأت أطماع كل من بريطانية وفرنسا تتكشف للرأى العام العربى والإسلامى ، ولما يمض طويل وقت على انتهاء الحرب العالمية الأولى .

ونضيف إلى هذا ، أن الرصافى لم يكن وحده يحس بهذا الاحساس ، وإنما كان يشاركه فيه كثير من العرب . بل إن الأمير فيصل نفسه ، وهو أحد أنجال حسين ، لم يكن ميالا فى بداية الأمر للوقوف إلى جانب بريطانيا ، وراغبا فى إعلان الحرب على تركيا لتشككه منها ، بل كان يعتقد اعتقاداً جازما (بأن لفرنسا وانكلترا أطماعاً الأولى فى الشام والثانية فى المناطق الجنوبية من العراق[١]) .

والآن ، وبعد هذا ، قد يقول قائل :

وأين كان شعور الرصافى القومى ، ودعواته المتكررة لتمجيد الأمة العربية واستنهاض أبنائها ؟

والجواب على ذلك تقول :

إن الرصافى فى هذه الفترة ، كان يجمع بين شعورين متصلين يبعضهما البعض كل الاتصال . فهو عربى ، يتمنى للعرب كل مجد وسؤدد . وهو مسلم ، بطبيعة نشأته الدينية المتغلبة على تفكيره ونفسيته ، ولهذا كان يعطف على الدولة العثمانية باعتبارها دولة مسلمة ، بل هى وارثة الخلافة الإسلامية التى تتمثل فيها عظمة الإسلام وخلوده . ولم يكن من رأيه فى هذا الوقت انفصال البلدان العربية واستقلالها عن الدولة العثمانية ، وانما كانت أسمى أمانيه وغاياته ، هى تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للدول العربية ، والمطالبة بمزيد من الحكم الذاتى لهذه الدول ضمن حدود الأمبراطورية ، وهذا ماسنأتى على ذكره بشىء من التفصيل فى موضوع القومية العربية فى أدبه .

(١) يقظة العرب تاليف جورج انطونيوس — ترجمة على حيدر الركابى — ص ١٤٥ مطبعة الترقى بدمشق ١٩٤٦ .

ولكننا نستطيع أن نؤكد هنا ، أنه ليس بالامكان ، انكار أن ولاء الرصافى للدولة العثمانية هو ولاء صادق ، وصادر عن إيمان عميق بأن هذه الدولة يجب أن تبقى خالدة ترعى مصالح المسلمين . كما لم يكن أساس هذا الولاء رغبة فى كسب المغانم ، أو رهبة من بطش السلطات العثمانية ، وخوفاً من تنكيلها به .

ونضيف إلى ذلك ونقول أيضاً :

وليس يعيب الرصافى أن يكون هذا رأيه فى عدم الانفصال عن الدولة العثمانية ، فهناك شعور قومى عام مشترك ، كان ينزع نفس هذا النزع ، ويتجه هذا الاتجاه ذاته . إذ الملاحظ أن نمو الروح القومية فى سائر الاقطار العربية لم يكن يبغى غير تحقيق العدالة السياسية والاجتماعية . والمطالبة بإصلاح الأوضاع الفاسدة والشاذة فى الأمبراطورية العثمانية . ولم يكن هناك عداء سافر لها ، أو دعوة للانفصال عنها ، وكان كل مايميز هذا العداء ، هو ذلك السخط المكبوت على سياسة الحكم العثمانى تجاه البلدان العربية ، كما تدلنا على ذلك جميع برامج الأحزاب والجمعيات العربية التى تألفت قبل إعلان الدستور العثمانى وبعده .

فلما أعلنت تركيا الحرب على دول الحلفاء ، سرعان ماتكشفت عواطف العرب تجاهها فى محنتها الجديدة ، حتى أن الهيئة العليا لجمعية العرب الفتاة قررت (بأن يقف العرب إلى جانب تركيا ضد أى محاولة أجنبية أيا كان لونها يمكن أن تكون وسيلة لبسط النفوذ الأجنبى على البلاد) [1] . كما أصدر عزيز على المصرى رئيس جمعية العهد إلى رجاله (بأن لايكونوا أداة للقيام بأى عمل عدوانى ضد الدولة العثمانية ، وإذا كان دخولها الحرب يعرض البلاد العربية للغزو الأوربى ، فعليهم أن يقفوا إلى جانب تركيا حتى يحصلوا على كافة الضمانات القوية حيال الأهداف الأوربية فى تلك البلاد[2]) .

ولقد بقى الرصافى ثابتاً على موقفه هذا ، طوال حياته . بل ازداد شدة ورسوخاً

(١) السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط تاليف الدكتور حسين فوزى النجار ص ٣٧٥ مطبعة السعادة بمصر الطبعة الاولى ١٩٥٣

(٢) المصدر السابق ص ٣٧٥ .

حينما بدأ يتحسس ويشاهد صوراً كثيرة من أطماع الدول الحليفة بعد انتهاء الحرب العالمية .

فى قصيدته (مظاهر التعصب فى عصر المدنية [1]) التى يرد فيها بقوة وحزم على الجنرال غورو القائد الفرنسى المشهور ، الذى زحف على سوريا عام ١٩٢٠ وأطاح بحكم فيصل ، حينما قال كلمته المشهورة أمام قبر صلاح الدين الأيوبى « اليوم انتهت الحروب الصليبيه » ، وينبهه إلى الاساءة التى ألحقها بالعرب والمسلمين من جراء هذه الأقوال التافهة الرخيصة ، ويذكره بفضل العرب الذين وقفوا إلى جانبهم فى الحرب ، فاحرزوا فيها النصر المبين ، وما كانوا بقادرين على ذلك من دونهم . . . يلتفت إلى التنديد بموقف الشريف حسين الذى أغضب البيت الحرام ، وباع الدين بالدنيا فى سبيل تحقيق أطماعه الشخصية ويقول :

فقد قادت الاعراب نحو عدوكم ... خيولا لها فى حومة الحرب تجوال
وقامت لكم منهم بمكة راية ... لكم فتحت فيها من القدس أقفال
لقد أغضبوا البيت الحرام وربه ... وهم بمقام البيت لا شك جهال
ولو أن عهد المسلمين كعهدهم ... قديما لحالت دون ذا النصر أهوال
ولكنهم باعوا الديانة بالدنا ... فحالت لعمرى منهم اليوم أحوال

والحق أن هذا الهجوم على حسين بمثل هذه الصورة العنيفة ، إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن الرصافى كان على يقين ، حتى بعد مرور عدة سنوات ، بأن قيام هذه الثورة على الاتراك العثمانيين ، لم يكن على صواب ، ولا داعى مطلقا لقيامها .

كما نستطيع أن نتأكد من هذا الموقف فى قصيدته (ولسون بين القول والفعل[2]) التى قالها بعد أن وضعت الحرب أوزارها ؛ واجتمع الحلفاء فى (سان ريمو) فى عام ١٩٢٠ لتقسيم ممتلكات الرجل الذى كان مريضا فمات ، واشترك فيه الرئيس ولسون ؛ رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وصاحب المبادىء الأربعة عشرة المشهورة حول حق تقرير المصير ؛ استفكر الرصافى الشروط التى فرضت على تركيا واستهجن سماح الحلفاء لليونانيين بأن ينزلوا قواتهم فى أزمير للاستيلاء عليها . . .

(١) الديوان ص ٤٣٤ .
(٢) الديوان ص ٤٣٥

إن هذا إن دل على شيء أيضا ، فإنما يدل دلالة واضحة على اخلاص الرصافى للوطن العثمانى ، ويدل أيضا على استنكاره الشديد لاقتطاع أى جزء منه وضمه إلى غيره من الدول .

يقول الرصافى فى هذه القصيدة :

مد ولسن فى السياسة حبلا ... جمع النقض فيه والابراما
فلبعض الأنام كان عصاما ... ولبعض الأنام كان خصاما
ملأ الدهر فى فيومة فخراً ... وبأزمير أخجل الاياما
إن أزمير صيرت ما لولسو ... ن من الفخر فى فيومة ذاما
فهل الحق عنده فى سو الغر ... ب حقير أقل من أن يحامى
أم هل الشرق وحده فى الأقاليم مباح أن يستبى ويضاما
أم هل القوم عاهدوا الله فى أن ... لا يراعوا للمسلمين ذماما
ما لهم أرهقوا بنى الشرق ظلما ... وعلى الترك أشلوا الأرواما
فاستباحوا حريم أزمير نهبا ... واستحلوا من الدماء حراما
حيث جاسوا خلالها بجنود ... ركبت فى عتوها الاثاما

ومثل هذا فى الاستشهاد قصيدته (نواح دجلة[1]) التى قالها بعد سقوط بغداد فى أثناء الحرب العامة جوابا عن قصيدة للشاعر التركى الشهير سليمان نظيف بك ، وفيها يظهر الرصافى شديد حنينه للاتراك العثمانيين ، الذين تركوا العراق نهبة للظلم والفساد ، ويتمنى عودتهم إليه حيث ناح من أجل فراقهم وبعدهم عنه .

ويقول :

أنا أدرى بأنهم بعد هجرى ... لم يذوقوا غمضا ولم يرتاحوا
بل هم اليوم عازمون على الزحف بجيش به تغص البطاح
إن تأنوا فربضة الليث تأتى ... بعدها وثبة له وكفاح
كيف يُغْضون عن إغاثة واد ... زانه من ودادهم أوضاح
فعليه من فخر عثمان تاج ... وله راية الهلال وشاح

(١) الديوان ص ٤٢٠ .

أنا باقٍ على الوفاء وإن كا ... نت بقلبى ممن أحب جراح

أما قصيدته (أبو الملوك[1]) التى يرثى بها الملك حسين — وقد صار ملكا على الحجاز فيما بعد — والتى استهلها بقوله :

بدا وجه العروبة فى حلوك ... غداة قضى الحسين أبو الملوك
قضى متنازلا بعد اعتلاء ... كذلك الشمس تجنح للدلوك

والتى قال فيها :

وجدد للعروبة غرس مجد ... قديم كان كالغدق الترياك
وأحدث نهضة فى العرب هزت ... جنوب الأرض كالريح السهوك
واثبت بالسيوف لهم حقوقا ... مؤيدة بكل دم سفيك
ولكن غشه الحلفاء حتى ... أتوه من الثعالب فى مَسوك
وخانوا لم يفوا بعد انتصار ... بما كتبوه فى بطن الصُكوك

فإنها فى رأينا تحمل معنى الرثاء والعطف والشفقة عليه ، أكثر مما تحمل معنى التراجع عن موقفه فى عدم تأييده للثورة العربية ، كما ذهب إلى ذلك الأستاذ هلال ناجى فى كتابه (القومية والاشتراكية فى شعر الرصافى[2]) .

(١) الديوان ص ٣٣٠ .
(٢) انظر الكتاب المذكور ص٥٦ .

الفصل الخامس

بين الانتداب والاستقلال

لقد بينا فى الفصل الأول ، من الباب الأول ، كيف تم تأسيس الحكم الوطنى فى العراق . ولقد ذكرنا أن الثورة العراقية التى تأجج سعيرها فى عام ١٩٢٠ ، كانت هى السبب المباشر الذى حمل الإنكليز على أن يذعنوا لإرادة الشعب العراق ورغبتهم فى تأسيس حكم وطنى فى العراق ، يرأسه ملك يختاره العراقيون أنفسهم عن طريق الانتخاب ، بعد أن استبان لهم أن الحكم المباشر فى العراق بات عديم الأهمية والفائدة ، وذلك لأسباب عديدة ذكرناها آنفا ، وأنه يمكن تأمين مصالح بريطانية فيه على الوجه الأكمل بواسطة العملاء والمأجورين دون حاجة إلى حكمه هذا الحكم المباشر .

كما ذكرنا أيضاً أن الخطة التى وضعها السير برمى كوكس المندوب السامى البريطانى فى العراق ، كانت تقضى بأن يمهد لتعيين ملك على العراق ، وأن نية بريطانيا كانت متجهة منذ بداية الأمر إلى اختيار الامير فيصل بن الملك حسين ملكا على عرش العراق . وأنه قد عقد لذلك مؤتمر فى القاهرة فى ١٢ آذار (مارس) عام ١٩٢١ برئاسة ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطانى حينئذ ، وقد حضره بعض المسؤولين العراقيين ، تقرر فيه بصفة نهائية ترشيح فيصل لعرش العراق ، ووضعت الخطة التى تسهل له أمر فوزه ، ذلك أنه لم يكن هو المرشح الوحيد لهذا العرش ، إذ كان هناك مرشحون آخرون من العراقيين وغير العراقيين ، أمثال السيد عبد الرحمن الكيلانى — نقيب أشراف بغداد ، ورئيس الحكومة المؤقته — والسيد طالب النقيب ، نقيب أشراف البصرة ، والسيد عبد الهادى باشا العمرى رئيس الاسرة العمرية المشهورة فى الموصل . ومن غير العراقيين السيد برهان الدين نجل

آخر سلاطين آل عثمان . وقد رشح البعض « أغا خان » لعرش العراق[1] .

ولهذا ما كاد يسمع هؤلاء المرشحون ، أو بعبارة ادق ، العراقيون منهم ، باسم فيصل يتردد على الألسنة حتى أخذوا يقاومون ترشيحه وانتخابه ملكا على العراق .

ولقد كان أشد هؤلاء المعارضين عزيمة ، وأقواهم نفوذا ، وأكثرهم طموحاً فى تولى الملك ، هو السيد طالب النقيب ، الذى كان وزيرا فى الحكومة المؤقتة . ولقد بدأ طالب بتنظيم حملة لعرقلة انتخاب فيصل متخذاً له شعار (العراق للعراقيين) إشارة الى أن فيصل غير عراق .

ولقد أزمع طالب على إصدار جريدة غايتها معارضة فيصل وترويج نبأ ترشيحه هو والدعاية لنفسه . فاتفق مع عبد الرحمن الكيلانى ، المرشح الآخر لهذا العرش ، على أن يتولى معروف الرصافى إصدار هذه الجريدة ، وكان هو أيضاً من معارضى انتخاب فيصل ، فابرقا إليه للعودة سريعا إلى العراق ، وكان يومئذ فى القدس .

وما كادت هذه الجريدة توشك على الصدور ، حتى نفى الانكليز السيد طالب ، تمهيدا لتيسير الأمور أمام فيصل ، وإزالة العقبات التى تعترض طريقه[2] .

ثم اجريت الانتخابات ، وكانت صورية بطبيعة الحال ، وفاز فيصل باغلبية الأصوات .

وفى ٢٣ آب (اغسطس) عام ١٩٢١ ، أقيمت حفلة تتويجه ملكا على العراق فى احتفال عام جرى فى سراى الحكومة . وقد حضره المندوب السامى البريطانى ، والقائد العام للجيش البريطانى ، ورجال الحكومة المؤقتة ، والوجوه والاعيان ولفيف كبير من الموظفين العرافيين .

ولقد كان الرصافى فى بغداد حينما جرت حفلة التتويج هذه . .

ولا شك فى أنه قد نقل إليه كيف أن المندوب السامى البريطانى السير ولكوكس ، قد تأخر عن عمد وسابق إصرار ، عن الوقت المحدد لبداية هذا الاحتفال

---

(١) محاضرات عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال للاستاذ عبدالرحمن البزاز ص٦٢ — ٦٤ .
(٢) مجلة الثقافة الجديدة ، نيسان (ابريل) العدد الأول ١٩٥٤ .

ليكون الملك فيصل فى انتظاره ، لا أن يكون هو فى إنتظار الملك ، حسبما تقضى بذلك قواعد البروتوكول . ولا ريب فى أنه قد نقل إليه أيضاً ، كيف جلس هذا المندوب عن يمين الملك ، والقائد العام للجيش البريطانى عن شماله ، فادرك — وهو الثاقب البصيرة ، العميق الإحساس — أن الملك الجديد لا محالة سيكون تحت أرادتهم ومشيئتهم ، وإنه سوف يراعى مصالحهم الخاصة ، دون مصالح الشعب العراق .

فتشاءم الرصافى من ذلك كله — ومن حقه أن يتشائم — وأحس بأن العراق الذى كان قد تخلص من الحكم الانكليزى المباشر ، سيقع من جديد فى مصير أشد قسوة ، وأفظع أمراً ، ذلك بعد أن يتولى الأمر فيه ملك ، ولكن ليس له من الملك إلا الاسم ، وبعد أن يتولى الأمر فيه حكام من أبنائه لا يستطيعون أن يأتوا بعمل مادون رغبة سادتهم الإنكليز ومشيئتهم . ومن البديهى ، بعد ذلك كله ، أن يندد الرصافى بالوضع الجديد ، ويسخر من الملك ، ويهزأ بالوزراء ، ويدعو إلى الثورة على الإنكليز ، والقضاء على من يسير فى ركابهم ، ويأتمر بأوامرهم ، ممن باع وطنه وقومه فى سبيل تحقيق منافعه الشخصية ، ومآربه الذاتية .

أما ما كان بين الرصافى والملك فيصل ، فإنه يمثل صورة صادقة للصراحة الصارمة التى اتسم بها شاعرنا . فالرصافى كان يراه العوبة بأيدى الإنكليز ، وأنه لا يستطيع أن يعمل شيئا دون موافقتهم ورضاهم . ولذلك فإن الملك الحقيق هو الذى يسكن فى الجانب الغربى من بغداد ، المقر الرسمى للمندوب السامى البريطانى ، وليس الملك الذى يسكن فى الجانب الشرقى حيث بلاط الملك فيصل الأول .

يقول الرصافى فى قصيدته (بين الملك والمفوض السامى[1]) .

فى الجانب الشرقى من بغدادنا ملك عن الزوار غير محجب
والجانب الغربى فيه مفوض فوق الحكومة لدنى المنصب
والأمر بين كليهما متردد والناس بين مشرق ومغرب

وفى رأينا أن كراهية الرصافى للملك فيصل ، لم تكن وليدة حكمه فى العراق

(١) هذه القصيدة غير منشورة فى الديوان .

فحسب ، بل هى ترتقى إلى ذلك الوقت الذى توجه فيه الرصافى إلى الشام بعد أن ولى حكمها فيصل نفسه — كما وضحنا من قبل — وكان يأمل من الحكم العربى الجديد شيئاً كثيراً ، فإذا هو يستقبل بجفاء وبرود ، وإذا هو يلاقى وجوها عابسة من قبل فيصل نفسه ومن حاشيته ، لاتخاذه ذلك الموقف السلبى من الثورة العربية التى أعلنها الشريف حسين وقاد بعض جيوشها فيصل نفسه . ولقد بينا كيف أنكر الرصافى ذلك الأمر ، وكيف خرج مغاضبا من دمشق متوجها إلى القدس لعلها تأويه بعد أن خذله فيصل وأتباعه .

ومن الجائز أن الرصافى كان قد بدأ يضمر فى نفسه حقداً شخصيا للملك فيصل . ومن الجائز أيضاً أن يكون قد تساءل فى سره عما يمتاز به هذا الملك إلا كونه قد ولد فى بيت كريم ، وأنه من أسرة لها منزلتها الدينية الفائقة . وماذا بعد هذا ، والرصافى لا يؤمن بالفضائل تنحدر من الآباء إلى الأبناء ، بل هو ممن يؤمن بأن هذه الفضائل إنما يجب أن يكتسبها المرء بنفسه ؟ ! أليس هو القائل :

وقالوا ابن من أنت ياهذا فقلت لهم أبى امرؤ جده الأعلى أبو البشر
قالوا فهل نال مجد قلت واعجبى أتسألونى بمجد ليس من ثمرى[1]

وبعد أن ينظر الرصافى هذه النظرة معللا نفسه بأن الفضائل إنما هى من عمل المرء وليست منحدرة إليه من آبائه وأجداده ، يعود فيتساءل : وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه خير من فيصل وأرفع منه شأناً .

وإلا ، فهل كان فيصل شاعراً مثل الرصافى ، وللشعراء منزلتهم الخاصة الواضحة ؟ وهل اشتغل فيصل بالقضايا القومية والوطنية ، وسبقه فى ذلك ، مثلما فعل الرصافى ؟ وإذا كان كل منهما نائباً فى مجلس المبعوثان العثمانى ، فإن الرصافى كان كذلك صحفياً ناجحاً ، وكان أستاذاً فى معاهد الاستانة ومدارسها ، وكان أيضاً محبوباً لذاته ، مذكوراً لشخصه ، لا لكونه ابن رجل كريم فحسب .

وحينما تولى فيصل حكم العراق ، بقيت هذه النظرة إزاءه مستقرة فى ذهن الرصافى ،

(١) الديوان ص ١٦٦ .

ومتمكنة من عقله كل التمكن ، فلم يحاول أن يقنع نفسه بخلاف ما كان يعتقد فيه . وكان كلما مرت الأيام ، ازدادت كراهيته للملك فيصل ، وحقده عليه ، خاصة حينما وجده ألعوبة بيد الإنكليز ، ومتساهلا معهم إلى أقصى حدود التساهل فى حق هذا الشعب الكريم .

هذا وقد ذكرنا من قبل كيف أراد عبد المحسن السعدون ، رئيس الوزراء ، أن يصلح بينه وبين فيصل ، وكيف أن هذا الصلح لم يتم ، لموقفه الجرىء فى حضرة الملك ، وقد خرج الرصافى من لدنه ، لا ليمدحه متزلفا ومتملقاً ، ولكن ليقول أبياته التالية ، المليئة بالوعد والوعيد :

أبلاط أم ملاط أم لواط أم مليك بالمخانيث محاط
غضب الله على ساكنه وتداعى ساقطاً ذاك البلاط[1]

وإذا كان هذا هو موقف الرصافى من الملك ، فلم يكن موقفه من الحكم بصورة عامة بأحسن منه . ذلك أن السبب الرئيسى الذى حدا بالرصافى أن يقف منه هذا الموقف ، هو نفسه السبب الذى جعله يقف من الحكم فى العراق هذا الموقف السلبى أيضا .

فقد آلمه وحز فى نفسه ، أن يرى العراق فى حاضره ومستقبله على هذه الصورة القاتمة المؤلمة من جراء وجود الإنكليز وسيطرتهم سيطرة تامة على كافة شئون الدولة ومرافقها ودوائرها . ولهذا كثيراً ما كان يحنق الرصافى أشد الحنق من أجل هذا الوضع الاستعمارى السيء ، وكان لا يفتأ يهدر بقصائد قوية حازمة تندد بالإنكليز ، وبالحكومة ، وبهذا الوضع بصورة عامة ، فى كل مناسبة من المناسبات .

وللرصافى فى هذا الموقف — موقف المعارضة من الحكم القائم — كثير من القصائد التى تدل دلالة واضحة على ما يتميز به هذا الرجل من صراحة تامة ، وشجاعة كاملة ، ورسالة بينة الحدود ، واضحة المعالم . منها قصيدته المشهورة (حكومة الانتداب)[2] التى هاجم فيها الحكم وأشكاله ورموزه هجوما عنيفا ، واستطاع أن يكشف زيفه

(١) هذان البيتان غير منشورين فى الديوان .
(٢) الديوان ٤٦٣ .

للناس ، ويظهره على حقيقته ، مبينا إياه أنه حكم صورى ، وأنه لا يمتلك من مقومات الحكم ودعاماته إلا الاسم . ويذكر الرصافى ، فى هذه القصيدة ، أنه سيقول ما تأكد لديه عن هذا الحكم الزائف قول من لا يخاف ولا يبالى بعقاب ينزل عليه .

يستهل الرصافى هذه القصيدة قائلا :

أنا بالحكومة والسياسة أعرف أألام فى تفنيدها وأعنف
سأقول فيها ما أقول ولم أخف من أن يقولوا شاعر متطرف

ويمضى الرصافى بعد ذلك ليبين مظاهر هذه الحكومة ورموزها فيقول :

علم ودستور ومجلس أمة كل عن المعنى الصحيح محرف
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها أما معانيها فليست تعرف
من يقرأ الدستور يعلم أنه وفقا لصك الانتداب مصنف
من ينظر العلم المرفرف يلقه فى عز غير بنى البلاد يرفرف
من يأت مجلسنا يصدق أنه لمراد غير الناخبين مؤلف
من يأت مطرد الوزارة يلفها بقيود أهل الاستشارة ترسف

ولا ريب فى أن حكومة هذا هو شأنها ، وحكما قائما على هذه الصورة المهزوزة ، والمظاهر الخادعة ، ليس بميسورها أن تعمل جديا على تحقيق أى نوع من أنواع الإصلاح ، وخاصة فى السياسة المالية التى كانت تشكو منها البلاد ، ولذا يقول :

أفهكذا تبقى الحكومة عندنا كلماً تموه للورى وتزخرف
كثرت دوائرها وقل فعالها كالطبل يكبر وهو خال أجوف
كم ساءنا منها ومن وزرائها عمل بمنفعة المواطن مجحف
تشكو البلاد سياسة مالية تجتاح أموال البلاد وتتلف
تجبى ضرائبها الثقال وإنما فى غير منفعة الرعية تصرف
حكمت مشددة علينا حكمها أما على الدخلاء فهى تخفف

ولا يفوت الرصافى — وهو ينكر ذلك كله — أن يدعو الشعب العراقى إلى الثورة ضد هذا الحكم الغاشم فيقول :

الشعب فى جزع فلا تستبعدوا يوما تثور به الجيوش وتزحف
وإذا دعى داعى البلاد إلى الوغى أتظن أن هناك من يتخلف
أيذل قوم ناهضون وعندهم شرف يعزز جانبيه المرهف
كم من نواصى للعدا سنجزها ولحى بأيدى الثائرين ستنتف
إن لم نضاحك بالسيوف خصومنا فالمجد باك والعلى تتأفف

هذا هو موقفه من حكومة الإنتداب .

أما كيف صور الرصافى هذا الإنتداب على العراق ، والحكومات القائمة فى ظله ، فقد بين لنا ذلك فى قصيدته اللاذعة (غادة الانتداب[1]) حيث رسم صورة غادة جميلة مرت به وبصاحبه ، وقد أزينت ، وخضبت كفها ، ولبست أجمل الكساء ، فبدا منظرها جميلا رائعا ، غير أنها كانت تبطن تحت هذا المنظر الجميل ، اللؤم الدفين ، والغدر المكين . .

هذا هو الانتداب ، وهذه هى حكومة الانتداب !!

قال جليسى يوم مرت بنا ما هذه الغادة ذات الحجاب
قلت له تلك لأوطاننا حكومة جاد بها الانتداب
تحسبها حسناء فى زيها وماسوى (جنبول) تحت الثياب
ظاهرها فيه لنا رحمة والويل فى باطنها والعذاب
مصابنا أمسى فظيما بها يارب ما أفظع هذا المصاب
تالله قد حق لنا أننا نحثو على الأرؤس كل التراب

وعلى غرار هذه القصيدة ، قصيدته (كيف نحن فى العراق[2]) التى يصف فيها وضع العراق السياسى أيام الانتداب البريطانى ، ويهاجم الحكومة هجوما عنيفا ، مستنكراً أن يكون العراق مفتقراً إلى ما يجود به الانجليز ، فى حين تعلق لنا بنود الحرية والاستقلال كذبا وبهتانا ، حتى وصل بنا الأمر إلى أن ساد علينا الهنود ، وصارت الهند أشرف من العراق ، يقول :

(١) الديوان ص ٤٥١
(٢) الديوان ص ٤٦٢ .

أيكفينا من الدولات أنا تعلق فى الديار لنا البنود
وأنا بعد ذلك فى افتقار إلى ما الأجنبى به يجود
أذن فالهند أشرف من بلادى وأشرف من بنى قومى الهنود

أما حكام العراق ، فهم على أبناء قومهم أسود ، ولكنهم للانكليز كلاب مسعورة .

وكم عند الحكومة من رجال تراهم سادة وهم العبيد
كلاب للأجانب هم ولكن على أبناء جلدتهم أسود
وليس الإنكليز بمنقذينا وان كتبت لنا منهم عهود

كما استطاع الرصافى أن يصور هذا الوضع السياسى فى العراق ، وما وصل اليه من سوء بالغ ، فى تلك القصيدة التى أنشدها فى الحفلة التى أقامها المعهد العلمى تكريماً لأمين الريحانى عند قدومه بغداد فى أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٣ ، وعنوانها (تجاه الريحانى شكواى العامة[1]) . ففى هذه القصيدة ، يؤكد الرصافى أن العراق ظل باقيا على ما هو عليه الحال فى الماضى ، تتناوشه معاول الهدم ، وتتناوله أيدى التخريب ، حتى أحيل مأهول أرضه قفراً ، ومحاسن جماله قبحاً ، وعفا مجده القديم ، واستحال كل شىء فيه إلى خراب ودمار . .

ويعرف الرصافى علة ذلك كله ، فيذكره دون خوف أو وجل فيقول :

من اين يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير فى وطن ، يكون السيف عند جبانه ، والمال عند بخيله
والرأى عند طريده ، والعلم عند غريبه ، والحكم عند دخيله

ونمضى مع الرصافى فى سخطه وثورته واستنكاره للوضع فى العراق حتى نقف وإياه عند عام ١٩٢٩ ، حيث ينشدنا قصيدة فى حفلة أقيمت لتكريم المستر كراين ، الثرى الأمريكى الشهير ، بمناسبة مجيئه إلى بغداد فى هذا العام ، ولا نزال نقرأ له نفس المعانى السابقة ، ونحس فيه نفس الروح الوثابة . فهو يشكو إليه فساد الحكم

(١) الديوان ص ٤٢٥ .

فى العراق ، ويذكر له أنه فى حقيقته حكم ذو وجهين ، حكم الأمر فيه للحكومة العراقية ، تتصرف فيه فى الظاهر ، وحكم باطن ، ويتصرف به الانكليز حسبما تقتضى خططهم ومآربهم الاستعمارية ، ويوجه خطابه بعد ذلك متسائلا باستنكار : وهل يجوز هذا فى دول الغرب يامستر كراين ؟ !

وإذا تسأل عما هو فى بغداد كائن
فهو حكم مشرق الضرع غربى الملابن
وطنى الاسم لكن انكليزى الشناشن
عربى أعجمى معرب اللهجة راطن
فيه للايعاز من لندن يالأمر مكامن
هو ذو وجهين وجه ظاهر يتبع باطن
قد ملكنا كل شىء نحن فى الظاهر لكن
نحن فى الباطن لا نملك تحريكا لساكن
أفهذا جائز فى الغرب يامستر كراين[1]

ومن ثم يتابع الرصافى خطته فى الهجوم على رجال الحكومة ووزرائها ، على اعتبار أنهم متضامنون فى المسئولية الملقاة على عاتقهم ، ومحاسبون من اجل تساهلهم وتفريطهم بحق هذا البلد الذى يجب أن يعملوا لصالحه ، وصالح أبنائه ، لا أن يرتموا فى أحضان سادتهم الانكليز ، ويضعون أنفسهم تحت تصرفهم ومشيئتهم .

إن هذا المعنى قد وضحه الرصافى فى قصيدته المشهورة (الوزارة المذنبة[2]) التى هاجم فيها الوزراء والحاكمين هجوما مرا عنيفاً ، وأعلن أنهم مذنبون بالتضامن فى حق هذا البلد المسكين .

ولقد فسر الرصافى فى هذه القصيدة ، مفهوم الوزارة ومعناها فى العراق تحت حكم الانتداب ، وبين العوامل التى تلعب دورها من وراء ستار فى تسيير دفة الحكم فى العراق ، كما بين أن الوزير لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، وإنما الذى يملكه هو

(١) انظر القصيدة فى الديوان ص ٤٣٨
(٢) الديوان ص٤٦٦ .

المستشار البريطانى . ولا ينسى ، وهو يوضح ذلك كله ، أن يذكر بسخرية لاذعة ، الصفات التى تؤهل الرجل للوصول إلى هذه المناصب فيقول :

هى للجاهل عز ولذى العلم حقاره
ملك البدو بها الأمر على أهل الحضاره

أما أعمالهم الوزارية ، فيرسمها الرصافى على الوجه الآتى :

فوزير القوم لا يعمل من غير اشاره
وهو لا يملك أمرا غير كرسى الوزاره
يأخذ الراتب إما بلغ الشهر سراره
ثم لا يعرف من بعد خراب أم عماره

وجدير بنا أن نذكر هنا ، أن العراق كان يعج بالمستشارين والموظفين البريطانيين ، حتى أن عددهم ما بين سنه ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٣ كان (٢٩٠٦) موظفا ، وقد ظل محتفظا بهذه النسبة العالية ، على الرغم من أن عددهم قد انخفض قليلا فيما بعد . ولقد كان لكل وزارة مستشار ، فمستشار لوزارة الدفاع ، وآخر للداخلية ، وثالث للمعارف ، ورابع لوزارة الاقتصاد ، ومفتش عام للمعارف ، ومفتش عام للأوقاف . (والمتصرفون الذين يتولون إدارة الألوية العراقية وعددها أربعة عشر لواءا كان إلى جانب كل منهم مفتش إدارى إنكليزى يقدم إليه الرأى والمشورة[1]) .

وهؤلاء جميعا يتلقون أوامرهم وتعليماتهم من المندوب السامى البريطانى الذى كان مرتبطا هو الآخر بوزير المستعمرات البريطانى[2] .

ولهذا السبب ، كان لا يفوت الرصافى أن يصف وزراء الدولة بأنهم اتباع ، وأنهم مأجورون ، لايملكون من أمرهم شيئاً ، وما هم بمستطيعين أن يكونوا أحراراً فى أعمالهم ، فيقول[3] :

كم وزير هو كالوز ر على ظهر الوزاره

(١) النظام السياسى فى العراق للدكتور محمد عزيز ص ٩٦ ، مطبعة المعارف ببغداد ١٩٥٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٩٨ .
(٣) الديوان ص ٤٦٦ .

مقحم لو كان لفظا شخصه كان أستعاره
ووزير ملحق كالد يل فى عجز الحاره
ذنب أصبح للحكم به أقبـــح شـــاره
ذنب يستوجب الاخـــلاص والصدق انبتاره

القصيدة . . .

ويشير الرصافى فى قصيدته (الوزارة عندنا[1]) إلى ذلك الرضاء التام الذى يجب أن يحصل عليه الوزراء من قبل سادتهم الإنـكليز ، حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى مراكزهم الرفيعة هذه . وقد شبه هذا الرضا بثوب جميل يفصل بلندن ، وأنه ليس بمقدور أى فرد أن يلبسه مالم يكن قد حاز اعجاب الإنـكليز ورضاهم ومودتهم عليه .

إن الوزارة لا ابا لك عندنا ثوب يفصل فى معامل لندنـا
لا يرتديه سوى أمرىء أضحى له طبعا وداد الإنـكليز وديدنا

وأما أن يستوزر العوام الجهال لوزارة المعارف ، فإن هذا مالا يستطيع السكوت عليه ، ومالا يستطيع أن يدعه وشأنه دون أن ينتقده انتقاداً مراً شديداً . وهو يتساءل بمرارة : هل يصل الأمر بالعراق إلى أن يتولى وزارة المعارف ، وزارة العلم ، من هو جاهل ، ومن عوام الناس الذين لا يفقهون من العلم شيئاً ؟ !

ويح المعارف لا يستوزرون لها إلا الذين لوزر الجهل قد وزروا
فأى حرمة علم هم قد انتهكوا بذا وأى زمام للعلى خفروا
هبهم قد احتقرونا فى مواطننا سياسة فعلام العلم يحتقر[2]

هذا هو موقفه من الحكم القائم فى ظل الانتداب البريطانى .

وفى هذه الفترة — فترة الانتداب — من الطبيعى أن يحاول الإنـكليز ربط العراق بعجلة استعمارهم ربطاً محكما ، ففرضوا عليه بعض المعاهدات الجائرة مثل معاهدات عام ١٩٢٢ ، وعام ١٩٢٦ ، وعام ١٩٢٧ ، وعام ١٩٣٠ .

(١) الديوان ص٥٠٦ .
(٢) الديوان ص ٥١٢ .

ونحن سنقتصر فى كلامنا التالى على أهم معاهدتين من هذه المعاهدات ، وهما المعاهدتان الأولى والأخيرة ، اللتان وقف الرصافى منهما موقفاً حازماً شديداً .

أما المعاهدة الأولى ، وهى معاهدة ١٩٢٢ ، فقد رأينا من قبل كيف تم عقدها ، كما ذكرنا بعض موادها القاسية التى قيدت العراق فى جميع شئونه الداخلية والخارجية ، كما وضحنا موقف الشعب والصحافة منها .

ومن الطبيعى ، أن هذه المعاهدة لا يمكن بحال من الأحوال أن تحوز ثقته ، وتنال رضاه . وإنها وإن كانت قد وصفت بأنها معاهدة تحالف متكافئة بين العراق وبريطانيا ، فإنها فى نظر الرصافى — وعند التحقيق — معاهدة جائرة ظالمة ، ما دامت هذه هى شروطها وبنودها ، وما دام أغلب نواب الشعب قد أجمعوا على رفضها رفضاً باتاً ، ولم يصادقوا على ابرامها إلا بعد الوعد والوعيد ، وإلا بعد مرور سنتين من عقدها كما ذكرنا من قبل .

إن هذه المعاهدة المليئة بالقيود والأصفاد ، قد شبهها الرصافى تشبيها لطيفاً ، حيث صورها بصورة ذلك العهد الذى يقوم بين الشاة والرئبال . فأى عهد ذلك الذى سيقوم بين كليهما ؟ ومن يستطيع أن يتصور أن الشاة ستأمن جانب الرئبال الغادر اللئيم ؟ !

يقول الرصافى فى قصيدته (عند نشر المعاهدة[1]) .

نشروا المعاهدة التى فى طيها قيد يعض بأرجل الآمـال
قد أبلمونا حبـة استعبادنا لـكن مموهـة بالاسـتقلال
والعهـد بين الإنـكليز وبيننا كالعهد بين الشـاة والرئبـال
من ذا رأى ذئب الذئاب مصافحاً بتودد حملا من الأحمـال
لـكنهم خافوا انفكاك قيودنا فاسـتوثقوا منهن بالأقفـال
كتبوا لنا تلك العهود وإنمـا وضعوا بها قفلا من الأقفـال

أما المعاهدة الثانية التى عارضها الرصافى بشدة وحزم ، فهى معاهدة عام ١٩٣٠ التى

(١) الديون ص ٥١٢ .

قدمها للمجلس نورى السعيد ، رئيس الوزراء فى ذلك الوقت . ولقد كان الرصافى يومئذ نائباً فى المجلس النيابى العراقى ، فلعب دوراً هاماً فى تبصير أعضاء المجلس ، والرأى العام العراقى ، على حقيقة هذه المعاهدة بكلمة ألقاها فى المجلس ، فند فيها مواد هذه المعاهدة تفنيداً جريئاً حازماً .

وقد تساءل : أية معاهدة هذه تقوم بين طرفين أحدهما قوى والآخر ضعيف ؟ ! وأية منافع سيجنيها العراق من جراء عقد هذه المعاهدة ؟ !

وفى السطور التالية ، سنذكر بعض الفقرات من هذا البيان الرائع ، وقد نقلناه عن محاضر جلسات المجلس النيابى العراقى فى يوم ٣٠ حزيران (يونيه) ١٩٣٠ (الجلسة السابعة) .

يقول الرصافى بعد ديباجة يدعو فيها إلى حرية القول ، واحترام رأى المتكلمين ، وإن كان مخالفاً لآراء البعض الآخر . . .

« أرى أن هذه المعاهدة تشترك مع المعاهدات السابقة فى ثلاثة أمور :

الأول : أن هذه المعاهدة يجب قبل كل شىء أن تستند إلى قوة لتكون ذات قيمة ، فقيمة كل معاهدة تساوى قوة عاقدها . وبالنظر إلى هذه الحقيقة ، تكون معاهدتنا مع بريطانية كمعاهدة الحمل مع الذئب ، وما أدرى أية قيمة تكون لمعاهدة تقع بين الحمل (الخروف) والذئب ؟

الثانى : المعاهدات كلها تقوم على أساس تبادل المنافع ، وعلى أساس الغرم بالغنم ، وإلا كانت ضرباً من ضروب اغتصاب البرىء والتسخير .

وإذا لم تكن هناك منافع متبادلة كانت المعاهدة غير صحيحة . وكلما نظرت فى المعاهدات السابقة ، وفى هذه المعاهدة ، لم أجد إلا منافع لبريطانية تضمنها هذه المعاهدة . وأما المنافع التى تضمنها بريطانية تجاه هذه المنافع فما هى ؟ وهل ضمنت شيئاً ؟ . . كلا ما ضمنت شيئاً منها .

الثالث : نحن فى عقد هذه المعاهدة لسنا على اختيار ، بل على اضطرار . كلنا

نعلم أن العراق فى قبضة بريطانية الحديدية أو النارية . وأن الانكليز لهم سلطة نافذة قهارة جبارة غدارة . ففى هذا الوضع نعقد مع الانكليز معاهدة ؟ بمعنى أنهم يملون علينا ونحن نكتب . إذاً ليس لنا خيار ، بل بصورة الإكراه . ولا أعرف ما مبلغ معاهدة تعقد بهذه الصورة من الصحة[1] » .

وقد بين لنا الرصافى الطريقة التى سلكتها الحكومة عند تصديق هذه المعاهدة . وحدثنا بأن الانتخابات التى جرت لانتخاب هذا المجلس كانت مزورة وغير حرة ، وأنها جرت على درجتين ، أى أن الناخبين من كافة الناس ممن تتوفر عندهم شروط الانتخاب ، ينتخبون المرشحين الثانويين ، وهؤلاء ينتخبون بدورهم النائب الذى يراد انتخابه . ولا شك أن الانتخابات ، وهى على هذه الصورة ، سيكون من الميسور جداً التلاعب فيها . وأنه من الممكن فوز من ترغب الحكومة فى فوزه ونجاحه فى هذه الانتخابات . ولهذا فقد فاز فيها من رضيت عنهم الحكومة ، ودخل فى المجلس النيابى نواب غير كفاة ، والكفاة منهم لم يكونوا أحراراً[2] .

وحدثنا الرصافى أيضاً أنه هو الشخص الوحيد الذى رفض هذه المعاهدة دون أن يواضعه على رفضها أحد . أما المعارضة ، فقد وصفها بأنها معارضة مصطنعة ، تزعمها ياسين الهاشمى مع بضعة نواب من أصحابه ، وتواضعوا على أن يعارضوا المعاهدة ، ويصوتوا برفضها ، وكذلك فعلوا ، وإن الذى أوحى إليهم بهذه المعارضة ، هى الحكومة نفسها[3] .

وينتهى إلى القول بأن (كل ما جرى فى المجلس النيابى فى شأن هذه المعاهدة لم يكن إلا بتدبير وتمهيد من الحكومة . فدعوى أن ما وقع من الأمور النافية لاستقلاله قد وقع برضى من الشعب العراقى غير صحيح[4]) .

---

(١) نص هذا البيان كاملا فى ملاحق الرسالة .

(٢) آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع للاستاذ سعيد البدرى ص ٢٨ مطبعة المعارف ببغداد ١٩٥١ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٩

(٤) المصدر السابق ص ٢٩ .

هذا ولم نجد فى ديوانه أية قصيدة تشير إلى موقفه من هذه المعاهدة . ولعله اكتفى ببيانه فى مجلس النواب عن نظم القصائد فى هذه المناسبة ، وإن كان الدكتور بدوى طبانة قد أشار إلى أن قصيدة (عند نشر المعاهدة) التى أشرنا إليها آنفا ، قد نظمها الرصافى حينما كان عضواً فى هذا المجلس ، أى فى عام ١٩٣٠[١] . والصحيح هو ما ذكره الأستاذ مصطفى على من أن هذه المعاهدة قالها الرصافى بعد أن أعلنت المعاهدة الأولى ، معاهدة ١٩٢٢[٢] .

وظل الرصافى ، على هذه الصورة ، ساخطاً ثائراً ، إلى أن حدثت فى العراق ثورة جبارة ، هى ثورة رشيد عالى الكيلانى .

فما لاشك فيه ، أن حكماً كهذا الحكم ، يقوم على الارهاب ، ويستند إلى البطش والتنكيل ، ويزمع على وضع العراقيل تلو العراقيل أمام سير العراق الطبيعى نحو التحرر والوحدة ، لا يمكن أن يدوم بحال من الأحوال ، وأنه لا محالة سيأتى اليوم الذى يتكاتف فيه أبناء الشعب ، ويتضامنون تضامناً كاملا للوقوف صفاً واحداً بحزم وإرادة أمام الاستعمار البريطانى ، وأمام صنائعه من الخونة والمأجورين .

ووجد الشعب هذا اليوم فى ثورة رشيد عالى الكيلانى عام ١٩٤١ . ففى هذا العام أرادت الحكومة الوطنية برئاسة الكيلانى ، ويؤيده ، ويشد من أزره ، أربعة ضباط قوميين برتبة عقداء ، وهم الشهداء صلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وكامل شبيب وفهمى سعيد ، أرادت استغلال فرصة اشتراك الانكليز فى الحرب العالمية الثانية . فأجمع رئيس الحكومة ومعه هؤلاء الضباط الأربعة على نيل استقلال العراق التام ، والعمل على تحقيق الوحدة العربية بخطوات سريعة ، بخوض معركة فاصلة مع الانكليز ، مستندين فى ذلك إلى قوة الشعور القومى السائد فى العراق ، وإلى وعود دول المحور ، وخاصة المانيا ، لمساعدة هذه الثورة فيما لو قامت لطرد الانكليز من البلاد .

ومن هنا بدأت العلاقات بين العراق وبريطانية تسوء وتتأزم يوما بعد يوم ،

(١) معروف الرصافى دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية تأليف الدكتور بدوى طبانة — ص ١٣٦ — ١٣٧ (الطبعة الثانية) مطبعة الرسالة بمصر سنة ١٩٥٧

(٢) ادب الرصافى نقد ودراسة للاستاذ مصطفى على ص١٢٨ ، مطبعة السعادة بمصر١٩٤٧ .

حتى بلغت حداً كبيراً ، حينما رفضت الحكومة (السماح بأنزال قوات بريطانية جديدة إلا بعد أن تجتاز الأراضى العراقية تلك القوات التى نزلت أولا فى ١٧ و ١٨ نيسان[١]) إذ كانت بريطانيه قد اشترطت نزول هذه القوات فى العراق ، بالرغم من القوات الموجودة فيه ، مستندة فى ذلك إلى نصوص معاهدة ١٩٣٠ .

ولذلك أشارت الحكومة البريطانية على الوصى عبد الاله بلزوم اقالة الوزارة ، حتى يمكن تفادى وقوع ما يعكر صفو العلاقات القائمة بين كل من العراق وبريطانية .

وبالفعل استجاب الوصى لطلب الانكليز وأقال وزارة الكيلانى . غير أن رئيس الحكومة ظل فى منصبه ، مستنداً فى ذلك إلى قوة الشعب من جهة ، وإلى قوة هؤلاء الضباط الأربعة الذين كانوا يؤيدونه من جهة أخرى .

وهكذا اشتدت الخلافات بين رئيس الحكومة ومعه الضباط من جهة ، وبين الوصى والانكليز من جهة أخرى . وكان من نتيجتها أن هرب الوصى من بغداد سراً إلى المفوضية الأمريكية ، ومنها انتقل خفية إلى الحبانية ، حيث انتقل منها إلى البصرة بطائرة بريطانية ، ومن ثم ذهب إلى شرق الاردن حيث التحق بهناك نورى السعيد وجميل المدفعى وعلى جودت الأيوبى[٢] .

وعلى أثر هروب الوصى من بغداد ، قامت هذه الحرب التى دامت أربعة أسابيع . أحرزت الحكومة خلالها مالا يستهان به من مؤازرة الرأى العام العراق والعربى ، الذى لم يكن مرتاحا لسياسة بريطانية تجاه القضايا العربية ، وتجاه الاستقلال التام للعراق .

ولقد كان من الطبيعى أن يخسر العراق الحرب ، لعدم وجود الاستعداد الكافى والامكانيات اللازمة لخوض هذه المعركة . كما أن أمل الحكومة العراقية المتعلق بمساعدة المانيا لم يتحقق ، لأن المانيا نفسها لم تكن على استعداد تام — فيما يبدو — لمثل هذه المساعدة فى ذلك الوقت .

(١) مقدمة فى دراسة العراق المعاصر للدكتور زكى صالح ص ١١٤ ، مطبعة الرابطه ببغداد ١٩٥٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٢ .

وهكذا استطاعت القوات البريطانية من دخول بغداد ، زاحفة إليها من شرق الأردن عن طريق معسكر الحبانية ، وهو أحد معاقل الجيش البريطانى فى العراق ، وكان يقود جيشها القائد البريطانى المشهور الجنرال كلوب ، أو كما يلقبه العراقيون (أبو حنيك) . وكان فى معيته الهاربون الأربعة ، بعد أن أنزلت هذه القوات فى الفلّوجة ، (وهى مدينة تقع غربى بغداد ، وتبعد عنها بحوالى خمسين كيلو مترا) أشد بطشها وتنكيلها ، وأفظع جورها وغدرها .

وهنا نقول ، لا مراء فى أن يستبشر الرصافى بهذه الثورة استبشار عظيما ، ويفرج فرحا شديدا . وكيف لا يستبشر بها وقد قامت ضد الانكليز الذين كان يكرههم كرها كثيرا ، والذى كان لا يفتأ يدعو إلى الثورة ضدهم ، والانقضاض على أذنابهم ومأجوريهم .

وللرصافى فى تأييد هذه الثورة قصيدة مشهورة يرددها الناس ، وإن لم تكن منشورة فى الديوان ، وهى بعنوان (اليوم الأغر — يوم الجيش وزعيمه) وتقع فى عشرين بيتا ، أنشدها فى مارس عام ١٩٤١ ، وهو شهر الثورة ، يحيى فيها الجيش العظيم الذى قام بهذه الثورة المباركة فى وجه الظلم والطغيان البريطانى ، ويطلب إلى الوطن أن يقر عينا ، ويتطرب شكراً وحمداً ، لهذا اليوم المنشود الذى ثار فيه الجيش والشعب حفاظا على حريته واستقلاله من المستعمرين البغاة .

وهذه هى القصيدة كاملة :

اليوم قرى يامواطن أعينا ... وتطربى بالحمد منك الألسنا
فلقد وفاك الجيش حقك سابغا ... إذ قام فيك على البلاد مهيمنا
وسعى يحوطك بالصوارم طائما ... لزعيمه العالى الرشيد مذعنا
جيش إذا اقتحم المخاطر واثقا ... بالله والنصر المؤزر مؤمنا
مقوشحا عز الشهامة جاعلا ... كزعيمه حب الوطن ديدنا
سر يازعيم الشعب غير منازع ... بالجيش للعز المجلل بالسنا
وأعد لنا عهد الرشيد وحاكه ... بالاسم والهمم الرفيعة والكنى

إنا لمن قوم أبت أحسابهم ... إلا ذرى العز المؤثل مسكنا
غرسوا الفخار على مسيل دمائهم ... وتفيأوا الشرف الشهى المجتنى
وفوا المواطن حقها وتسنموا ... أعلى المفاخر بالصوارم والقنا
قد اخلصوا لله حب بلادهم ... فتسربلوا ابهى البرود من الثنا
كفروا بأنعمها وهم أبناؤها ... فلذلك باءوا بالفضيحة فى الدنا
نشأوا بها مثل العقارب دأبها ... نفث السموم فمن هناك ومن هنا
وإذا شممت بناشقيك طباعهم ... أعطتك طينتهم شميما منتنا
وغدوا لهم عونا علينا ظاهرا ... يتحينون لنا الشقاق تحينا
تركوا مواطنهم تنوء بعبئهم ... وتقولوا بالمين عنها والخنى
فليرجفوا بعد النزوح فما هم ... إلا الذباب قد استطار مطنطنا
وليخسأوا إن البلاد جميعها ... تقفوا الزعيم وترتضيه مهيمنا
تبا لمن قد خان عرش مليكه ... وبنى أبيه ونفسه والموطنا
ومكائد السفهاء واقمة بهم ... وعداوة الشعراء بئس المقتنى

ولقد قلنا سابقاً إن الرصافى كان يومئذ يسكن فى الفَلّوجَهْ ، وقد شاهد بعينيه ما قام به الانكليز من ارهاب وبطش فى هذه المدينة ، فأحزنه ذلك ، وحز فى نفسه أن يرى ابناء جلدته يلاقون ما يلاقون من مصير سىء على أيدى هؤلاء الطغاة الباغين ، فنظم قصيدة عنوانها (يوم الفلوجة[1]) تفيض لوعة وحسرة على أهالى الفلوجة وفيها يقول :

أيها الإنكليز لن نتنامى ... بغيكم فى مساكن الفلوجه
ذاك بنى لن يشفى الله إلا ... بالمواضى جريحة وشجيجه
هو كرب تأبى الحمية أنا ... بسوى السيف نبتغى تفريجه
هو خطب أبكى العراقين والشام ... وركن البتية المحجوجه

ويصف ما حل بها على أيديهم فيقول :

حلها جيشكم يريد انتقاماً ... وهو مغر بالساكنين علوجه

(١) الديوان ص ٤٦٨ .

يوم عاثت ذئاب آثور فيها عيشة تحمل الشنار سميجه
فاستهنتم بالمسلمين سفاها واتخذتم من اليهود وليجه
وأدرتم فيها على العزل كأسا من دماء بالغدر كانت مزيجه
واستبحتم أموالها وقطعتم بين أهل الديار كل وشيجه

القصيدة . . .

ولما أعدم الضباط الأربعة الذين تم القبض عليهم فى داخل العراق وخارجه ، نظم الرصافى قصيدة تعد من غررقصائده وعنوانها (الأفول المشرق[1]) وفيها سكب الرصافى كل قطرة من قطرات سخطه وحنقه وألمه على أولئك الذين غيبوا أجسادهم إلى الأبد ، ودسوها فى الرموس ظلماً وغدراً . ومنها :

شنقوكم ليلا على غير مهل ثم دسوا جسومكم فى الرموس
شنقوكم لأنكم قد أبيتم أن تكونوا فى ربقة الإنكليس
فاستحقوا اللعن الذى كررته خاليات القرون فى أبليس

ومنها :

فى سبيل الأوطان متم ففزتم بأجل التمجيد والتقديس
وستبقى الذكرى لكم ذات رمز هو تعظيمكم بخفض الرؤوس
وسيجرى احترامكم فى مجارى شرف خالد لكم قدموس
إن يوماً به نعيتم إلينا يوم بؤس كحرب يوم البسوس
برئت ذمة المروءة منا إن نسى يوم شنقكم أو تنومى

وأخيراً نشير إلى تلك القصيدة التى نظمها الرصافى واصفاً بسخرية لاذعة دخول الوصى عبد الإله بغداد مع الانكليز مشبهها أياه بعروس يوم زفافها ، حيث تحيط بها الفتيات والنساء ، ولكنه زفاف فيه الشقاء وفيه النحوس . والقصيدة بعنوان (يوم العروس[2]) وفيها يقول :

زفت إلينا العروس وزوجها الإنكليس[3]

(١) الديوان ص ٢٨٣ .
(٢) الديوان ص ٣٩٤ .
(٣) الانكليس يعنى الانكليز وليس كما جاء فى هامش الديوان أن الانكليس بفتح الهمزة سمك شبيه بالحيات ، ردىء الغذاء (انظر هامش الديوان) .

زفت إلينا زفافاً فيه الشقا والنحوس
المهر منا دماء والعروس حرب ضروس
كم مزقت حرمات وكم أضيعت نفوس
وكم أذيرت علينا من المنايا كئوس
وكل هذا لتحظى بالبعل تلك العروس
يوم العروس لعمرى يوم كريه عبوس

وتمضى الأيام بمعروف الرصافى سراعاً ، ويلاقى مصيره المحتوم فى عام ١٩٤٥ ، ولم يتحقق هذا الاستقلال المنشود الذى طالما دعا إليه ،وعمل من أجله . وكان لا يفتأ يندد بالوضع القائم ، ويدعو إلى التخلص منه ، لأن الوضع فى العراق أصبح مما لا يمكن السكوت عليه ، ما دام الاستعمار باقياً ،وما دام الإنكليز هم أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد ، وكلمتهم هى المسموعة ، وإرادتهم فوق كل إرادة . وما هذا الإستقلال الذى يبدو فيه العراق إلا استقلالا شكلياً ، وهو فى جوهره نفس ذلك الإنتداب ، ولكن على وجه من الإستقلال المقنع الذى يظهر فيه العراق مستقلا ظاهراً ، ولكنه فى حقيقة الأمر مكبل بقيود غليظة من الذل والاستعباد .

فى قصيدته المسماة (بين الإنتداب والاستقلال)[1] والتى نظمها بتاريخ ٢١ آب ١٩٤١ ، أى بعد ثورة الكيلانى بعدة أشهر ، يذكر الرصافى هذا المعنى ، وهو أن الاستقلال ما هو إلى ذلك الانتداب بعينه ، وإن تبودلت الأسماء على المسمى الواحد فيقول :

تبدلتم استقلالنا بانتدابكم ولكن على وجه لنا هو معبد
خلقتم لنا من كل عهد مموه قيودا بها إستقلالنا يتقيد
إلى أن غدا استقلالنا ضحكة الورى به ساخر كل امرىء ومندد

ويسأل الرصافى : وكيف يكون الاستقلال حقيقة ماثلة أمام الأعين ما دام الحكم فيه للسفير يتصرف به كيفما يشاء ، وما دام الإنكليز لا يزالون يملأون

(١) الديوان ص ٤٢١ .

دوائر الدولة العراقية ، ويعملون حسبما تقتضيه مصالحهم الاستعمارية ، ومطامعهم الشخصية ؟!!

وما شأن ذياك السفير الذى له على الجانب الغربى قصر مشيد
وكانت لكم من قبل فينا استشارة فزالت ولكن دام منكم ترصد

فهل هذا هو الاستقلال ؟ وهل هذه هى حقيقته ؟

وإذا كان الأمر كذلك ، فما شأن هذا الانكليزى الذى يجلس على كرسى الحكم فى وزارة الداخلية ، بله كل وزارة ؟ !

سل الانكليزى الذى لم يزل له بدست وزارة الداخلية مقعد
أأنت وزير ام عميد وزارة نراك إليها كل يوم تردد
فما أنت ملقاة إليك أمورنا تحل لنا ماشئت منها وتعقد

القصيدة . .

ولعل أكثر ما كان يغيظ الرصافى ، هو ما يشيعه الانكليز من أنهم ليسوا راغبين فى البقاء فى العراق ، إلا لأنهم يعملون من أجل مصالحه ، ومن أجل تحقيق أسباب السعادة والرفاهية لأهله ، وما شاكل ذلك من الحجج والتعلات !

يقولون إنا عاملون لسعدكم ولم يعملوا غير الكوارث والكرث[1]

ومن حق الرصافى ألا يتوقع منهم خيرا ، بل شراً مستطيراً . فلقد خبرهم بنفسه ، وخبر سياستهم ، وعرف أن هؤلاء (التيمسيين) قوم قد جبلوا على الخسة والدناءة ، واللؤم والغدر . فهذه هى طباعهم ، وتلك هى صفاتهم :

دع اللوم واسمع ما أقول فانني قتلت طباع التيمسيين بالبحث
كأنهم والناس عث وصوفة وهل يستقيم الصوف فى عيثة العث
فكم حرثوا فى أرض مستعمراتهم مظالم سوداً كن من أفظع الحرث
وكم ايقظوا والناس فى الدور نوم بها فتناً كالدجن يهمى على الوعث

(١) الديوان ص ٤٧٠ .

وهم يأكلون الزبد من منتجاتها ويلقون للاهلين منهن بالفرث
فيحظون منها بالنفائس دونهم ويعطونهم منها السقيط من الحرثى
زر الهند إن رمت العيان فكم ترى على الأرض من غبر هناك ومن شعث[1]

هذه هى الخطوط العامة والرئيسية لموقفه من الحكم الوطنى فى العراق ، وموقفه من الاستعمار البريطانى ، والمعاهدات وغيرها .

وقبل أن ننتهى من بحث هذا الموضوع ودراسته ، حرى بنا أن نشير بكل جلاء ووضوح إلى حقيقة راهنة ، وهى أن الرصافى لم يكن دائما ، وفى أغلب الأوقات ، يتخذ مثل هذه المواقف السلبية المتطرفة ؛ فالحق ، أن له مواقف سياسة كان ينزع فيها نزعة ايجابية ، سواء من الانكليز أو من الحكومة ، ولكن على ضوء من المصلحة العامة فى أحايين كثيرة ، وعلى هدى من دراسة ظروف بعض المناسبات ، وتفهم حقيقتها على وجه من الوجوه .

من ذلك أنه مدح الملك فيصل بعد تتويجه ملكا على العراق ، وأنه رثاه بقصيدة. أما قصيدته فى المدح فهى (فى دار النقيب[2]) ، وأما قصيدته فى الرثاء فهى قصيدته (فى يوم أبى غازى[3]) .

ومن ذلك أيضاً ، قصيدته التى نظمها فى مدح نورى السعيد ، وأنشدها فى الحفلة التى أقيمت فى البلاط الملكى حينما أنعم عليه الملك فيصل بوسام الرافدين من الدرجة الأولى ، وذلك فى يوم ٢٦ آذار (مارس) عام ١٩٣٢[4] .

إلا أن الرصافى سرعان ما غير رأيه فيه ، واهتدى للحقيقة فيما بعد[5] فقال :

إن نورى السعيد قد كان قبلا آدمياً فصار بالمسخ قردا
قد أبى أن يعيش حرا مع العر ب فأمسى للتيمسيين عبدا
مثل ابليس ما أطاق سجوداً وأطاق الهوان لعنا وطردا[6]

(١) الديوان ص ٤٧٠ .
(٢) الديوان ص ٢٨٧ . (٣) الديوان ص ٣٣٦ (٤) الديوان ص ٥٢٢ .
(٥) القومية والاشتراكية فى شعر الرصافى للأستاذ هلال ناجى ص ١٢٠ مطابع دار القلم للملايين بيروت ١٩٥٩ .
(٦) هذه الأبيات لم تنشر فى الديوان .

ومن ذلك أيضاً ، البيان الذى أعلنه الرصافى للعراقيين مرشحاً فيه نفسه للنيابة فى المجلس التأسيسى الذى تم انعقاده فى عام ١٩٢٤ ، والمنشور فى جريدة (الاستقلال) فى العدد ١٩٣ لسنة ١٩٢٣، وحدد فيه نوعية العلاقات التى يجب أن تسود بين العراق وبريطانية . فهو بعد أن يقر باستسلامه للامر الواقع ، من أن الحرب العالمية الأولى قد ساعدت الانكليز على بسط سيطرتهم ونفوذهم على العراق ، وأن ذلك قد حصل رغم ارادتنا ومشيئتنا ، يعود فيؤكد أن من الضرورى ، بناء على مقتضيات المصلحة العامة فى العراق ، افراغ هذه السيطرة فى قالب نستفيد منه فى نشأتنا وتطورنا الحاضر . وهو قد أفرغها على الوجه الآتى :

(إننى أعتقد أن للانكليز اليوم منفعة اقتصادية فى بلادنا ، وأرى من الواجب علينا أن نعينها تعييناً واضحاً ، وأن نحددها تحديدا بينا ، بحيث لا تكون مخلة باستقلالنا ، ولا مجحفة بمنفعتنا . ولا ريب أن المنافع الجارية بين الأمم إذا لم تكن متقابلة على وجه التبادل ، كانت ضرباً من التحكم الذى تأباه أمة على غيرها .

وهكذا يلزم أن تكون مناسباتنا مع الانكليز قائمة على تبادل المنفعة . فلنا عليهم أن يعترفوا باستقلالنا قبل كل شىء ، وأن يكونوا لنا عوناً فى تثبيت دعائم نشأتنا الحاضرة ، وتقدم بلادنا فى العمران ، دون أدنى سلطة لهم علينا ، ودون أدنى تدخل فى أمورنا السياسية .

ولهم علينا بمقابلة ذلك ، أن تكون منفعتهم الاقتصادية مضمونة لهم عندنا ، ومحفوظة لهم بأيدينا لا بأيديهم . ولا أنكر على الحكومة أن تستخدم بعض رجال الانكليز فى خدمات نافعة عمرانية على شرط أن يكونوا عندها كموظفين عراقيين بيدها عزلهم ، كما بيدها توظيفهم ، لشدة احتياجنا فى الوقت الحاضر إلى أمثال هؤلاء من رجال العلم والفن ، ولا أجيز أن تكون مناسباتنا مع الانكليز أكثر مما ذكرت)[1] .

هذه بعض الأمثلة على مواقفه الإيجابية من الحكم الوطنى فى العراق ، ومن الاستعمار البريطانى أيضاً .

وهو من ناحية أخرى ، كان يعرف أن هناك من الوزراء والمسئولين من كانوا

(١) البيان كاملا فى ملاحق الرسالة .

يرومون إصلاح الأوضاع الراهنة فى العراق ، ويبتغون مصلحة البلاد فى جميع شؤونها ، ولكنهم كثيراً ما كانوا يرتطمون بصخرة الاستعمار البريطانى الذى كان لا يفسح أى مجال لأى عمل من الأعمال النافعة ، والاصلاحات اللازمه . فمن الحكام الذين راموا صلاح وطنهم ، وابتغوا خيره ، هو المغفور له عبد المحسن السعدون الذى انتحر فى عام ١٩٢٩ ممثلا مأساة المخلصين من أبناء هذا الشعب ، بعد أن لم يوفق فى خدمة شعبه خدمة حقة ، فترك الدنيا ، وترك وراءه كلمته الخالدة (الأمة تطلب الخدمة والانكليز لا يوافقون) . ولقد رثاه الرصافى بثلاث قصائد ، تعد من غرر قصائده فى الرثاء ، هى قصيدته (ميتة البطل الأكبر [1]) التى أنشدها فى اليوم الثالث من انتحاره ، وقصيدته (ميتة البطل الأكبر — منظر الرافدين[2]) ، وقصيدته (ذكرى فتى السعدون[3]) .

ولا يفوتنا بعد ذلك كله أن نتحدث الآن عن موقف الرصافى من الثورة العراقية ، ذلك الموقف الذى اتسم بالسكوت المطبق ، لأنه لم يتطرق إليها من قريب أو بعيد ، فى أحاديثه العامة والخاصة على حد سواء .

فلقد ذكرنا من قبل، لماذا قامت هذه الثورة ، وبينا أنها وإن لم يكتب لها النجاح فى طرد الانكليز من العراق ، أو القضاء على نفوذهم قضاء مبرما ، فإنها نجحت إلى حد ما فى إجبار الانكليز على تبديل الحكم الاستعمارى المباشر بحكم وطنى ، وإقامة أول حكومة وطنية فيه ، وإن كان هذا الحكم تحت إشرافهم وانتدابهم .

فليس بدعا ، والحالة هذه ، أننا كنا نتوقع مشاركته الجدية ، وتأييده التام ، لهذه الحركة الثورية التحررية التى قام بها الشعب العراقى ضد المستعمرين الانكليز الذين كان الرصافى يكرههم كرهاً شديداً ، ويندد بهم ، ويدعو دائما إلى الثورة ضدهم ، وضد أذنابهم من الخونة والمأجورين .

وليس من حقنا أن نلوم الرصافى ، أو نعتب عليه لتقصيره هذا ، إلا لأنه كان قد

(١) الديوان ص ٣٢٠ .
(٢) الديوان ص ٣٢٢ .
(٣) الديوان ص ٣٢٦ .

عودنا على أن يسرع فيلبي كل دعوة سياسية ، أو حركة ثورية تجتاح وادى الرافدين ، أو غيره من أرض الكنانة .

فما بالنا لم نسمع منه فى تأييد هذه الثورة قصيدة ما ، أو حتى بيتا من الشعر ؟ ! وما باله قد سكت عن هذه الثورة سكوتا ، لا يثير الدهشة والاستغراب فحسب ، بل يثير الحنق والسخط أيضا .

ولقد سألت مرة الأستاذ مصطفى على ، صديق الرصافى وراويته : لمَ لم يؤيد الرصافى الثورة العراقية ويقف إلى جانبها ؟ .

فأجابنى بقوله : ان الرصافى كان بعيداً عن العراق أثناء هذه الثورة ، إذ كان لا يزال فى القدس ، ولم يرجع إليه إلا فى عام ١٩٢١ كما هو معلوم .

ولكنى لم أقتنع بجوابه هذا . . .

وتساءلت : هل من المنطق والمعقول ألا يقرض الشاعر الشعر السياسى ، وحتى غير السياسى ، إلا إذا كان فى موضع المناسبة السياسية ، أو قريبا من أحداثها الجارية ؟

وأية مناسبة سياسية أكثر أهمية وخطورة من هذه المناسبة ! !

إنها ثورة ضد الظلم والاستعباد . .

إنها ثورة ضد الاستعمار . .

ومن ثم . . .

فقد وجدنا الرصافى ينظم الشعر فى كثير من المناسبات السياسية ، وهو بعيد عن موطن هذه المناسبة كل البعد .

ألم يهج سلطان مصر حسين كامل ، ووزيره حسين رشدى ، حينما وقفا إلى جانب الانكليز فى الحرب العالمية الأولى ، كما رأينا سابقاً .

ألم يستبشر الرصافى استبشاراً عظيما حينما انتصر مصطفى كمال اتاتورك على اليونان سنة ١٩٢٣ ، ويمدحه فى قصيدته (إلى بطل الشرق[1]) والتى يقول فيها :

(١) الديوان ص ٤٤٠ .

فيا أمضى الورى رأياً وسيفاً وأعرفهم بمصعد كل أوج
لقد أنقذت من أزمير خودا تسام الخسف فى يد كل علج
وقمت على البلاد مقام عيسى على مرضاه من عمى وعرج

أفلم يكن الرصافى بعيداً عن تركيا يومذاك ، وبعيداً عن هذه الحرب ذاتها ، لأنه — كما نعلم — كان فى هذا العام فى بغداد يصدر جريدته (الأمل) .

ولندع هذه الحرب ، فربما كانت لصيقة بعواطفه وشعوره الدينى ، وبغيرته على الوطن التركى ، على الرغم من أن مصطفى كمال قد ألغى الخلافة الإسلامية ، وأعلن تركيا دولة علمانية كما هو معلوم .

ونأخذ مثلا بعيداً عن عواطفه الدينية والوطنية ، هى قصيدته (يوم سنغافورة[1]) التى انتصر فيها لسنغافورة فى حربها ضد الانكليز وضد الأمريكان ، فى الحرب العالمية الثانية .

ونحن نسأل : ماله وحرب سنغافورة ؟ ! ثم ، أهو من أهل هذه البلاد ، ومصيره ومصير وطنه متعلقان بهذه الحرب ، حتى تتأجج عواطفه فى الدفاع عنها ، والوقوف إلى جانبها ؟

وقد يقال : إن موضوعها الإنسانى هو الذى أهاج الرصافى فانطقه بهذه القصيدة .

ونحن نقول : ألم تستحق الثورة العراقية بعضا من إنسانية الرصافى ، إن لم تكن كاملة غير منقوصة ، فيباركها ، ويؤيد القائمين بها .

وهكذا ، فليس فى وسعنا أن نسامح الرصافى على هذا الموقف الذى وقفه من الثورة العراقية . ولا نقبل ، بحال من الأحوال ، ما يقال إنه كان بعيداً عن العراق ، أو غير ذلك من الحجج والتعللات ! !

أليس هو القائل :

إذا ناب قومى حادث الدهر نابنى وإن كنت عنهم نازح الدار نائيا[2]

(١) الديوان ص ٤٧٣ .
(٢) الديوان ص ١٢٥ .

الباب الرابع

أدبه فى القومية العربية

مما لا شك فيه أن القومية العربية صارت حقيقة قائمة ، تثبت ذاتيتها ووجودها فى معركة التحرير والوحدة . ولان انتماء شخص ما إلى جماعة معينة ، أو قوم معينين ، هو ما تفرضه طبيعة الوجود فى هذا الخضم فى زحمة المعارك والاستيلاء والسيطرة ، بغض النظر عن تلك العاطفة الإنسانية التى غرست فى ذاتيته نحو بنى قومه وجلدته .

ولذا برزت للوجود حركات قومية ذات أثر فعال فى الحياة السياسية والفكرية والفنية . وظهرت أول ما ظهرت كفكرة ودعوة فى أوربا ، ثم وجدت هذه الأفكار تربة صالحة فى أقطار الشرق ، خاصة تركيا والبلاد العربيه .

ولما كان كثير من المفكرين والسياسيين يرون فى القومية مذهباً سياسياً (قوامه جمع أبناء القومية الواحدة على اختلاف أحوالهم وأديانهم فى وحدة جامعة ، وفى ظل دولة مستقلة ذات سيادة ، والاعتماد فى ذلك على الفطرة الطبيعية التي تربط بين أفراد الشعب الواحد الذين يتكلمون لغة واحدة ، ويعيشون فى أرض واحدة ، ولهم عادات متشابهة وثقافة مشتركة[1]) . .

وأن الوعى القومى العربى الذى بدأ يظهر فى أواخر العهد العثمانى صار يتخذ طابعاً سياسياً ، ولم يعد الاعتقاد به كمذهب عقائدى أو فكرى كافياً لتحقيق أهدافه وأمانيه ...

لذا عقدنا هذا البحث لدراسة أدب الرصافى القومى على ضوء هذا الرأى ، مبينين إيمانه بالقومية العربية ، ومقوماتها ، أولا ، والدعوة إلى تحقيق أهدافها ثانياً .

---

(١) الأمة العربية فى معركة تحقيق الذات للاستاذ محمد المبارك ص ٣٨ من منشورات مؤسسة المطبوعات العربية بدمشق ١٩٥٩ .

ونحن نرى لزاماً علينا أن نبين أولا ، وقبل كل شيء ، أننا حينما سنعرض لوعيه القومى هذا ، فإنما سنتحدث عنه بوصفه عقيدة واضحة المعالم بمعناها العلمى الدقيق . لاننا نلاحظ أن هناك بعض الصعوبات التى تجابه الباحث فى دراسة نزعته القومية من جراء تداخل بعض الأفكار والآراء والمعتقدات مع شعوره القومى هذا ، لسبب أو لآخر .

فمثلا ، على الرغم من أن شعوره القومى كان واضحا بينا ، فإنه من الصعب تحديد هذا الشعور وضبطه . فهو بالإضافة إلى كونه شاعراً عربياً ، فإنه كان شاعراً إسلاميا أيضاً ، ولم يستطع القارئ أن يميز بسهوله بين شعوره العربى وعاطفته الدينية فى كل مراحل حياته ، ذلك أنه على الرغم من دعوته للقومية العربية ، والإيمان بمثلها وأهدافها ، نراه يتحدث عن الإسلام ، ويدافع عن الأتراك العثمانيين مثلا ، باعتبارهم مسلمين ، ويقف من أعدائهم موقف المدافع الذى لا تغمز له قناة . وأنه أيضاً على الرغم من عاطفته الإسلامية ، نراه يدعو إلى الوحدة العربية ، وإذكاء الشعور القومى بين العرب ، ويبين لهم السبل لا نهاضهم ووحدتهم .

والأدلة على مانقول فى هذا الشأن كثيرة فى ديوانه . وأوضح مثل لهذا الامتزاج والتزاوج بين الإسلام والقومية العربية ، هو قصيدته (حكومة الانتداب) حين يتطرق إلى الماضى ، ويشيد بامبراطورية العرب المجيدة ...

إذ نرى أنفسنا حيال صعوبة بالغة فى التمييز بين لفظتى (إسلام) و (عروبة) فى هذه القصيدة .

والسبب فى ذلك كما نعتقد ، أن الرصافى كان عامر القلب بعروبته مؤمناً بدينه ، يدعو إلى العروبه والإسلام معا ، ولا يرى فى الدعوة إلى أحدهما خروجاً عن الآخر . فالعرب مادة الإسلام ، وبنصر الإسلام كانت عزة العرب .

ومن الصعوبات التى يجابهها الباحث حين الكشف عن وعى الرصافى القومى ، هو إلصاق اليهود بالعروبة فى بداية مراحل تفكيره القومى على الأقل . فالرصافى قد ردد الخطأ الفاحش المشهور بأن العرب واليهود هم أبناء عمومة ، على اعتبار أنهم من أصل واحد ، وهو الأصل السامى .

ولقد أنشد فى هذا الموضوع قصيدة بعنوان (إلى هربرت صموئيل[1]) وكان آنذاك فى القدس مدرساً فى أحد معاهدها التعليمية ، جوابا على كلمة القاها يهودا[2] ، ذكر فيها مدنية العرب فى الغرب والشرق ، وجواباً أيضاً على كلمة القاها فى نفس المناسبة هربرت صموئيل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين ، ووعد المستمعين بخطاب مؤنق وعودا سياسية سر بها الحاضرون .

وكان مطلع قصيدة الرصافى :

خطاب يهودا قد دعانا إلى الفكر ... وذكرنا ما نحن منه على ذكر

وقد جاء فيها :

ولسنا كما قال الألى يتهموننا ... نعادى بنى اسرائيل فى السر والجهر
وكيف وهم أعمامنا وإليهم ... يمت باسماعيل قدماً بنو فهر
وإنى أرى العربى للعرب ينتمى ... قريبا من العبرى ينمى إلى العبر
هما من ذوى القربى وفى لغتيهما ... دليل على صدق القرابة فى النجر

والحق أن الرصافى لو كان يعرف نوايا هذين اليهوديين فى هذا الوقت بالذات ، لاحتقرهما وهجاهما أقذع الهجاء ، وخاصة هربرت صموئيل ، إذ يبدو أن الرصافى لم يكن على علم بنزعات هذا الصهيونى الذى كان يبذل المساعى للظفر بتأييد زملائه الوزراء البريطانيين ، لسند الحركة الصهيونية وتدعيمها باعطاء فلسطين لليهود ، وتسكينهم فيها . وأنه قد قدم بهذا الشأن مذكرة طالب بالحاح أن تعد بريطانيا فلسطين لإقامة عدد من اليهود فيها ، يتراوح بين ثلاثة وأربعة ملايين[3] .

والحق أيضاً أن الرصافى لم يكن وحده على خطأ فى اعتقاده بوجوب التعاون مع اليهود ، فإن الملك فيصل نفسه قد اقتنع اقتناعا ثابتا بامكان التعاون بين العرب واليهود فى فلسطين ، كما اعتقد أن هذا التعاون لا يتعارض البتة مع حريات العرب السياسية والاقتصادية فى فلسطين ، وأنه اجتمع بالدكتور وايزمن من أجل ذلك[4] .

(١) الديوان ص ٤٣١ .
(٢) وهو من طلائع رسل الصهيونية فى فلسطين .
(٣) يقظة العرب تأليف جورج أنطونيوس ترجمة على حيدر الركابى ص ٢٨٦ مطبعة الترقى بدمشق ١٩٤٦ .
(٤) المصدر السابق ص ٣١٤ .

وعلى أية حال ، فإن الرصافى عاد فصحح خطأه هذا ، فاعترف بأن اليهود هم ليسوا أبناء عمومة للعرب ، ثم بين أن اليهود هم مصدر بلاء للعرب كلهم[1] .

ونعود فنقول :

إن الرصافى كان شاعراً قومياً ، وكان إذا تكلم ، فإنه يتكلم بلسان حال العرب ، كما يصطلح على ذلك اليوم . وكان كثيراً ما يردد (نحن معاشر العرب) فى مقالاته فى جريدته (الأمل) . كما كان يذكر عبارات (مصلحتنا القومية) و (استقلالنا السياسى) و (حركتنا القومية) ، وهو يعنى ولا شك مصلحة العرب القومية ، واستقلالهم السياسى ، وحركتهم القومية .

كما جاء فى شعره :

ونحن العرب نأبى غير عز ونطمح فى الحياة إلى السموك[2]

وهو القائل :

مستنهضاً بالشعر قومى للعلا إذ كان فيهم فترة وربوض[3]

وقومه هم العرب .

وكان إذا مدح شخصاً فلأنه :

يغار على العروبة أن يراها مهددة المصالح بالفساد[4]

ثم هو بعد هذا إذا أقسم فإنه يقسم بالخلال العربية المجيدة ، وصفاتهم الحميدة فيقول :

أما وخلال فيكم عربية وذا قسم لو تعلمون عظيم[5]

ومن ثم ، فقد آمن الرصافى بمقومات القومية العربية ، آمن باللغة العربية كأساس

(١) انظر تصريحاته بهذا الشأن والمنشورة فى جريدة الاستقلال العدد ٤١٤٧ لسنة ١٩٤٨ . ونظراً لأهمية هذه التصريحات نشرناها فى ملاحق هذه الرسالة .

(٢) الديوان ص ٣٣١ .

(٣) الديوان ص ٤٢٣ .

(٤) الديوان ص ١٣٥ .

(٥) هذا البيت لم نجده فى الديوان ، وإنما ذكره الأستاذ هلال ناجى فى كتابه « القومية والاشتراكية فى شعر الرصافى » ص ١٣ دار العلم للملايين ببيروت ١٩٥٩ .

أول من أسس هذه القومية التى تجمع بين أبناء الضاد فى جميع أقطارهم وديارهم وآمن بماضى الأمة العربية المجيدة ، وتاريخها التليد ، وهو الأساس الثانى من أسس القومية العربية . كما آمن بالمصير الواحد ، والإحساس المشترك ، اللذين يجمعان شعوب الأمة العربية فى محنتها الحاضرة ، ويدفعانها إلى مستقبل أفضل .

أى إنه آمن بأهداف القومية العربية ، الرامية بعزم أكيد ، وقوة صارمة ، إلى إقامة كيان سياسى عربى مستقل يضم العرب جميعاً بشكل دولة موحدة أو دولة اتحادية . كما دعا إلى تحرير العرب من ربقة الاستعمار ، والحصول على استقلالهم استقلالا حقيقيا لا زيف فيه ولا بهتان . وطالب بتخليص الأمة العربية من شتى ضروب الاستغلال الداخلى ، وأكد على تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية فى داخل الوطن العربى الكبير .

فلا مجال إذن للشك فى قومية الرصافى .

بيد أن هناك فريقا من الناس ممن ينزعون نزعات شاذة فى آرائهم ومعتقداتهم ، يحاول أن يظهر الرصافى بمظهر من يؤيد الشيوعية ، ويحبذ إشاعة المفاهيم الماركسية — اللينينية فى البلاد العربية ، مستشهدين ببيته الآتى :

للانكليز مطامع ببلادكم لا تنتهى إلا بأن تتبلشفوا[1]

وفى الحقيقة إن هذا البيت لا يدل دلالة قاطعة أكيدة عن إيمان الرصافى بالبلشفة ، لأنه كان قوميا عقائديا كما ذكرنا قبل قليل .

ولأنه من الناحية الاقتصادية كان يؤمن بالاشتراكية العربية ذات الأسس الإسلامية ، وقد أوضحنا ذلك من قبل بالأمثلة القاطعة التى لا تقبل الجدل والنقاش . والفرق معروف بين هذا النظام الاشتراكى الذى كان يؤمن به الرصافى ، ويدعو إليه ، وبين ذلك النظام الشيوعى الذى يحيل كل الثروات فى البلاد ملكا للدولة ، ويقضى على التشبث الفردى نهائياً ، مما لا يرضاه ولا يستسيغه .

ومن ثم ، فإن هذا البيت فى حد ذاته لا يدل على إيمان الرصافى بالبلشفية ، وإلا لكان

(١) الديوان ص ٤٦٤ .

قد كرر القول فيها ، ودعا إليها دعوة صريحة جريئة ، وهو الصريح الجرىء، فى أكثر من مناسبة . إذ ليس فى ديوانه كله ما يدعو فيه إلى مثل هذه الدعوة البلشفية إلا فى هذا البيت ، فهو بيت يتيم .

وهل يصح أن نتخذ من بيت واحد أساساً نبنى عليه مثل هذا الرأى ، علماً بأن جميع الأدلة والحقائق تناهض هذا الزعم ، وتؤكد عكس ذلك تماما . فأين يقف هذا البيت من مئات الأبيات التى قالها فى القومية العربية ، ودعا فيها إلى استنهاض العرب وتحررهم ووحدتهم ؟ ! !

ولا ريب أن الذى دعاه إلى ذلك هو يأسه من إصلاح الأوضاع الراهنة فى العراق، ويأسه من طرد الانكليز منه . فقال هذا البيت حتى يكون مدعاة لاثارة الناس ضد الانكليز الغاصبين عن هذا الطريق .

وهو تعبير عربى سليم ، عندما يضع أمام أعينهم الفرض الثانى ، أو المهوى الثانى الذى يراد لهم أن يسيروا إليه مبالغة فى تخويفهم من مغبة مطامع الانكليز . انه يريد أن يقول : للانكليز مطامع لا تنتهى حتى تصلوا إلى شر ما يمكن أن تصلوا إليه ، وهو أن تتبلشفوا ، كمن يستغيث من الرمضاء بالنار . وهذا تعبير عربى معروف ، وله أمثلة كثيرة فى البلاغة العربية . وهو أشبه ما يكون بقوله :

إذن فالهند أشرف من بلادى وأشرف من بنى قومى الهنود[1]

ذلك أن الرصافى، لا يمكن بحال من الأحوال، أن يجعل الهند أشرف من بلاده ، وأن يجعل الهنود أشرف من بنى قومه . وإنما كان يعنى ولا شك أن الهنود قد استردوا شرفهم بعد استقلالهم ، فصاروا بذلك أشرف منا نحن العرب الذين لازلنا نخضع للمستعمرين . ولا يخفى ما فى هذا القول من معانى الثورة على الاستعمار البغيض .

هذا ويحق لنا أن نتساءل الآن :

متى بدأت هذه النزعة القومية تظهر عند الرصافى ، وبالتالى تظهر فى شعره .

وللجواب على ذلك نقول :

(١) الديوان ص ٤٦٢ .

إنه من الصعوبة بمكان تحديد الزمن الذى بدأت فيه بوادر هذه النزعة المستقرة فى ذاته تظهر وتطفو ، وذلك لأن الشعور القومى عند الرصافى لم يظهر بصورة جلية واضحة إلا فى عهد جمعية الاتحاد والترقى .

أما قبل ذلك ، أى فى زمن السلطان عبد الحميد ، فيبدو أن شعوره كان شعورا إسلاميا أكثر منه عربيا . ولا يمكن بحال من الأحوال أن يفسر هجوم الرصافى عليه، وعلى حكومته وحاشيته ، أنه هجوم على السلطنة العثمانية نفسها ، أو إنه كان يدعو إلى انفصال البلدان العربية عن هذه السلطنة .

وهكذا نجد أن الفكرة القومية لم تكن قد ظهرت بعد واضحة فى بداية حياته الأدبية والسياسية ، ابان الحكم العثمانى . وإنما بدأت بوادرها تشتد وتقوى عنده ، وعند كثير من رجالات العروبة ، العاملين فى سبيل قضية بلادهم ، حينما شعروا بتعسف الاتحاديين وظلمهم للعرب ، حتى بلغت الذروة فى أواخر هذا العهد كرد فعل لتلك السياسة العنصرية التى بدأت تتبعها هذه الجمعية حيث بدأت تدعو إلى العصبيه الطورانية بشكل ظاهر، وتعمل جاهدة على تتريك العرب وصهرهم فى بودقتهم. فقوبت عندئذ الدعوة إلى القومية العربية ، وتجسمت بشكل يلفت إليها الأنظار . ومما لا شك فيه أن الدعوة إلى نظام المركزية فى الحكم ، والغبن الذى لحق بالعرب فى الانتخابات النيابية ، كانا من أهم أسباب الخلاف بين العرب والترك[1] . وأهم منهما قضية اللغة العربية حينما جعل رجال الاتحاد والترقى اللغة التركية هى اللغة الرسمية فى البلاد العربية . مما أثار سخط العرب كلهم لما كانوا يلاقونه من مضايقات وصعوبات فى المعاملات الرسمية ، ولما كانوا يلاقون مثلها كذلك فى المدارس[2]، بالاضافة إلى الجانب القومى ، والحمية الذاتية فى كل ذلك . .

حينئذ بدأ المخلصون من رجال العرب يجهرون بالدعوة إلى القومية العربية بشكل سافر ، بعد أن بدأت أذهانهم تستيقظ من سباتها الطويل العميق .

غير أنهم كانوا قد انقسموا فيما بينهم فى شعورهم القومى هذا ، فمنهم من كان يحبذ

(١) انظر كتاب محاضرات فى نشوء الفكرة القومية للاستاذ ساطع الحصرى ص ١٨٠ و ١٨١ مطبعة الرسالة ١٩٥١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

انفصال البلدان العربية عن جسم السلطنة العثمانية ، ويعمل فى سبيل ذلك ، ومنهم من كان لا يبغى فى دعوته للقومية العربية انفصال هذه البلدان ، وإنما كانت جل مطاليبهم، الدعوة إلى اللامركزية فى الحكم ، وبقاء اللغة العربية اللغة الرسمية للبلاد العربية .

وقد (قام جماعة منهم يصفون سوء أحوال البلاد العربية من جراء فساد الحكم، ويقولون بوجوب مطالبة الدولة بإصلاحات جدية فى البلاد العربية لإزالة عوامل هذا الفساد ، وتحسين أحوال البلاد)[1] .

وكان الرصافى من أنصار الرأى الثانى .

وذلك نظراً لشعوره الدينى العميق الذى كان يربطه بالدولة العثمانية ، حامية حمى المسلمين ، والذى جعله لا يرى أى داع للانفصال عن جسم هذه الدولة ، من مجرد مظالم عبد الحميد ، ومجازر الاتحاديين وتعسفهم . بل إن كل الذى دعا إليه ، وطالب بتحقيقه ، هو اصلاح الأوضاع الراهنة فى البلاد العربية ، كما طالب بمزيد من الحكم الذاتى لهذه البلاد ، أى أنه من دعاة اللامركزية فى الحكم.

وليس بدعا، والحالة هذه ، أن يطلق كلمة «الوطن» على سائر أجزاء الدولة العثمانية، ومن ضمنها البلاد العربية ، فيقول .

يا موطناً ما انتضيناها مهندة إلا لردع الأعادى عن إهانته
لهفى على الجيش جيش المسلمين فقد قضى ولم يقض شيئاً من لبانته[2]

وكان إذا أراد أن يخاطب العثمانيين جميعا ، ناداهم بكلمة « بنى وطنى » فيقول :

بنى وطنى مالى أراكم صبرتم على نُوَب أعيا الحصاة عديدُها[3]

والأمثلة على ذلك كثيرة ، مما تدل دلاله واضحة، على أن الرصافى لم يكن ليفكر فى انفصال البلاد العربية عن السلطنة العثمانية ، ولم يترك المجال لهذا التفكير بأن يتغلب على شعوره الدينى فى ذلك الوقت ، حينما كانت الامبراطورية العثمانية دولة المسلمين فى كل مكان ، ومحط أنظارهم وملاذهم وعزتهم .

(١) المصدر السابق ص ١٦٣ .
(٢) الديوان ص ٤٨٩ .
(٣) الديوان ص ١٠٤ .

ومن حقنا أن نقول فى هذا الصدد إن الرصافى لم يكن ليخشى السلطات الحاكمة لو أنه دعا إلى مثل هذا الانفصال . ولكنه كان مخلصاً شديد الإخلاص للامبراطورية العثمانية ، التى كانت تمثل عنده اتجاهاً معيناً هو الاتجاه الدينى ، ولقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

بيد أننا نلاحظ أنه على الرغم من تلك العلاقة القوية التى كانت تربط بين الرصافى وبين الدولة العثمانية ، فإنه كان لا يتوانى فى إظهار عروبته والحرص عليها ، كلما أوجبت ذلك الظروف والمناسبات . وكان لا يألو جهداً فى تأييد كل حركة أو دعوة عربية ، تناصر قضايا الأمة العربية كما مر بنا آنفاً . ونذكر على سبيل المثال قصيدته (إلى الشبان[1]) التى أنشدها يوم افتتاح المنتدى الأدبى الذى أسسه شبان العرب فى الأستانة ، وحث فيها العرب على السعى إلى طلب المعالى ، والبلوغ إلى ما قد وصل إليه آباؤنا وأجدادنا من مجد وسؤدد .

وكذلك قصيدته (إلى الأمة العربية[2]) وقصيدته (نفثة مصدور[3]) اللتان أنشدهما فى المنتدى المذكور ، ويؤكد فيهما نفس الغاية التى قصدها الرصافى فى قصيدته الأولى .

كما أيد الرصافى حزب اللامركزية الذى كان يطالب الدولة العثمانية بالإصلاح ، ودعا العرب جميعاً إلى الانضمام إليه وتنفيذ مقرراته[4] . ولكنه ما إن اطلع على هذه المقررات ، ورأى فسادها ، حتى سارع واستنكرها بشدة وعزم ، ودعا العرب من جديد إلى الانفضاض من حوله بعد أن وسع أعضاءه لوما وتأنيبا[5] .

ولعل أكثر ما آثار الرصافى فى هذا الشأن أمران :

أحدهما : أنهم عقدوا مؤتمرهم هذا فى باريس ، لأن الرصافى كان يعرف مقدماً نوايا فرنسا الاستعمارية فى البلاد العربية فى ذلك الحين ، وخاصة سورية بقسميها الجنوبى والشمالى .

(١) الديوان ص ٦٥ ، وقد أشرنا اليها من قبل .
(٢) الديوان ص ٣٩٦ (٣) الديوان ص ٤٥٧ .
(٤) الديوان ص ٤٠١ . (٥) الديوان ص ٤٠٤ .

وثانيهما : أنه قد شم فى مقرراتهم ، حسبما ادعى هو نفسه ، رائحة التفرقة بين المسلمين والمسيحيين[1] . إذ كان من رأيه أن مطالب هؤلاء الإصلاحيين يجب أن تؤخذ باسم العرب جميعاً ، لا أن تؤخذ باسم المسيحية وحدها ، فعاب عليهم مثل هذا التطرف الذى لم يكن لينسجم والغاية السامية التى يريدون العمل من أجلها .

يخلص لنا من ذلك كله أن الرصافى لم يتخل عن عروبته حينما كان يؤيد الإمبراطورية العثمانية ، وإنما كان كل من الشعور الدينى والشعور القومى يسيران معاً جنباً إلى جنب ، فهو مسلم يهتم بالدين وبأمور المسلمين ، وهو عربى يهتم بالعرب ، وبقضايا العرب .

وعلى مر الأيام والسنين بدأ هذا الشعور القومى ينتظم شيئاً فشيئاً ، وبدأت تتكون عنده فكرة واضحة لمعنى القومية العربية ومبناها وغاياتها ، فانتقلت نزعته القومية هذه من مرحلة الشعور الذاتى بالعروبة ، إلى وعى ناضج منظم ، ذى خصائص ومميزات واضحة المعالم ، بينة الاتجاهات ، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى ، حينما تيقن من تحفز الإنكليز والفرنسيين والطليان للسيطرة على البلاد العربية ، واخضاعها لنفوذهم ، إذ صار من اللازم على كل قومى عربى واجب النضال ضد كل مستعمر دخيل ، والقضاء على الخونة والمأجورين فى هذا البلد العربى الكبير .

وحين بدأت الدعوة نفسها إلى القومية العربية تتخذ شكلا منظما متسقا ، يتفق والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية فى البلاد العربية . ولا شك أنها بصورتها الجديدة هذه قد استهوت كثيراً من العرب . فبدأوا يشعرون بالحاجة الملحة إلى مزيد من المعرفة عن هذه القومية التى لم يعد الإيمان بها كافياً وحده ، بعد ما صار لها مفهوم عملى بالإضافة إلى مفهومها العقائدى ، وأضحت القومية العربية تعنى بالضرورة العقيدة والحركة .

مقومات القومية العربية فى شعره :

لقد اختلف الباحثون فى مقومات القومية العربية — كما اختلف الباحثون

(١) مجلة الثقافة الجديدة — نيسان (أبريل) — العدد الأول سنة ١٩٥٤ .

فى مقومات القومية بصورة عامة — فى تحديد هذه المقومات الأساسية . فقد اعتبر بعضهم الدين من المقومات القومية الأساسية ، كما اعتبر آخرون السجايا والطباع والمصلحة الاقتصادية والوحدة الجغرافية من تلك المقومات أيضاً . وتأثر آخرون بنظرية « رينان » الفرنسى فى هذا الموضوع ، وحسبوا أن المشيئة أو الإرادة الحرة أساس من الأسس القومية .

ولكن الرأى الراجح أن المقومات الأساسية لكل قومية ، وبالنتيجة المقومات الأساسية للقومية العربية هى ، اللغة والتاريخ . . .

اللغة الواحدة حين تصبح لغة المشاعر والأحاسيس .

والتاريخ العام الواحد الذى يوقظ فى الأمة مشاعرها ، ويألف بين بنيها[1] .

وعلى هذا فسنرى أثر هذين المقومين الرئيسين فى شاعرنا معروف الرصافى ، وعلى الأدق ، مقدار ما أعطاهما من أهمية فى شعره لتصوير قوميتنا العربية الواحدة .

١ — اللغة العربية :

لم يعد الاهتمام باللغة العربية التى تكون أقوى الروابط المعنوية بين الأفراد والجماعات ، مقصوراً على اعتبارها وسيلة من وسائل التفاهم والتخاطب بين الناس ، وتحصيل المعارف والعلوم . وإنما أصبحت ذات دلالة واضحة لبقاء الأمة العربية خالدة حية فى الحاضر والمستقبل ، كما كان شأنها فى الماضى .

فهى بمثابة الروح بالنسبة إلى هذه الأمة ، لأن حياة كل أمة لا تقوم إلا على لغتها . وإذا كنا نحرص عليها اليوم فلأنها الضامن الوحيد لوحدتنا فى الحاضر والمستقبل ، كما كانت الضامن الوحيد لوحدتنا فيما مضى[2] .

والرصافى قد فهم هذا المعنى عندما آمن بالقومية العربية ، وعرف أنها — أى

(١) إن أبرز من اعتبر اللغة والتاريخ المقومين الأساسيين للقومية العربية هو الأستاذ ساطع الحصرى فى جميع كتبه القومية ، وبصورة خاصة كتابه (ماهى القومية) . وكذلك الأستاذ معروف الدواليبى فى كتابه (القومية العربية فى حقيقتها) . والأستاذ عبد الرحمن البزاز فى كتابه (من وحى العروبة) فصل (هذه قوميتنا) .

(٢) من وحى العروبة للاستاذ عبد الرحمن البزاز ص ١٦٩ دار القلم بالقاهرة .

اللغة — أهم السبل والدلالات التى تجمع بين أبناء الأمة العربية فى شتى أقطارهم وديارهم ، وأن انعدامها يعنى انعدام الأمة العربية وزوالها .

فهو فى قصيدته (فى سبيل الوطن — إلى إخواننا المسيحيين)[1] ، يؤكد هذا المعنى ، ويذهب إلى أن اللغة العربية ، هى المقوم الأساسى للقومية العربية ، وأنها الركيزة الأولى لوحدة الأمة العربية .

يقول مخاطبا المسيحيين :

إذا جمعتنا وحدة وطنية فماذا علينا أن تعدد أوطان
إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة لسان وأوطان وبالله إيمان
فأى اعتقاد مانع من اخوة بها قال انجيل كما قال قرآن

وهو إذا خاطب وفد « مصر » الذى زار العراق سنة ١٩٣٦ برآسة المرحوم طلعت حرب زعيم مصر الاقتصادى ، وحين يؤكد عروبة مصر ، يؤكد كذلك هذا المعنى ، ويبين أن اللغة العربية ، واللغة وحدها ، هى أول من يجمع بين مصر والعراق وبالتالى بين جميع البلاد العربية ، يقول :

رجال النيل حييتم رجالا بما للعرب فيكم من سمات
بكم طرب الفرات وقال جهراً لوادى النيل إنك من لداتى
كلانا جاريان على سهول بأبناء العروبة آهلات
كلانا فى الإخاء له مواض ضمن لنا النجاح بكل آت
ونجمعنا جوامع كبريات وأكبرهن سيدة اللغات[2]

وصادف أن زار الزعيم التونسى الكبير عبد العزيز الثعالبى بغداد سنة ١٩٢٥ ، فسارع الرصافى إلى تأكيد الإخوة بين تونس وبغداد ، هذين البلدين اللذين تجمع بينهما أواصر الإخوة ، اللغة والدين :

أتونس إن فى بغداد قوماً ترف قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإياك انتساب إلى من خص منطقهم بضاد

(١) الديوان ص ١٣١ .
(٢) الديوان ص ٥٦٥ .

ودين أوضحت للناس قبلا نواصع آيه سبل الرشاد
فنحن على الحقيقة أهل قربى وإن قضت السياسة بالبعاد
وما ضر البعاد إذا تدانت أواصر من لسان واعتقاد[1]

إذن فنحن فى الحقيقة شعبان من أمة عربية واحدة ، وإن قضى الاستعمار واجتهد بأن يفرق بين بلدينا ، ولا أدل على هذه الإخوة من اللغة العربية التى تجمع بين شعبينا المتباعدين .

هذا هو إيمان الرصافى باللغة العربية كمقوم أساسى أول من مقومات القومية العربية ، وسنبين بعده كيف فهم الرصافى الأساس الثانى لهذه المقومات ، وهو التاريخ العربى الواحد .

٢ — التاريخ :

ولم يعد يتخذ الاهتمام بالتاريخ العربى كذلك مظهراً من مظاهر تحصيل المعارف والعلوم ، أو مظهرا من مظاهر الاعتزاز بهذا التاريخ المجيد فحسب ، بل إن هذا الاهتمام بدا يتخذ شكلا جديدا ، وهو الدعوة اللازمة إلى السير على هدى هذا التاريخ ، حتى تستقيم السبل بالعرب اليوم فى زحمة معاركهم لتحقيق الذات العربية ، وحتى يعرفوا طريقهم الذى يجب عليهم أن يشقوه للوصول إلى الغايات التى يبتغونها .

وإذا كانت اللغة العربية بمثابة الروح بالنسبة إلى الأمة العربية ، فإن التاريخ هو بمثابة شعور هذه الأمة وذاكرتها[2] ، وصورة من صورها الجامعة الموحدة لهذه الشعوب المتفرقة على مساحات شاسعة من الأرض الطيبة .

وعلى هذا الأساس اتخذت العناية بالتاريخ العربى مظهرا من مظاهر القومية العربية فى الوقت الحاضر ، ومقوما ثانيا من مقوماته الأساسية .

وديوان الرصافى طافح بالقصائد التى تذكر ماضى العرب التليد ، وتشيد بمدنيتهم

(١) الديوان ص ١٣٤ .
(٢) آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية للاستاذ ساطع الحصرى ص ٣٠ دار العلم للملايين الطبعة الثالثة ١٩٥٧ .

وحضارتهم اللتين أذاعوهما بين الشعوب والأمم المختلفة ، وتمجد البطولات ، والخلق ، والشمائل العربية .

يقول الرصافى فى قصيدته (حكومة الانتداب[1]) .

زر ردهة التاريخ إن فناءها للمجد من أبناء يعرب متحف
قد كان للعرب الأكارم دولة من بأسها الدول العظيمة ترجف

ويذكر الجيل الحاضر بتاريخ العرب فى الشام ، وتاريخ العرب فى بغداد ، وتاريخ العرب فى الأندلس ، يذكرهم كيف كان ماضيهم التليد مشرقاً بنوره الوضاح ، مزدهرا بالعلوم والآداب ، وما ذلك إلا لأنهم طلبوا المجد فنالوه ، وأرادوا الحياة فسعت إليهم :

هل أتاك الدهر فيما قد أتى بحديث العرب فى الأندلس
حيث بالعزم أماطوا العنتا وبنور العلم ليل الهوس

سل ربا بغداد عما قد مضى لبنى العباس فى تلك الديار
واسألن الشام عما قد أضا للمعاويين فيها من نخار
كم ترى للمجد سيفا منتضى كم ترى للعلم فيها من منار

يا بنى يعرب ما هذا المنام أو ما أسفر صبح النوم
أين من كان بكم يرعى الذمام ويلبى دعوة المهتضم
أفلا يلذعكم منى الملام فلقد ألفظ جمراً من فمى[2]

القصيدة . . .

وفى قصيدته (الأمة العربية — ماضيها وباقيها[3]) يتحدث الرصافى عن العرب فى الماضى ، ويوضح كيف أنهم بفضل التعاون ، وبفضل الإرادة والتصميم ، وبفضل الجرأة والشجاعة ، كانوا قد فتحوا البلادشرقا وغربا ، فدكوا حصون الروم ، وصدعوا أسوار فارس فيقول :

---

(١) الديوان ص ٤٦٣ .
(٢) أنظر قصيدته « إلى الشبان » ص ٦٥ .
(٣) الديوان ص ١٣٩ .

وهم الالى خضعت لهم أمم الورى من تركها طرا إلى اسبانها
والروم قد نزلت لهم عن ملكها والفرس عما شيد من إيوانها

ولكن ما جار العرب فى حكمهم وما ظلموا ، فالعدل كان أساس حكمهم ، وهم يحكمون بما أنزل الله ، حتى بهرت عدالتهم العالم بما أتوه من حكمة فى الرأى ، وصدق وإخلاص فى العمل .

حسنت عواقب أمرها حتى لقد بهرت بنى الدنيا جلالة شأنها
فهم الالى فتحوا البلاد ونشروا رايات معدلة على قطانها

ولكن كيف ساد العرب على جميع الأمم ، وهم الذين كانوا مغلوبين على أمرهم دهرا طويلا من الزمن . يقول الرصافى موضحاً ذلك :

هم الرجال مقيسة بزمانها وسعادة الأوطان فى عمرانها
وأساس عمران البلاد تعاون متواصل الأسباب من سكانها
وتعاون الأقوام ليس بحاصل إلا بنشر العلم فى أوطانها
والعلم ليس بنافع إلا إذا أجرت بها الأعمال خيل رهانها
إن التجارب للشيوخ وإنما أمل البلاد يكون فى شبانها
هذى لدى العرب الكرام مبادىء نزلت بها الآيات فى قرآنها

أجل (إن سعادة الأوطان بعمرانها ، وإن عمرانها بتعاون سكانها ، وتعاون سكانها لا يكون إلا بنشر العلم فيها ، وإن العلم لا ينفعها إلا إذا اقترن بالعمل)[1] .

يخلص لنا من ذلك كله أن الرصافى حينما يلتفت إلى ماضى الأمة العربية ، ويشيد بعظمته ومجده ، ويستمد منه العبر والعظات ، فإنما يعنى أن يكون ذلك كله مدعاة لتحفز العرب اليوم ، والاقتداء بهذا الماضى الناصع فى طلب العزة والكرامة والمجد والسؤدد فى أيامنا هذه .

إن هذا المعنى يعلنه صراحة فى بيته الآتى :

ولست أذكر الماضين مفتخرا ولكن أقيم بهم ذكرى لمدكر[2]

---

(١) أنظر حاشية الديوان ص ١٣٩
(٢) الديوان ص ٦٤ .

ولا شك أن قصيدته (نحن والماضى)[1] هى خير ما تؤكد هذا المعنى ، ذلك أنها تعطينا صورة صادقة واضحة فى كيفية فهم الرصافى للماضى ، وكيف ربط بينه وبين حاضرنا الذى نعيش فيه ، وما أهمية هذا الترابط والتآلف ، وماهى غاياته ؟

إن الرصافى وهو ينظر إلى ماضى الأمة العربية وحاضرها ، ليجد تبايناً شديداً بين حال العرب اليوم وحالهم بالأمس . فان العرب فى تاريخهم القديم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه بالفارغ من الكلام ، والعبث من الأعمال .

إنهم ما تسنموا المجد إلا لأنهم أرادوه ، وعزموا على أن يبلغوه مهما كلفهم ذلك من تضحيات جسام ، وأن يذللوا فى سبيل ذلك كل الصعوبات وان كان دون ذلك هتك الحجب .

وشرفهم ربهم فبعث إليهم نبياً من أنفسهم ، يتكلم بلسان عربى مبين ، فهداهم إلى صراط مستقيم . فاستقامت لهم السبل ، فأوغلوا فيها كل الإيغال ، ودانت لهم الحياة ، وكانوا قد أرادوها ، ونهضوا إلى الشرف يتربعون على عرشه ، وإلى الصولجان يمسكون به . .

إن الرصافى وهو يذكر ذلك كله ، ليحث أبناء العروبة اليوم على أن يستفيدوا من ماضيهم المجيد هذا ، ويتلمسوا منه العبر والعظات . فلم يعد يكفى أن نقف منه اليوم موقف المتفرجين ، بل من واجبنا نحن أبناء الأمة العربية الخالدة أن نهتدى بهدى الماضى ، لأن الأمة العربية فى حاضرها ، ومن أجل معارك تحقيق الذات العربية ، تنتظر من أبنائها العمل والجهاد والسعى المتواصل لبلوغ ما قد بلغه أجدادنا وآباؤنا من قبل .

هذه نظرة الرصافى إلى ماضى الأمة العربية وحاضرها ومستقبلها ، وما أسعدها من أمة إذا جمعت بين أمسها ويومها وغدها . يقول :

وما يجدى افتخارك بالأوالى إذا لم تفتخر فخراً جديدا
أرى مستقبل الأيام أولى بمطمح من يحاول أن يسودا

(١) الديوان ص ٣٤ .

فما بلغ المقاصد غير ساع يردد فى غد نظرا سديدا

إلى أن يقول :

فشر العالمين ذوو خمول إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير الناس ذو حسب قديم أقام لنفسه حسبا جديدا
تراه إذا ادعى فى الناس فخرا تقيم له مكارمه الشهودا

هذه هى بعض الأمثلة ، والأمثلة فى هذا الشأن كثيرة ومتشعبة ، التى تدل دلالة واضحة أكيدة على إيمان الرصافى بوحدة التاريخ العربى الذى يعتبر منبعاً فياضاً لحاضر العرب ومستقبلهم ، وهو حين يشيد بماضى هذه الأمة التليد ، ويكشف للناس ذكرياتهم التاريخية ، فإن له فى ذلك غاية سامية هى أن هذه الذكريات التاريخية هى التى تقرب النفوس اليوم ، وتكون بينها نوعاً من القرابة المعنوية والتآخى والترابط[1] ، وهو فى ذلك يكون قد حقق مقوماً أساسياً من مقومات القومية العربية ألا وهو وحدة التاريخ العربى .

أهداف القومية العربية فى شعره :

مما لاشك فيه أن الغايات الأساسية التى يصبو إليها ، ويعمل جاهدا على تحقيقها ، كل من يعتنق القومية العربية هى ثلاث :

١ — القضاء على الاستعمار بمختلف ألوانه وأشكاله .

٢ — إقامة كيان عربى عام على شكل دولة موحدة أو دولة اتحادية .

٣ — تحقيق العدالة الاجتماعية والعدالة الاقتصادية فى الوطن العربى الكبير .

ولقد استطعنا فى بعض فصولنا السابقة أن نلم بموقف الرصافى من الاستعمار البريطانى ، وأن نبين الدعوة إلى القضاء عليه وعلى أذنابه ومأجوريه .

كما استطعنا أن نوضح دعوته إلى الاشتراكية ، وبناء مجتمع عربى أفضل . .

(١) آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية للاستاذ ساطع الحصرى ص ٣٠ دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧ .

وهو على هذه الصورة ، يكون قد حقق هدفين من أهداف القومية العربية . أما الآن فسنعرض لموقفه من الهدف الثالث من هذه الأهداف ، ألا وهو إيمانه بالوحدة العربية ، والدعوة إليها ، وأثر ذلك فى شعره .

يقول الدكتور بدوى طبانة (ولا نعرف شاعراً فى هذا العصر آمن بهذه الوحدة إيمان شاعرنا الخالد الرصافى ، ولا نعرف شاعراً تغنى بها وما مل الغناء ، والناس عنه فى شغل حتى أصغت الآذان إليه ، وأصاخت القلوب لألحانه مثل الرصافى[1]) .

وشعره فى الوحدة العربية ، والدعوة إليها ، أكثر من أن يحصى ، وهو إن دل على شىء ، فإنما يدل على عمق إيمانه بها ، وإصالته فى هذا الإيمان .

يذكر الرصافى فى قصيدته (السجايا فوق العِلْم وفوق العَلَم[2]) التى ينصح بها شباب الأمة العربية ، ويحضهم على الجهاد فى سبيل الحرية ، إيمانه بالوحدة العربية ، فيقول :

قد أنهضتهم إلى العلياء وحدتهم ... واليوم أقعدهم عنها أن انقسموا
كان التعاون غرزا فى غرائزهم ... حازوا به الشرف الوضاح واغتنموا
ثم اغتدوا بعد حين فى جوانحهم ... نار التخاذل بالشحناء تضطرم

وهذا كلام صريح لا لبس فيه ولا غموض .

ويؤكد الرصافى هذا المعنى حين يخاطب شباب الأمة العربية فيقول :

وأين مواثيق الأخوة اننى ... أرى حبلها فى كل يوم إلى النكث[3]

كما يوضح :

يا أيها العرب هبوا من رقادكم ... فقد بدا الصبح وانجابت دجى الخطر
كيف النجاح وأنتم لا اتفاق لكم ... والعود ليس له صوت بلا وتر
الى أراكم أقل الناس مقدرة ... وأكثر الناس عداً غير منحصر[4]

(١) معروف الرصافى دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانه ص١٤٣ الطبعة الثانية ،مطبعة الرسالة ١٩٥٨ .
(٢) الديوان ص ٤٤٧ .
(٣) الديوان ص ٤٥٨ .
(٤) الديوان ص ٦٥ .

ولنمعن النظر قليلا فى البيتين الأخيرين ، لننظر مافيه من بيان رائع حول حاضر الأمة العربية المنقسمة على نفسها إلى دول ودويلات . . . انه يذكر العرب بحقيقة قائمة ماثلة أمام العيون ، وهى أنهم اليوم أقل الناس مقدرة وخطورة فى خضم هذه الدنيا المليئة بالأحداث لتشبيت الذات ، لأنهم منقسمون فيما بينهم ، فتفرقت كلمتهم، وصارت لكل دولة سياستها الخاصة بها ، فلو اتفقت هذه الدول العربية فيما بينها ، لاصبح لها رأى مسموع فى المحيط الدولى ، ولأضحت لها أهمية بالغة لكثرة عدد سكانها ، ووفرة منتوجاتها الطبيعية ، وموقعها الجغرافى الممتاز . . ولكن التفرقة قد أضعفتهم، والتجزئة قد أوهنت قواهم ، فلم يعد لهم رأى مسموع ،ولم تعد لهم أهمية بالغة كتلك التى كانوا عليها بالأمس . . . إنه يقول :

ولو أن فيكم وحدة عصبية ... لهان عليكم للمرام وصول[1]

هذا وقد سئل مرة :

ما هى نصيحتكم للشعوب العربية لكى تستخلص أوطانها من العدوان الصهيونى الآثم ؟

أجاب :

قبل كل شىء الاتحاد وتفادى كل نزعة أو هفوة طارئة تخل بهذا الاتحاد . وقد علق عدونا آمالا جساما وأفكاراً مستحبة لفكرته وعقيدته لوجود بعض الخلافات الطفيفة التى يتحتم زوالها حالا يداهم عالمنا العربى خطر محدق ، وأعلم أنه :

ولولا اتحاد العنصرين لما غدا ... من النار يذكو لو علمتم وقودها[2]

ويحيى الرصافى أمين الريحانى ، ولكن كيف يحييه ولماذا ؟

يحييه لأنه زار البلاد العربية ، وطالب بنبذ التفرقة بين هذه الدول ، وحث المسئولين على تقريب وجهات النظر ، وطرح ما بينهم من خلافات ومنازعات .

يقول :

تيمم من بعد الحجاز تهامة ... وراح إلى صنعاء يزجى الركائبا

(١) الديوان ص ٣٩٨ .
(٢) جريدة الاستقلال العدد ٤١٤٧ لسنة ١٩٤٨ .

وجاء إلى أرض العراق مبحراً وكر إلى نجد يجوب السباسبا
ليجمع من أبناء يعرب شملهم ويقضى حقاً للمواطن واجبا[1]

وما دام الرصافى يتحدث عن الوحدة العربية ، فإنه ليذكر أيضاً وحدة التعليم فى البلاد العربية ، لأنها السبيل الوحيد لتقارب الأذهان النيرة بعضها من البعض الآخر . ومتى ما تجانست الثقافة ، وتقاربت الأذهان ، أصبح من الميسور جداً تحقيق الوحدة العربية .

وفى هذا الصدد يقول فيلسوف القومية العربية الأستاذ ساطع الحصرى :

(إضمنوا لى وحدة الثقافة ، وأنا أضمن لكم كل مابقى من ضروب الوحدة[2]) .

ويقول الرصافى :

ثم انهجوا فى بلاد العرب أجمعها نهجا على وحدة التعليم مشتملا
حتى إذا ما انتدبنا العرب قاطبة كنا كأنا انتدبنا واحداً رجلا[3]

ويقول أيضاً :

ألا نهضة علمية عربية فتنعش أرواح بها وعقول[4]

ومن هذا يتضح لنا ما كنا قد ذكرناه سابقاً ، من أن كل دعوة إصلاحية كان يدعو إليها الرصافى سواء سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، فإنما كانت غايته فيها هى الأمة العربية بأسرها ، وليست لبلد دون بلد آخر . وإنه إذا كان يخاطب الشعب العراقى ، أو الشعب السورى ، فكأنما كان يخاطب جميع الشعوب العربية الأخرى ، مما يدل دلالة واضحة أكيدة على عمق تفكيره القومى هذا واصالته .

ومن مظاهر دعوته إلى الوحدة العربية ، استنكاره لكل دعوة ترمى إلى تفرقة الصفوف باسم الدين ، أو باسم الطائفية ، وتنديده بكل من تسول له نفسه الخبيثة

(١) الديوان ص ٤٤٣ .
(٢) آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية ص ١٢٩ ، دار العلم للملايين الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٧ .
(٣) الديوان ص ٨٨ .
(٤) الديوان ص ٣٩٩ .

خلق مثل هذه التفرقة ، والتحريض على اصطناع الضغائن ، وخاصة بين المسلمين والمسيحيين .

فالمسلمون والمسيحيون فى العروبة سواء بسواء ، جمعت بينهم لغتهم ، وتاريخهم الواحد ، وأحاسيسهم المشتركة ، كما قد جمع بينهم إيمانهم بالله عز وجل . إذن فما الذى يمنع الأخوة بين المسلمين والنصارى ، وتأكيدها على الوجه الأتم . فإذا كانت الديانتان منزلتين من إله واحد ، وتدعوان إلى غاية مشتركة سامية ، وهى الدعوة إلى الحب والسلام ، فما أساس الكراهية والأضغان والتخاذل بين أصحاب الديانتين ؟ ألم يدركوا أن التعادى فى الديانة عدوان ؟ يقول[1]

أما آن أن تنسى من القوم أضغان فيبنى على أس المؤاخاة بنيان
أما آن أن يرمى التخاذل جانباً فتكسبَ عزاً بالتناصر أوطان
علام التعادى لاختلاف ديانة وان التعادى فى الديانة عدوان

ويذكر الرصافى أنه من الأجدر بهم أن ينسوا ما بينهم من خلافات ومنازعات ، ويلتفتوا إلى حال وطنهم الذى هو بحاجة ملحة إلى الإصلاح الجدى . فالعمل — إذا اتحدنا على كلمة سواء فى سبيل هذا الوطن العزيز — خير من هذا التنابذ والتباعد .

مواطنكم يا قوم أم كريمة تدرُ لكم منها مدى العمر ألبان
ففى حضنها مهد لكم ومباءة وفى قلبها عطف عليكم وتحنان
فما بالكم لا تُحسِنون وواجب على الابن للأم الكريمة احسان

والعدو الرابض على صدورنا ، كيف نحاربه ، ونحن لازلنا مشتتين ، متفرق الكلمة ؟ وهل هناك أنفع من الاتحاد والتحالف والتعاون لمحاربة هذا العدو ، ثم النهوض إلى العز الصراح ؟ :

أصبراً وقد أمسى العدو يهيننا أما فيكم شهم على الأم غيران
أجب أيها الندب المسيحى مسلماً صفا لك منه اليوم سِر وإعلان
فلا تحرما الأوطان أن تتحالفا يداً بيد حتى تؤكد أيمان

(١) الديوان ص ١٣١ .

ألا فانهضا نحو العدا وكلاكما لصاحبه فى المأزق الضنك معوان
وقولا لمن قد لام صَهْ ويك إننا على كل حال فى المواطن اخوان

ومن ثم يرى الرصافى أن دعوته فيهم إلى الاتحاد قد تحققت وآتت أكلها ، حينئذ يقف كالليث الهصور فيقول :

فمن مبلغُ الأعداء أن بلادنا مآسد لم يطرُق ذَراهن سِرحان
وإنا إذا ما الشر أبدى نيوبه رددناه عنا بالظبى وهو خزيان

وبعد أن يتأكد الرصافى من أن الاتحاد قد تحقق ، وأن العدو قد هزمته أسود الوغى التى تلبس الردى بالعز ، يجيل الطرف باسماً ، مشرق المحيا ، معتزاً بوطنه العربى الكبير ، وقد وجد أرض الشام ، وأرض العراق وفلسطين ولبنان ومصر وباقى البلاد العربية فى أسعد حال ، وأشرف منال :

وتعتز من أرض الشآم دمشقها وتهتز من أرض العراقين بغدان
وتطرب فى البيت المقدس صخرة وترتاح فى البيت المحرم أركان
وتحسُن للعرب الكرام عواقب فيحمدها مفت ويشكر مطران

ولقد استنكر الرصافى أشد الاستنكار ما قد نشره الأديب اللبنانى (شكرى غانم) فى أحدى الجرائد الفرنسية ، وصرح فيه بالتبرؤ من الأمة العربية قائلا : إننا معشر السوريين أو اللبنانيين لسنا بعرب وإن تكلمنا العربية ، وإنما نحن فينيقيون . فما إن سمع الرصافى بهذه الدعوة الخطيرة إلى تجزئة الوطن العربى ، حتى أسرع فهجا هذا الدعى الذى نفى عن قوميته العروبة ونسبها إلى الفينيقيين . ولقد ساء الرصافى أكثر من هذا أن يكون هذا الرجل مسيحياً ، وكم كان بوده أن يتحاشى مثل هذه الإدعاءات التى تساعد على خلق الحزازات ، وإيجاد الضغائن بين المسلمين والمسيحيين ، ونحن أحوج ما نكون إلى صفاء النفوس ، واتحاد الكلمة ، فى معاركنا فى سبيل الاستقلال والوحدة .

يقول الرصافى :

عجبت لقوم أصبحوا يُنكروننا وقد عرفونا فى الزمان الذى مرا

هم أسمعونا نُثرة عربية فدوّى صداها فى المسامع مضطرا
فكم من خطيب قام فيها مثرثراً فطرّى لنا من يابس القول ما طرى
وكم شاعر قد أرخص الشعرَ دونها وكم قلم فوق الطروس بها صرا
وكنا أجبناهم إليها إجابة بها قد تركنا جانب الدين مزورا
رجاء اتحاد فى طريق سياسة تعم مراميها بنى يعرب طرا[1]

وعلى هذا الأساس ، فقد كان الرصافى يستنكر كل دعوة ترمى إلى تفرقة الصفوف بين المسلمين والنصارى ، ويستهجن قول كل من يهدف إلى ذلك .

ولقد كان الرصافى يعتقد مخلصاً أن توحيد الله إنما يعنى اتحادهم لأنفسهم ، وجمعهم لكلمتهم ، وأن أية دعوة إلى التنابذ سيكون مصيرها الفشل التام لا محالة :

ليس معنى توحيدنا الله فى الملّة إلا اتحادنا فى الكيان
فلهذا نعم لهذا لهذا نحن دنا بوحدة الديان
وحدة لا يفلها المتوالى من صروف الدهور والأزمان[2]

ومن مظاهر دعوته إلى الوحدة العربية ، استنكاره الشديد لتلك القيود الكمركية المفروضة ظلماً وعدوانا بين البلدان العربية ، لتأكيد تجزئتها ، وخلق الحواجز الاصطناعية فيما بينها . وقد صادف أن سافر الرصافى مرة إلى حلب ، فطلب إليه رجال الكمارك أن يفتشوه ، فتألم من أجل ذلك أشد الألم ، ونظم قصيدة يندد فيها ، بأسلوب ساخر مرير ، بهذا الوضع المشين الذى تعرض له وهو العربى الذى يعتبر كل البلاد العربية وطنا له ، قال فيها :

جئت إلى الدير ضحى يوم الأحد أقصد منه حلبا فيمن قصد
فأعترضتنى شرطة ذات رصد تطلب تصديق جوازى فى الصدد

لم أدر جد فعلكم أم هودد فإن أجنادك جاءوا بالفند
إذ فىّ عاثوا عيث ذئب فى نقَد تعاورتنى منهمُ يد فيد
أفاد كالقاتل قيد للقَوَد حتى ثيابى فتشوها والجسد

---

(١) أنظر قصيدته « صبح الأمانى » ص ٤١٧ .
(٢) الديوان ص ٤٧٧ .

إلى أن يقول

لـكنما الأمر لديهم قد فسد والحـكم قد جار عليهم واستبد
فالقوم أما حظهم فقد رقد عنهم وأما سعدهم فقد خمد
منهم وأما نحسهم فقد وقد وقد أضاعوا مجدهم إلى الأبد[1]

ومن مظاهر إيمانه بالوحدة العربية ، تجاوبه مع أحداث الأمة العربية كل التجاوب . فتارة هو يفرح أشد الفرح لما تناله هذه الأمة من نجاح فى مضمار الرقى والتقدم فى هذه الحياة ، ويمجد كل من يشترك فى رفعتها وعلو شأنها ، كأن يمدح هذا الرجل ، أو تلك السيدة ، لأنهما قد أصدرا مجلتين عربيتين يعتبرها الرصافى دليل تقدم هذه الأمة ، وعنوان مفاخرها ، كما فعل مع الأستاذ محمد باقر لما أصدر جريدته (البلاغ) فى بيروت[2] ، وكما فعل مع السيدة حبوبة صاحبة مجلة (الحياة الجديدة) فى بيروت أيضاً[3] .

وكأن يمدح ذلك الرجل لأنه رأى فى مواقفه القومية المشرفة تجاه الاستعمار مفخرة للأمة العربية ، ورمزا لبطولاتها .

إنه مدح مثلا البطل عبد الـكريم الريفى . والرصافى ما كان ليمدحه ، إلا لأنه بطل من أبطال العروبة ، ولأنه بطل موقف هز عواطفه القومية هزا[4] .

ومدح الزعيم التونسى الـكبير عبد العزيز الثعالبى ، مدحه لأنه رأى فيه رجلا يغار على العروبة أن يراها مهددة المصالح بالفساد[5] .

وتارة هو يتألم أشد الألم لـكل ما يصيب الأمة العربية من سوء ، أو أن يلحق الأذى بعض أفرادها . .

إنه مثلا استنكر بشدة موقف الحـكومة المصرية من الأستاذ على عبد الرازق صاحب كتاب « الإسلام وأصول الحـكم » ، كما استنكر بشدة موقفها من الأستاذ

(١) الديوان ص ٤٦٢ .
(٢) الديوان ص ١٥٤ .
(٣) الديوان ص ١٥٦ .
(٤) الديوان ص ٢٨٥ .
(٥) الديوان ص ١٣٤ .

الدكتور طه حسين صاحب كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، وطلب إلى الحـكومة أن تصون حرية الفكر ، وترعى الأدباء ، كما ترعى الشعراء[1] .

ورثى الرصافى بعض رجال العروبة وزعمائها وأدبائها وعلمائها ، وما سبب رثائه لهم إلا نزعته القومية التى جعلته يرى فى أبناء الأمة العربية كلهم إخواناً له فى العقيدة والـكفاح ، وأن فى فقدهم خسرانا لهذه الأمة التى هى أحوج ما تـكون إلى كفاحهم وجهادهم .

إنه رثى الشيخ محي الدين الخياط ، ورثى محمد فوزى باشا العظم ، ورثى جبر ضومط ، ورثى شوقى ، ورثى غيرهم وغيرهم[2] .

ومن مظاهر دعوته إلى الوحدة العربية أيضاً ، تحدثه عن أكثر البلدان العربية حديثاً مملوءا بالعاطفة المشبوبة ، والحب الصادق .

تحدث الرصافى كثيراً عن لبنان ، وتحدث عن فلسطين ، وسورية ، ومصر وتونس ، وليبيا ، وجنوب الجزيرة العربية ، وما حديثه عنها إلا حديث من تربطه وهذه الدول العربية ، التى يتمنى وحدتها ، روابط متينة من الأخوة الصادقة ، روابط القومية العربية التى تجمع هذه البلدان ، وتوحد بينها .

وهنا نذكر أنه ليس من باب المصادفات أن يسافر الرصافى من دمشق إلى القدس عام ١٩٢٠ ، ليستقر عندها ، ويطلب فيها العيش ، ولم يسافر إلى مسقط رأسه بغداد . فـكأنما بلدان له ، ومن حقه أن يطلب العيش فى أى منهما ... فهو يطلبه فى القدس ، كما يطلبه فى دمشق ، وكما يطلبه فى بغداد .

إن كل البلاد العربية وطن واحد له . . إنه أحد رجال العروبة ، وأحد شعرائها .

إذن لا عجب بعد هذا كله أن يفتخر ويقول مخاطباً نفسه :

« عهدتك شاعر العرب المجيدا »[3] .

(١) انظر الديوان ص ١٣٨ .
(٢) انظر القسم الخاص بالمراثى فى ديوانه ص ٣٠١ وما بعدها .
(٣) الديوان ص ٣٤ .

الباب الخامس

خصائص شعره السياسى

لقد آن لنا أن نتعرف الآن على دراسة فنية ونقدية لشعره السياسى ، لنبين على وجه الإجمال ، ما كان عليه هذا الشعر من خصائص ومميزات ، معتمدين فى ذلك كله على مجموعة هذا « الشعر السياسى » الذى هو رائدنا فى الحكم عليه من جهة هذه الخصائص وتلك الميزات .

وما دمنا قد عرفنا الكثير من حياته وآرائه ومعتقداته ونزعاته السياسية ، وأثر الأحوال والأحداث فيها جميعاً ، فإننا بهذه الوسيلة يمكننا أيضاً معرفة أهم مميزات شعره السياسى هذا وخصائصه .

ومعلوم أن شعر الشاعر لايمكن تقويمه إلا بمقدار ما أضافه إلى التراث الأدبى فى لغته الخاصة ، بعد بيان قيمته الموضوعية ، وقيمته التعبيرية والشعورية النافذة ، وبيان مدى تأثره بالبيئة ، وتأثيره فيها .

ولرب قائل يقول : إن هذه الدراسة قد لاتدخل فى صميم العمل الأدبى ، وإنما تدخل فى صميم العمل السياسى ، مثلما تكون دراسة صراع الطبقات فى المجتمع الحديث مثلا ، من صميم درس الرجل الاجتماعى . ومثلما تكون عملية تحطم الذرة حقيقة علمية يهتم بها عالم الذرة ، ويصفها وصفاً علمياً وهكذا .

والحق إن مادة الأدب السياسى ، ما إن خرجت عن هذه الدائرة المحدودة المعينة تحت إطار (السياسة) ، ودخلت فى مرحلة من مراحل الانفعال الذاتى ، والإحساس المرهف ، وعاش الشاعر بشعوره ووجدانه مع هذه الحوادث السياسية المعينة ، وصورها تصويرا أدبياً فنياً ، فإن عمله حينئذ يصبح عملا أدبياً لاغبار عليه .

يقول الأستاذ سيد قطب (وصراع الطبقات فى المجتمع الحديث حقيقة اجتماعية يحللها الرجل الاجتماعى ، ويذكر أسبابها ، ويتتبع أطوارها ، فلايكون هذا عملا أدبياً . ولكن قد يأتى أديب موهوب ، تنفعل نفسه بهذا الصراع ، ويعيش باحساسه فى

غماره ، فيصوره تصويراً إنسانياً ، أو ينشىء حوله قصة أو تمثيلية يصور فيها هذا الصراع تصويراً حياً ينفعل له من يقرؤه ، ويعيش بشعوره مع أشخاصه وحوادثه ، فهنا يصبح هذا التصوير عملا أدبياً (١) .

لذا يقتضينا هذا العمل الأدبى المتكامل دراسة فنية لشعره السياسى ، لبيان ما استطاع أن يحققه الرصافى فى جملة هذا الشعر الذى كان يستمد صوره ومعانيه من البيئة التى كان يعيش فيها ، ثم يوجهه إلى الشعب على مختلف طبقاته الاجتماعية ، وشتى ألوانه ونزعاته الفكرية . ولنعرف إلى أى مدى كان موفقاً فى هذا التعبير الموجه ، وما احتواه من خصائص ومميزات نبهت أذهان الناس إليه ، وقربته إلى نفوسهم وأفئدتهم .

وهنا جرى بنا أن نعيد إلى الأذهان ما كنا قد ذكرناه فى الفصل الثانى من الباب الأول عن كيفية انتقال الشعر من حدود النزعة الفردية إلى حدود المشاركة الوجدانية لآلام الشعب وآماله . وكيف أن هذا الشعر الذى كان يدور فى فلك الولاة والحكام ، ويقف على أعتابهم ، ومن يضلع فى ركابهم ، بدأ ينزع نزعة « شعبية » ، ويميل إلى التعبير عن أمانى الشعب ومتطلباته .

إذ كان للرصافى ، كما كان لأضرابه الآخرين الذين عاشوا فى فترته ، الفضل الأول والأسمى فى النهوض بهذا الشعر من الكبوة التى صار إليها بعد عهد الانحطاط الطويل ، وإيلاجه فى عهد جديد من النمو والازدهار .

لقد ذكرنا هذا فى الناحية الموضوعية . .

ولقد ذكرنا أيضا ، أن مبنى القصيدة قد بقى على ما هو عليه ، يعنى بالأساليب القديمة الموروثة ، فحافظ على الوزن والقافية . كما أن اللغة التى استعملت فيه هى اللغة المألونة ، والعبارات المسموعة ، وودع بصورة عامة كل ماله علاقة بشعر عهد الانحطاط من محسنات لفظية وبديعية وغيرها مما هو معروف وشائع .

---

(١) النقد الأدبى أصوله ومناهجه ص ٩ الطبعة الثالثة ١٩٦٠ مطبعة دار الحمامى .

ذلك هو ما كنا قد ذكرناه من قبل .

ونحن نذكره الآن ، لأنه سوف يعيننا على فهم شعر الرصافى ودراسته على الوجه الأتم . إذ أن إطار شعره العام مرسوم على كونه من الناحية الموضوعية قد تخطى حدود النزعة الفردية ، وعبر عن انفعالات الشعب وأحاسيسه ، ومرسوم أيضاً على كونه قد حافظ على الأساليب العربية الموروثة كما سنرى .

ولكن كيف عبر الرصافى عن هذه الناحية الموضوعية ؟

كيف عبر عن آرائه ومعتقداته السياسية ، وهى مدار دراستنا هذه ؟

ما هى مفردات اللغة ، والمعانى التى استعملها فى شعره ، وكيف استعملها ؟

وبالتالى ما أهم خصائص ومميزات شعره السياسى ؟

وقبل أن ندخل فى صلب هذا الموضوع ، علينا أن نجيب على السؤال الآتى :

هل لشعره السياسى خصائص فنية تميزه عن سائر أغراض شعره ؟

إن الإجابة على هذا السؤال ، يقتضينا الرجوع إلى القصيدة ذاتها ، فننظر فى مبناها ومعناها ، والغرض الذى عالجته ، والمناسبة التى قيلت فيها ، حتى يمكننا ملاحظة هذه الخصائص ، سواء فى قصائده السياسية أو غير السياسية .

وفى الحقيقة فإن هناك ظواهر فنية تداخلت تداخلا تاما ، بحيث يصعب معها فصلها عن هذا الشعر أو ذاك ، ولا يمكن اعتبارها مميزات لغرض دون غرض آخر .

فالرصافى ، فى مبنى القصيدة وشكلها العام ، لم يخرج عن عمود الشعر العربى فى سائر أغراض شعره ، فطبق نفس المعارف العروضية ، وحافظ على وحدة القافية فى كثير من قصائده . ولكنه لم يلتزم كثيراً بالتصريع فى أغلب هذه القصائد ، وهو أن يكون مقطع المصراع الأول فى البيت الأول مثل قافيته . مما يدل دلالة واضحة أكيدة على أن الرصافى لم يتأثر بأساليب النظم الحديثة المستوردة من الآداب الغربية .

وبعبارة أوضح ، إن مجال التجديد لم يشمل إلا الأغراض والمعانى فحسب ، أما شكل القصيدة العام ، فقد كان حريصاً على أن يحافظ عليه ، ولم يستسغ الخروج عن دائرته المرسومة الثابتة .

وله فى هذا الشأن رأى واضح صريح جاء فيه :

(إن النطق وهو أسنى مظهر من مظاهر الشعور لما اقترن بالغناء تولد الشعر . فالشعر لا يقال إلا لينشد ، وبعبارة أخرى ليتغنى به ، فلابد فيه من الوزن والقافية ، لأن الغناء نغم وإيقاع ، وهما لا يكونان إلا على تقاطيع متوازنة من الكلام ، ولم نعهد أمة من الأمم الغابرة ولا الحاضرة تغنت بشعر لا وزن فيه . وغاية ما نراه من شعراء أوربة اليوم هو أنهم يبعدون القوافى ويتجوزون فيها لا إنهم يهملونها بتاتا ، وكما هم يتجوزون فى القوافى يتجوزون فى الوزن أيضاً ، فلا يلتزمون فى القصيدة الواحدة وزنا واحداً . وقصارى القول فى طريقتهم هذه، إنها تشبه طريقة « الموشحات » عند العرب[1]) .

على أن هناك خصائص ومميزات مختلفة ومتباينة بين هذا الشعر السياسى ، وسائر أغراضه الأخرى ، خاصة فى المعنى واللفظ والأسلوب ، وإن كانت هذه بجملتها أيضاً غير متميزة عن سائر شعره الاجتماعى بمفهومه الخاص .

ولما كنا قد ألحقنا هذا الشعر الاجتماعى بالشعر السياسى ، للسبب الذى ذكرناه من قبل ، فيمكننا اعتبار هذه الخصائص والمميزات واحدة على كل من الشعر السياسى والشعر الإجتماعى .

فالرصافى فى شعره السياسى يبدو غير طبيعى ، بادى التأثر ، دائم الحنق والثورة ، ولذلك نراه لا يتأنق فى شعره كثيرا ، ولا يستجلب المفردة المصقولة ، ولا الخيالات المبدعة . وهو مع بالغ اعتزازه بأمور الصنعة الشعرية ، فإنه يبدو فى أسلوب شعره السياسى ، يختلف بعض الاختلاف عن بعض نواحى شعره الأخرى . وهو حين يتأثر بحادث سياسى ، يكون أقرب إلى روح العامة منه إلى روح الشعراء .

وسر الاختلاف بين أسلوبه فى شعره السياسى ، وأغراض شعره الأخرى ، هو أن الرصافى يخاطب به عامة الناس . ولذلك فهو يختار أبسط الأساليب الشعرية ، ويتناول أقرب الألفاظ فى المدلولات اللغوية ، وذلك لكى يفهمه العامة لانهم هم المقصودون به .

(١) أنظر رأيه هذا كاملا فى كتاب معروف الرصافى دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانه ص ٢٥٥ وما بعدها الطبعة الثانية ، مطبعة الرسالة ١٩٥٧ .

كما أننا أحسسنا فى موسيقى هذا الشعر السياسى بقوة وعنف ، وبصخب أحياناً ، لا نحس بها مع غيره من الأغراض الأخرى ، وذلك لأن الالفاظ التى كان يتخيرها الشاعر فى هذا الشعر ذات جرس قوى شديد يوحى بالصلابة والخشونة . وهذا أمر طبيعى ، لأن الألفاظ التى تذكر فى وصف معركة مثلا ، أو فى موضوع سياسى حماسى، تختلف كل الاختلاف عن تلك الالفاظ التى تذكر فى الغزل أو الوصف أو غيرها . ولكن ذلك لا يعدم أن يكون الرصافى قد اختار من اللغة أصلح الألفاظ لمعانيه ، وأكثرها تعبيراً لما يريد قوله ومعالجته .

هذه هى بعض أوجه الشبه والاختلاف بين شعره السياسى وسائر أغراض شعره . وفيما يلى سنبين بوضوح ، وبشئ من التفصيل ، أهم خصائص هذا الشعر ومميزاته .

إن من أهم ما يميز شعره هذا ، عاطفته الصادقة فى كل ما كان يقوله . إنه قد جرد شعره من كل كذب ورياء وتمويه . وهو على حق حينما قال :

وجردت شعرى من ثياب ريائه فلم أكسه إلا معانيه الغرا[1]

لأنه كما يقول :

أحب صراحتى قولا وفعلا وأكره أن أميل إلى الرياء[2]

والناس ما أحبوا الرصافى وقدروه وأنزلوه منزلة رفيعة سامية ، إلا لأنهم قد أيقنوا صدق عاطفته ، ووثقوا من روحه الوثابة التى لا تضمر خبثاً ولا كذبا ولا نفاقا ، فانعكس ذلك كله على شعره بصدق أيضاً .

وهو هنا ، فى شعره السياسى ، كان مشبوبا بالعاطفة ، ذائباً فى وهج الحس والانفعال . وكان لا يقول الشعر السياسى إلا بعد أن يعتقد أن فيما يقوله هو الحق ، وهو الصواب ، وأن فيما يرتئيه ويعلنه للناس ، كان نتيجة تجربة صادقة صريحة لا لبس فيها ولا غموض .

لنأخذ أية قصيدة من هذا القصائد السياسيه التى بين أيدينا ، حتى نرى مبلغ صدق

(١) الديوان ص ٥١ .
(٢) الديوان ١٩١ ص .

الرصافى فى هذا التعبير المنبثق من صدق العاطفة ، وصدق الشعور ، بما حوله من أحوال وأحداث . لنأخذ مثلا قصائده التى كان يهاجم فيها السلطان عبد الحميد ، ويدعو إلى الثورة ضده أمثال (إيقاظ الرقود ورقية الصريع وتنبيه النيام) وغيرها مما أشرنا إليه من قبل ...

إن أول ما يطالعنا فيها هو صدقه فى هذا الشعور ، وصراحته المتناهية فى انفعالاته الثورية . وهذا مما لا مجال للشك فيه . إذ كيف لا يكون صادقا وهو يدعو إلى ثورة ضد أقوى سلاطين بنى عثمان ، وأشدهم بطشاً وتنكيلا .

ومن هنا جاءت قصائده السياسية ، وهى صادقة ، مليئة بصدق العاطفة أيضاً ، ومليئة بالصدق الفنى فى عمله الأدبى هذا . وكان الناس حينما يقرءون هذه القصائد ، فكأنما هم يقرءون أنفسهم ، وينفعلون بها أيما انفعال .

وهنا تأتى ميزة أخرى من مميزات شعره السياسى ، وهو أنه يمنحنا القدرة على الانفعال به ، وقد يتعدى هذا الانفعال إلى صورة من صور الحنق والثورة . ولهذا ، فان الرصافى قادر على أن يأخذ بأيدينا إلى أى معنى من معانى هذا الانفعال . فتارة هو ساخط فنسخط نحن معه ، وتارة هو ثائر فنثور نحن معه ، وتارة هو ساخر فنسخر نحن معه وهكذا .

فى قصيدته (غادة الانتداب[1]) مثلا ، على عظم مابها من حزن وبلاء بهذا الانتداب البريطانى المقيت على العراق ، قد ننسى أنفسنا قليلا حينما نقرأ أبياته المليئة بالسخرية من هذا الانتداب الذى صوره على هيئة غادة جميلة تظهر الرحمة ، وتبطن العذاب ، أقول قد ننسى هذا الظلم والجور ، فنبتسم معه وهو يصور مشية هذه الغادة وهى تمشى (العرضنى فى جلابيبها) بأسلوب ساخر فى قوله .

تمشى العرضنى فى جلابيبها ... مشية إحدى المومسات القحاب
تختلب الناس بأوضاعها ... وكل ما يصدر منها خلاب
قد وضعت تاجا على رأسها ... يلمع فى الظاهر لمع الشهاب

(١) الديوان ص ٤٥١ .

وعلى حين غفلة منا ، ونحن لا نزال فى سخريتنا هذه ، إذا به يثور ويثور ضد الانتداب ، وإذا بنا نحن نثور ونثور أيضا ، وننسى ابتساماتنا الساخرة منذ لحظة ، وينتقل بنا فجأة ، ونحن أمام هذا المشهد لم نزايله بعد ، إلى مشهد آخر من مشاهد الثورة والانفعال فى قوله :

مصابنا أمسى فظيعا بها ... يارب ما أفظع هذا المصاب
تالله قد حق لنا أننا ... نحثو على الارؤس كل التراب

هذا هو طابع الرصافى فى أغلب شعره السياسى ، وكذلك الاجتماعى بمفهومه الخاص ، إنه يصور الحوادث تصويرا يجعلك تنفعل بها من حيث لا تشعر . وما مرد ذلك إلا لأنه قد صور هذه الحوادث القريبة منا ، والتى من حولنا ، بصدق وإخلاص ، خير تصوير وأشرفه . فجاء عمله الأدبى فى هذا رائعاً ، لأنه كان يعرف كيف ينفذ إلى قلوبنا ، وكيف يجعلنا ننفعل معه كيفما يريد ، ومتى يريد .

ولقد ذكرنا فى جملة ما ذكرنا فى كثير من فصولنا السابقة ، أن آراء الرصافى السياسية كانت صدى لبيئته التى عاش فيها وتفاعل معها . وان ثمار وعيه السياسى المتطرف كان نتيجة حتمية تفرضها غلظة الحياة التى نشأ وتربى فيها شاعرنا الرصافى ، وقسوتها .

فغلظة هذه الحياة ، وقسوتها ، وشدتها ، هى التى أدت به أن يكون حازما قويا فى روحه ، وفى ثاقب فكره . وعلى هذا ، جاءت قصائده السياسة أيضاً مليئة بمثل هذه القوة ، وهذه الصلابة ، والارادة الحاسمة ، والقول الفصل . وكأنه كان وهو يقول الشعر ، يطالب إلى الناس أن يعملوا بما يقول ، وأن لا يجادلوا فى الذى منه يسمعون . ذلك أن فى شعره ، كما يظن ويريد ، أقوالا لاتحتمل الجدل ، وأن فى آراءه التى يسكبها فى قصائده حقائق لا تحتمل التأويل ولا تبتغيه .

هكذا هو حين يمثل أشواط القوة والحزم والقول الفصل فى شعره . ولنتأمل هذا القول على ضوء بعض من شعره ، إنه يقول فى قصيدته (حكومة الانتداب) ، وقد مرت بنا سابقا :

أنا بالحكومة والسياسة أعرف ... آلام فى تفنيدها وأعنف

هكذا يستهل الرصافى قصيدته هذه . . إنه يقرر أنه يعرف هذه الحكومة ، ويعرف سياستها ، فلا معنى للجدال فى ذلك .

ويستمر (أألام فى تفنيدها واعنف) فيتساءل بعد هذا كما نرى :

وهل أنا ألام بعد قولى هذا وأعنف ؟! فكأنما هو بذلك لا يترك المجال للوم أو تثريب أو مناقشة .

هذه هى عبارات الحزم والقوة والارادة فى شعره — وما أكثرها فى شعره — .

ويقول أيضاً :

هذى حكومتنا وكل شموخها كذب وكل صنيعها متكلف

هذا بيان للناس لا جدال فيه .

ويتبعه بيان آخر :

ملك ودستور ومجلس أمة كل عن المعنى الصحيح محرف

وهكذا هو شأن الرصافى فى كثير من شعره ، كمثل قوله فى قصيدة (الحرية فى سياسة المستعمرين)[1] .

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم
وتأخروا عن كل ما يقضى بأن تقدموا
ودعوا التفهم جانباً فالخير ألا تفهموا

القصيدة . . .

بهذه الصورة من المعانى المعكوسة ، يسخر الرصافى بشكل لاذع من هذا الوضع السياسى فى العراق ، ويحث الناس على العمل الذى يطلبه منهم بواسطة هذه المعانى المعكوسة فيقول :

(١) الديوان ص ٤٥٠ .

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم

فانه يطلب إلى القوم السكوت ، ذلك لأن الكلام محرم ، ويطلب إلى القوم النوم ، ذلك لأنه لم يفز فى هذه الدنيا إلا النائمون .

ففى هذه المعانى جميعها ، تتمثل عنده الإرادة الحاسمة واضحة كل الوضوح ، ولا يزال كلامه لا يحتمل الجدل أو المناقشة . ولهذا جاء أسلوبه فى هذا القصد رصينا ، موجزا ، لاميل فيه إلى شرح أو أطناب .

ومن خصائص شعره السياسى ، أنه ينفذ إلى الغرض الأصلى الذى يريد معالجته . فهو لا يستهل قصائده بالبكاء على الدمن الدوارس والاطلال (أو بافتتاح قصائده بالتغزل بليلى والرباب أو وصف ابنة الكرم أو بث الهوى وتبريح الصبابة)[1] .

وهذه ميزة هامة فى شعره ، إذا ما عرفنا أن الشعراء الذين عاشوا فى الفترة السابقة له مباشرة ، أو بعض الذين عاش فى زمنهم ، كانوا لا يزالون ينظمون على المنهج القديم ، حيث يستهلون قصائدهم بالبكاء على الدمن والاطلال ، أو غير ذلك من ضروب الاستهلال التقليدية .

ونحن نستطيع أن نقول إن الرصافى هو أول شاعر عراق خرج عن هذا التقليد ، وتبعه فى ذلك الشاعر جميل صدق الزهاوى حيث كانا فرسى رهان فى الجرى وراء التجديد .

وهذه قصائده السياسية بين أيدينا ويمكننا الرجوع إليها للتأكد من صحة ذلك . ثم هو بعد ذلك ينساق وراء المعانى التى يريد ذكرها للتعبير عما يخالجه من آراء وأفكار ، من أول القصيدة إلى آخرها ، دون تعب أو وصب .

ومعنى ذلك أنه كان يحافظ على وحدة الموضوع الذى ينظم فيه ، وهذه ميزة أخرى هامة فى شعره ، خاصة بالنسبة إلى مثل هؤلاء الشعراء الذين ذكرنا أنهم عاشوا فى فترته ، أو عاشوا قبله بقليل ، والذين كانت لديهم وحدة الموضوع مفقودة فى كثير من القصائد .

(١) معروف الرصافى — دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانه ص ٢٣٦ ، الطبعة الثانية مطبعة الرسالة بمصر ١٩٥٧

وهومع ذلك كان لا يحشى التطويل فى مثل هذه القصائد ، وإنما يستقصى معانيه استقصاء بدون عناء أوتكلف . كما أنه كان متسلسل الفكرة ، لا يكرر ولايسجع ، (وإذا أنت أمام قصيدة طويلة لا تحس فيها باللين الذى يؤدى إليه الطول فى استزاف المعانى ، والرغبة فى التطويل خشية اتهامه بالتقصير . وإذا القصيدة كلها تعالج هذا الغرض الذىاراده الشاعر ، بلاحيد عنهذا القصد ، ولااستطراد إلىمالاغناءفيه)[1] .

والرصافى حريص حينما يتناول الموضوع أن يعبر عنه تعبيراً لفظياً يتناسب مع الأحداث ، ويتناسب كذلك مع المخاطب ، ومتلقى فنه .

إنه مثلا قد تدنى كثيراً حتى كاد أن يصل العامية ، أو قل قد بلغها ، حينما خاطب اللورد كراين فى قصيدته المشهورة التى أشرنا إليها من قبل ، وهى بعنوان (يامحب الشرق)[2] إذ استعمل بعض الالفاظ والتعابير العامية المبتذلة أمثال :

« أهلا بك يامستر كراين » ..

و « فى كل المداين » ...

و « فانظر الشرق وعاين » ...

و « أسر مديون لداين » ...

و « فمن المسئول عن ذلك » ...

وغيرها من التعابير السوقية التى تترفع عنها لغة الشعر ، رغم أنها لغة عربية فصحى .

وفى اعتقادنا أن الرصافى ما كان ليصل إلى هذا التدنى إلا بقصد من عنده ، وبمحض إرادته ، لأنه كان مدركاأن المخاطب كان لايعرف العربية ، وكانمدركا كذلك أن المترجم مهما بلغت ثقافته الأدبية ، وارتقى تحسسهلمعانى الشعر ، لايستطيع أن يترجم أحاسيس الرصافىوانفعالاته بلغةأدبية فائقة ، أوحتى قريبة منها ، علىوجه منالوجوه .

(١) معروف الرصافى — دراسة ادبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانه ص ٢٣٦ ، الطبعة الثانية ، مطبعة الرسالة بمصر ١٩٥٧

(٢) الديوان ص ٤٣٨ .

وعلى هذا الأساس تعمد الرصافى أن ينشد هذه القصيدة بهذه اللغة البسيطة السهلة ، حتى يكون من الميسور ترجمتها إلى اللغة الانكليزية ، وهى تلك اللغة التى يتكلم بها المخاطب وهو مستر كرابين .

وبناء على هذا ، فإننا ندرك الآن أن الرصافى كان يتعمد أن يختار ما يشاء من طرق التعبير . وفى نفس الوقت كان يعرف كيف يتناول الموضوعات ، وكيف كان يختار لها الالفاظ والمعانى المناسبة . .

وبالتالى فقد كانت له شخصية أصيلة فى مثل هذه الأعمال الأدبية . ذات الأصول الفنية المعينة

لأن الملاحظ أن الرصافى حينما يعبر عن معان قوية حازمة صارمة كتلك التى تصور حالا من حالات سخطه أو ثورته ، تزخر قصائده بالفاظ جزلة قوية .

ولقد شاهدنا أمثلة على ذلك ، كثيراً من القصائد الثورية التى مرت بنا آنفا . ويكفينا الآن أن نذكر قصيدته (الوطن والجهاد)[1] التى قالها الرصافى عند دخول الدولة العثمانية فى الحرب العامة الكبرى ، يستنهض المسلمين إلى الجهاد فى سبيل الذود عن الوطن ، ويقول فى مطلعها :

ياقوم إن العدا قد هاجموا الوطنا	فانضوا الصوارمواحموا الأهل والسكنا
واستنفروا لعدو الله كل فتى	ممن نأى فى أقاصى أرضكم ودنا
واستنهضوا من بنى الإسلام قاطبة	من يسكن البدو والارياف والمدنا
واستقتلوا فى سبيل الذود عن وطن	به تقيمون دين الله والسننا
واستلئموا للعدا بالصبر واتخذوا	صدق العزائم فى تدميرهم جننا
واستنكفوا فى الوغى أن تلبسوا أبدا	عار الهزيمة حتى تلبسوا الكفنا

القصيدة . .

إذ نحس ، ونحن نتابع قراءة هذه القصيدة ، أن الرصافى إنما اختار هذه الألفاظ الجزلة القوية ذات الجرس الشديد ، الصلب ، الصارم ، فلكى يعبر تعبيراً مناسباً عن تلك الانفعالات الثورية التى تجيش فى قلبه ، وتسيطر على أحاسيسه . ولا شك فى أن

(١) الديوان ص ٤٩١ .

ألفاظ (انضنوا ، واحوا ، واستنفروا ، واستنهضوا ، واستقتلوا) وغيرها ، هى خير ما تمثل هذه الحالة الثورية التى يريدها الشاعر لاستنهاض هؤلاء القوم .

وليست هذه الألفاظ فى قوتها وشدتها ، أى فى جرسها ، هى وحدها التى تصور مثل هذه الثورة ، وإنما يضاف إليها كذلك صور وظلال متناسقة تشع من خلال تعابيره الثورية هذه ، فتزيد إلى جرس الكلمة وإيقاعها المعين معانى صاخبة ، وطرقا ثائرة ، كما نحس ونشعر ، فيكون تصوير الجو العام على هذه الصورة متسقاً متجانساً ، ويكون بذلك قد استوفى صوره الثورية كل الاستيفاء .

ومن ميزة هـــذا الشعر الثورى طول نفسه فيه ، وامتلاكه لناصية التعبير امتلاكا محكما .

وفيما عدا ذلك فإنه يميل إلى اختيار الألفاظ ذات السلاسة والسهولة ، وخاصة فى أسلوب السرد والبيان .

وذلك مردود بطبيعة الحال إلى الحالة النفسية التى يعانيها الرصافى حينما يقول الشعر . ولهذا فإن ألفاظه أو لغته الشعرية ، تختلف باختلاف هذه الحالات التى تؤثر فى شاعرنا أكبر الأثر ، وكذلك حسب ما تؤديه من المعانى والأغراض . فإذا كانت هذه المعانى تعبر عن حالات ثورية ، اختار لها ما يناسبها من الألفاظ والتعابير كما رأينا ، وهى تلك الألفاظ والتعابير التى تطاوعه فى مثل هذه الحالات القوية الحازمة ، ولا تطاوعه فيه الألفاظ السهلة السلسة ذات الليونة الخاصة وبالعكس .

وهو سواء كان قوى اللفظ أو سلسه ، لا يستعمل حوشى اللفظ أو غريبه إلا فى النادر ، وعلى وجه التحديد فى قصيدة واحدة وهى قصيدته المسماة (فى ليلة نابغية)[1] التى هجا بها الاصلاحيين بعد أن أخذت صحفهم تشنع عليه ، حينما لامهم وفند رأيهم فى قصيدته (ما هكذا)[2] التى قالها لما اطلع على لا تحتهم ورأى فسادها ، وفى عقدهم مؤتمرا فى باريس . وإنما يستعمل ما تفهمه طبقة كبيرة من المثقفين وبعض العامة من الناس ، بأسلوب مشرق فياض ، حتى يجعله قريبا من مداركهم ومحسوساتهم ، لأنه منهم

(١) الديوان ق ٤٠٧ .
(٢) الديوان ص ٤٠٤ .

وإليهم ، على الرغم من تمكنه من اللغة العربية ومفرداتها ، كما شهد بذلك كثير من الأدباء والناقدين[1] .

والرصافى لم يكن فى هذه القصائد كلها ، على درجة واحدة من درجات الابداع الفنى . ذلك أننا نلاحظ أنه قد كانت تنقصه فى بعض الحالات والمواقف ، صفة الصابر على الخلق والإبداع الفنى . فجاء هذا الشعر أحيانا وهو أقرب ما يكون إلى لغة الصحافة ، ولا يفرقه عنها غير الوزن والقافية ، وبعض المعانى الجميلة المنسقة .

وإنه قد ينزلق فى بعض الأحيان إلى ذكر بعض التعابير العامية . وأكثر ما يكون ذلك ، حينما يجعل البيان والإفصاح مقصده الأول ، إذ ينحدر عن رصافة اللغة وجزالتها ، إلى النقيض تماما[2] .

وقد مثل الدكتور بدوى طبانة ببعض الشواهد من شعره ، للتدليل على هذا القصد ، من أغراض متعددة . ولما كان الشعر السياسى هو مدار حديثنا ، فإننا ننقل منه ما يختص بذلك ، فبعد أن أورد قول الرصافى :

قد أبت هـــذه السياسة الا أن تكون الغشاشة الدساسه
إذا أردنا إفاضـــة فى هجاها لكتبنا لكم بها كراسه

يقول (فعبارات « كتبنا لكم بها كراسة » . . . من العبارات التى أخلقتها ألسنة الناس كثيراً ، حتى عدت من العبارات المبتذلة التى تتحاشاها لغة الشعر التى تمتاز بالاختيار والانتقاء[3]) .

وعندى أن البيت كله مبتذل لا حس فيه ولا رواء .

ونحن نضيف إلى ذلك بعض الأمثلة الأخرى من شعره ، مثل قصيدته (الوزارة المذنبة[4]) ، إذ ذكر فيها كثيراً من العبارات المبتذلة الدارجة على ألسنة العوام وتأباها لغة الشعر كقوله :

(١) معروف الرصافى — دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانه ص ٢٥٠ الطبعة الثانية ، مطبعة الرسالة بمصر ١٩٥٧ .
(٢) معروف الرصافى دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانه ص ٢٥١ الطبعة الثانية مطبعة الرسالة بمصر ١٩٥٧
(٣) المصدر السابق ص ٢٥٢ . (٤) الديوان ص ٤٦٦ .

أهـــل بغـــداد أفيقوا من كرى هذى الوزاره
إن ديك الدهر قد با ض ببغـــداد وزاره
شـــأنها شأن عجيب قصرت عنه العبـــاره

فعبارات (أهل بغداد أفيقوا ، وإن ديك الدهر قد باض ببغداد وزارة ، وشأنها شأن عجيب ، وقصرت عنه العبارة) كلها تعابير من هذا النوع .

وكذلك يقول فى قصيدته (حكومة الانقداب) التى أشرنا إليها ، حيث يقول :

بالله يا وزراءنا مـا بالـكم إن نحن جادلنا كم لم تنصفوا

فعبارة (بالله يا وزراءنا ما با لـكم) وعبارة (ان نحن جادلنا كم لم تنصفوا) من العبارات المبتذلة التى تترفع عنها لغة الشعر كذلك .

ونحن نـكتفى بهذا القدر من الشواهد ، لأن مرادنا هنا التمثيل والاستشهاد ، لا الحصر والاستقصاء . وهذا مما يجعلنا أن نؤكد أن شعره على العموم ، كان بعيدا عن التـكلف ، ولا أثر فيه للصنعه ، أو للصياغة . لذا تراءت لنا معانى هذا الشعر متلاحقة بعضها وراء بعض ، تشد بينها القوة والبيان والوضوح .

وإذا كنا قد أسلفنا القول فى موضوع الأوزان والقوافى فى شعره ، فإن الإنصاف يدعونا هنا إلى الإشارة بأن الرصافى كان متمكناً كل التمـكن من هذه الأوزان العروضية ، وكذلك القوافى بصورة خاصة . ويقتضينا الواجب أن نشيد باختياره لمثل هذه الأوزان والقوافى الصعبة ، التى لا يستطيع أى شاعر أن ينظم فيها ، ما لم يكن متمكناً من ملـكة التعبير الشعرى تمـكناً تاما . ذلك أن الرصافى قد أدخل نفسه فى موارد شائـكة حين نظم بعض شعره على أساس هذه القوافى الصعبة .

ونشير هنا بصورة خاصة إلى قصيدته التى سبق أن مر ذكرها ، وهى القصيدة الرائعة (يوم الفلوجة)[1] التى أجاد فى نظمها كل الإجادة ، وهى من القصائد ذات القوافى التى ليس من السهل النظم فيها . وسنثبت هنا ثانية بعض الأبيات لملاحظة هذا الاعتبار .

(١) الديوان ص ٤٦٨ .

يقول مخاطباً الإنـكليز :

حلهـا جيشكم يريد انتقاماً وهو مغر بالسا كنين علوجه
يوم عاثت ذئاب آثور فيها عيثة تحمل الشنار سميجه
فاستهنتم بالمسلمين سـفاها واتخذتم من اليهود وليجه
وأدرتم فيها على العزل كأسا من دماء بالغدر كانت مزيجه
واستبحتم أموالهـا وقطعتم بين أهـل الديار كل وشيجه
أفهـذا تمدن وعـلاء شعبكم يدعى إليه عروجه
أم سكرتم لما غلبتم بحرب لم تـكن فى انبعاثها بنضيجه

وكذلك قصيدته (تموز الحرية[1]) التى قالها بمناسبة إعلان الدستور العثمانى فى شهر تموز (يوليو) ، وهى قصيدة زائية ، حيث يعتبر حرف الزاء من الأحرف النادرة التى لا يكاد يسلس قيادها للشعراء[2] وقد جاء فيها :

قمنا على الملك الجبـار نفرعه بالسيف منصلتا والرمح مهزوزا
حتى تركناه فى هيجاء معضلة ألقت ضراما على الطاغين مأزوزا
إنا لنأبى على الطاغى تهضمنا حتى نهوز فى الهيجاء تهويزا
ونأ كل الموت دون العز نمضغه كمضغنا التمر برنياً وسهريزا
لاعاش من لايخوض الموت مرتضيا بقاءه بعصى الذل موكوزا

وكذلك قصيدته (الإنـكليز فى سياستهم الاستعمارية[3]) وهى ثائية ، وتعد أيضا من القوافى الصعبة ، ومطلعها :

لقد جمع الدهر المـكايد كلها بقدر كبير صيغ من معدن الخبث

وهو بعد هذا وذاك ، قادر على أن يختار من القوافى ما تناسب المقام والقصد . فاختار مثلا ، فى قصيدته المشهورة (الأفول المشرق[4]) التى رثى بها الشهداء الأربعة

(١) الديوان ص ٣٩٠ .
(٢) معروف الرصافى دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية للدكتور بدوى طبانه ص ٢٥٧ . الطبعة الثانية مطبعة الرسالة بمصر ١٩٥٧
(٣) الديوان ص ٤٦٩ .
(٤) الديوان ص ٢٨٣ .

الذين أعدمهم نورى السعيد ، القافية السينية المهموسة ، ليصور بها تصويراً فائقا ، مشهداً من مشاهد الحزن والحداد التى تتصف بالهدوء والسكينة وخذلان النفس . ولا شك فى أننا ، ونحن ماضون فى قراءة هذه القصيدة ، لنحس بآهة ، وأية آهة ، مع كل كسرة لازمة فى هذه السينية الرائعة التى يقول فيها :

إن يوماً به نعيّم إلينا يوم بؤس كحرب يوم البسوس
قد حكاها طولا وشؤما وبغيا وتلظ بحـر نار المجوس
فيه أبدت منا الوجوه كلوحا فى شحوب وغيرة وعبوس

إلى أن يقول :

ووجمنا حزنا ورب وجوم يتأتى من صاخبات النفوس
برئت ذمة المروءة منـــا إن نسى يوم شنقكم أو تنوسى

وعلى هذه الصورة ، امتلأ شعره بهذه الانفعالات والأحاسيس الصادقة .

فلم يكن أبداً فى كل مايقول،ذا قلب باردجاف ، وإنما ، ونحن نقرأ شعره ، نحس فيه نفساً وقلباً وضميرا .

(تم هذا الكتاب بعون الله تعالى)

الملاحق

ملحق رقم (١)

نماذج من تفكير الرصافى السياسى

مستقاة من جريدة الأمل

١ — يقول الرصافى فى حديث له عن روسيا الشيوعية :

(إن روسيا ليست كما صورها عباد سياستها ، وصنائع دسائسها ، دولة حق وعدل ونزاهة واستقامة ، بل إنها إذا لم تكن أكثر مطامع من الدول الأخرى ، فإنها ليست بأقل منها . فهى دولة استعمارية بحته ، لا هم لها إلا بسط نفوذها ، واكتساح الممالك الطامعة فيها بالسياسة أو بالحرب .

فقد رأينا روسيا تخضع بجيشها الوحشى جميع البلاد التى أخضعها القيصر غير عابئة أو مكترثة بمبادئها الإنسانية التى أذاعتها على مرأى من العالم ومسمع . من سيبريا إلى اذربيجان الإسلامية ، أمم كثيرة مظلومة شكواها من حكومة (لينين) أبلغ وأوجع من شكواها من حكومة (نيقولا الثانى) . وهى لم تقف عند حد فى سياسة آسيا الوسطى ، بل كان من جملة الخلاف بينها وبين انكلترا ، أنها كانت تطالب حكومة لندن بأن تعترف بها وارثة لحكومة القيصر ومعاهداتها التى عقدتها مع انكلتره ، لا سيما معاهدة سنة ١٩٠٧ التى كانت الدولتان البريطانية والروسية اتفقتا فيها على تقسيم إيران إلى منطقتى نفوذ ، وهو ما أشبه انكلتره عليها اليوم)[1] .

٢ — ويقول الرصافى متحدثا عن الأمة العربية :

(ليس فى العالم أمة ، كالأمة العربية ، تجتاز اليوم المواقف الحرجة ، وتنتابها المصائب والكوارث الآخذة بعضها برقاب بعض . فقد بليت سورية بالانتداب الفرنسى ، وفلسطين بالهجرة الصهيونية ، والحجاز بغارات الوهابيين ، والعراق بمطامع الترك فى شماليه ، فكأن الدهر الخؤون أبى ألا أن يكيد لها فى عصرها الحاضر ما كاد

---

(١) العدد ٣ — ٣ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٣ .

لها فى العصور الغابرة وأن يناصبها العداء ما دام فيها عرق ينبض ، ودم يجرى فى العروق .

بقى العرب، منذ أفل نجم سعدهم ، وهوى كوكب عزهم ، مطمع كل طامع، ومورد كل ظامىء . فما حملت أمة سيفا إلا واستعملته فى رقابهم ، ولا قام سلطان فى الشرق والغرب إلا وامتدت عنقه إلى مافى حوزة العرب من الأوطان . فمن ساحل الاطلانطيك ، إلى خليج فارس ، أمم عربية فرقت الأعادى شملها ، وا كتسح الغزاة معاقلها ومثاويها ، وشاركوه فى نعيمها، إن لم يكن قد سلبوه منها واختصوا به دونها. ولولا أدمغة اختمرت بالعلم، وعقول نضجت بالتربية ، ووطنية تمكنت من النفوس، وتاريخ يصرخ فى آذان الأجيال ، لانقطع كل رجاء فى حياة هذه الأمة ، ودب اليأس والقنوط فى النفوس، وما نهضة العراق السياسية، وقيام الحجاز بالدعوة العربية ، وتحفز سوريا إلى الانعتاق والتحرير إلا ثمرة من ثمار هاتيك العقول الناضجة ، وأثر من آثار تلك الوطنية التى بسقت شجرتها ، وتدلت أغصانها بالثمار اليانعة)[1] .

٣ — وتحت عنوان السياسة المرنة :

يتناول الرصافى الموقف السياسى فى العراق بعد مرور عامين من تأسيس الحكم الوطنى فيه . ويتطرق إلى السياسة التى يجب أن يتبعها الساسة العراقيون حيال هذا الموقف . وهذا هو نص المقال :

(السياسة علم واسع النطاق ، هو أرفع من أن تنوشه أيدى الجهلة الأغرار، وفن دقيق قد يكسب بالممارسة والتجربة ، أكثر مما يكسب بالدرس فى المدارس والجامعات. وأمامنا كثير من أسماء العظماء الذين رقوا من أحط منازل الصناعة والتجارة ، وأسخف المهن الأخرى ، إلى طبقة العظماء والفحول فى السياسيين، فأداروا دفة سياسة العالم بما فطروا عليه من ذكاء نادر ، وذهن وقاد ، وفطرة واستعداد . وكانوا بذلك عناوين لأمجاد أممهم ، ومفاخر لتاريخها ، وغررا فى جبين عظمتها وقوتها .

نريد أن نقول : إن السياسة سهل ممتنع ، فقد يحظى بنصيب وافر منها رجل تمثلت فيها الملكة والفطرة والنبوغ والعبقرية على أتمها مما لا يناله رجل آخر شحن دماغه بكثير من العلوم التي تلقاها فى المدارس الكبرى والجامعات العظمى .

(١) العدد ٢٦ — ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٣ .

منذ أنشئت الدولة العراقية إلى اليوم برز فى ميدان السياسة بعض من الرجال الذين ، وإن توفرت فيهم الوطنية الصادقة ، والفضل ، والنبل إلا أنهم لما كانوا غير مجهزين بالمواهب اللازمة خسروا المعركة ، وهم فى إبان نشوبها، وأخلوا مراكزهم ، وتخلوا عن صفوفهم لدى أقل صدمة ، فأساؤوا بذلك إساءة معنوية عن غير قصد إلى أنفسهم وإلى الوطن . وكانت أجل أعمالهم غير منطبقة على السياسة المتينة المتطورة بأطوار الحوادث والوقائع . بل عكفوا على سياسة صلبة صلداء ، وأصروا على تنفيذها، وكان من جراء هذا الإصرار الشامل أن أضاعوا ما كسبوه فى الزمن القديم . فوقعت البلاد فى ضيق من المعنويات والماديات على حد سواء .

الثبات على المبادىء شىء جميل ، والحرص على تنفيذها أجمل . ولكن عصرنا اليوم عصر حركة وتطور ، لا عصر تصلب وتعصب . والزعماء الحقيقيون بالفخر الجديرون بالإعجاب ، وهم أولئك الذين يغتنمون كل فرصة لتحقيق آمال وطنهم ناظرين إلى اللباب دون القشور ، والجواهر دون الأغراض . بل أولئك الذين يطرقون كل باب ، ويلبسون لكل حالة لبوسها ، ويسيرون على سياسة مرنة معقولة متفقة مع الضمير الحر والمبدأ الوطنى مهما اختلفت الأشكال والمظاهر ، فما لا يصلون إليه بالمخاصمة والمعاداة ، يصلون إليه بالصداقة والمجاملة .

إن من أهم أسباب وقوف الحركة السياسية فى هذه البلاد ، هو جمودنا على القديم البالى ، وعلى أسلوب رث فى السياسة . بل إننا لبسنا أعتق ثوب سياسى أمام أمة مشهورة بالدهاء ، معروفة بالكياسة طائرة الصيت بما نالته من النصر والظفر على أمم دونها كفاءة ومرونة وتطورا . فإذا نحن أردنا توفيقا فى أعمالنا ونجاحا فى مقاصدنا، فما علينا إلا اتباع أحدث الأساليب السياسيه لنيل حق لنا واضح، فننال بذلك إعجاب العالم وإعجاب الأصدقاء والأعداء ونثبت كفاءتنا ورشدنا .

مضى على العراق عامان وهو يكافح ويخاصم ويجالد ويقارع ، فلم نظفر بكثير من الأمانى التى تطمئن إليها القلوب ، ولم ننل كثيرا مما نصبو إليه ونحلم به ، فما بالنا لا نحجم عن هذه السياسة ، سياسة الشدة والمعاندة ، ولا نستبدلها بسياسة أخرى يسود فيها الحلم والمجاملة والوداد . فإذا عقمت هذه السياسة كتلك ، وظهرت

سيئاتها كالأولى — وهذا محال — فإن الأمة حرة طليقة من قيود تقيدها . وفى وسعها ، بعد إخفاق هذا الأمل ، وحبوط هذه السياسة الجديدة ، أن تسير فى الطريق التى تختارها لنفسها ، وتجدها أقرب الطرق الموصلة إلى تحقيق غايتها العليا . على أن هذه السياسة إذا فشلت فلا تحبط حبوطا ممزوجا بالأسف والخسارة ، كما حبطت سياستنا القديمة . والسياسى العاقل ، هو الذى يدرك الحقيقة المرة من غير طريق النكبة والمصيبة .

بلية هذا القطر عظيمة بكثير من ساستها الذين جمعوا حواليهم جموعا من العامة والسوقة فقيدت البلاد إلى أسوأ المواقف وأخطرها . ولو وفق شعبنا إلى من يقوده قيادة الخبير الحاذق، فيحجم عند لزوم الإحجام ، ويقدم عند وجوب الاقدام ، لما وقع ما وقع ، وحل ما حل من المساوىء والمكاره ، مما يعرفه الجميع ، وتوجع له كل عاقل مخلص .

ومن العار أن يتقدم إليك من تطالبه بحقك ، وتستنجزه وعوده وعهوده باشاً هاشاً مجاملا متلطفا ، فتحول وجهك عنه ، وتظهر له كل نفرة وامتعاض .

فإن هذا ليس من صفات السياسيين الحذق الذين يقابلون حتى ألد خصومهم وأعدائهم بجانب عظيم من المجاملة، هى أقرب إلى الرياء منها إلى الحقيقة. ولكنهم على كل حال تتسع صدورهم للصدق والكذب والحق والباطل والحقيقة والخيال ، وما ذلك إلا لكيلا تلقى عليهم حجة ، ويرموا بطيش أو غرور .

إن فى الماضى عبراً عظيمة ، وعظات خالدة ، جدير بنا أن نضعها أمام أعيننا فى إدارة حركتنا الوطنية ، وعلينا أن نواجه الحقائق فلا نفر منها ، وأن نسمع مالنا وما علينا بسعة صدر ، وثابت قلب ، لكى نستطيع أن نسير سير الحازم اليقظ فى ميدان جهادنا الوطنى . وإلا فإذا سلمنا قيادنا إلى غير أهله ، وهربنا من مواجهة الوقائع ، وعكفنا على سياسة التصلب والتعنت ، فلا مناص لنا من الوقوع فى مأزق أشد حراجة ، وأضيق نطاقا ، من المآزق الماضية ، وعرضنا الكيان الوطنى لأخطار هائلة لا يعرفها إلا العقلاء وذو النظر البعيد[1]) .

(١) العدد ٢٠ — ٢٥ تشرين الاول (أكتوبر) سنة ١٩٢٣ .

ملحق رقم (٢)

الرصافى أول من يرشح نفسه للنيابة[1]

(ننشر فيما يلى ، نص البيان الذى أعلنه الرصافى للملأ مرشحاً نفسه للنيابة فى المجلس التأسيسى . ومما هو جدير بالذكر أن هذا البيان قد أحدث دوياً فى وقته، مما حدا بجريدة الاستقلال أن تكتب أفتتاحية تطالب فيها المرشحين أن يكونوا كالرصافى جرأة وصراحة) .

إلى أبناء بلادى . .

إن من الواجب الوطنى على أن أعلن لأبناء بلادى الرأى الذى أرتأيته فى مسألتنا الحاضرة ، لعلهم يرون فيه من الصواب ما يؤهلنى عندهم للنيابة فى المجلس التأسيسى المطلوب انتخابه اليوم . ولكن قبل ابداء رأيى واعلان خطتى ، أتقدم إليهم بكلمة لابد منها أمام المقصود فأقول :

يجب أن نعود أنفسنا حرية الفكر والصراحة فى القول ، وأن نحترم لكل ذى رأى رأيه ، وإن كان مخالفاً لما نراه، وأن لا نتسرع إليه بالتهم الباطلة ما لم يقم عندنا الدليل القاطع على خيانته . .

أما أنا فما زلت ولا أزال جاريا على هذه الخطة مع من يخالفنى فى رأيه . فأرجو من كل وطنى مخلص يخالف رأيى أن لا يتهجم على بتهمة باطلة ، وأن يقيم الحجة على خطأى، ويرشدنى إلى الصواب فيما إذا رآنى مخطئاً فى اجتهادى، وإلا فأنا منذ الآن أرد كل تهمة على موجهها إلى مجرد كونى مخالفاً له فى الرأى .

حكومتنا والمجلس التأسيسى :

إن فى العراق اليوم حكومة مؤقتة لا يجوز أن تكون دائمة مستمرة، ولا صحيحة مشروعة ، الا إذا وافق عليها أهل البلاد فابقوها وأيدوها وعينوا لها الشكل الذى تكون عليه .

(١) جريدة الاستقلال — العدد ١٩٣ سنة ١٩٢٣ .

ولا يمكن لأهل البلاد أن يجتمعوا لهذا الأمر كلهم أجمعون فى صعيد واحد . إذ يجب أن ينتخبوا من بينهم من أرادوا من مواطنيهم لينوبوا عنهم فى هذا الأمر ، وهذا هو ما نسميه بالمجلس التأسيسى أو النيابى . فوجود هذا المجلس ضرورى لا بد منه ، وأن واجباتنا الوطنية تحتم علينا الاهتمام له ، والعناية به ، والمسارعة إلى انتخابه بكل تبصر ، وحرية فكر ، وإخلاص نية ، وجرأة جنان ، لأن فى التراخى عنه ، وعدم الأكثرات له ضياعاً للمصلحة العامة الوطنية ورفضاً للحكومة مطلقاً ، وأنحيازا إلى الفوضى .

ماذا يعمل المجلس :

إذا إجتمع المجلس التأسيسى فأول عمل يعمله هو وضع دستور للبلاد يعين به الشكل الذى يريده للحكومة . ثم يكون المهيمن عليها بحسب ما سيقرره فى الدستور . أما الشكل الذى أراه أنا موافقاً لحكومة بلادنا فهو أن تكون دستورية نيابية ، يكون الحكم فيها للشعب ومنه وإليه ، ويرأسها ملك مقيد محدود السلطة غير مسئول . وأول وصف يجب أن يثبت لهذه الحكومة هو كونها مستقلة استقلالا سياسياً واقتصادياً ، وسأزيدكم إيضاحاً فيما يأتى :

مناسباتنا الخارجية :

ليس من الممكن لأمة أن تعيش فى العصر الحاضر متجردة من مناسباتها مع الأمم الأخرى ، وذلك لأن سهولة المواصلات ، وتوفر وسائل النقل فى المدنية الحاضرة ، قد جعل الأرض كلها بمنزلة بلدة واحدة ، والأمم فيها بمثابة الأفراد الذين يعيشون فى تلك البلدة . فكما أن مصلحة كل فرد من هؤلاء مرتبطه بالآخر ، فلا يمكن الواحد منهم أن يعيش متجرداً من مناسباته مع الثانى . كذلك أصبحت حالة الأمم فى جميع أقطار الأرض ، فهى كالأفراد مترابطة المصالح متشابكة المناسبات ، وأكبر شىء يظهر فيه هذا الترابط والتشابك هو المسائل الاقتصادية . ولهذا كان الاستقلال الاقتصادى فى كل أمة أهم وأصعب من الاستقلال السياسى . بل ما هذا إلا أمر تابع لذلك . وعليه فأرجو من إخوانى العراقيين إذا قلت لهم إن حكومتنا يجب أن تكون مستقلة

سياسياً واقتصادياً ، أن لا يفهموا من استقلالنا الاقتصادى إلا بقدر ما لبلادنا من التقدم فى المسائل الاقتصادية . ولا شك أنهم يعلمون بأن حالة بلادنا اليوم فى هذه المسائل ما هى إلا حالة ابتدائية جداً . وأننا فى عمران بلادنا ، وفى تقدمها الاقتصادى ، محتاجون إلى سعة علم تساعدنا ، ووفرة مال تعضدنا ، وإلا تعذر علينا التقدم من هذا الوجه . فاستقلالنا الاقتصادى لا يمكن أن يكون فى نشأتنا الأولى تاماً كما نريده ، وما علينا اليوم إلا أن نضع له الحجر الأول من أساسه ، ثم نتدرج إليه فى المستقبل كلما انكشفت حياتنا الاقتصادية .

مناسباتنا مع الانكليز :

قلت فيما تقدم إنه لا بد لكل أمة فى العصر الحاضر من مناسباتها مع الأخرى . وقد يكون بعض هذه المناسبات اختياريا يقتضيه الجوار أو غيره من الأسباب المعلومة . كما قد يكون بعضها ضرب لازب كمناسباتنا اليوم مع الانكليز ، فإنها من الأمور التى انتجتها الحرب العامة فحصلت رغم أنفنا ، وليس من المتيسر لنا اليوم قطعها بالمرة . على أنه من ذا الذى يستطيع أن يبرهن أن قطع تلك المناسبات مفيد لنا فى الوقت الحاضر من كل الوجوه ؟ إذن فالواجب علينا تعديلها وإفراغها فى قالب نستفيد منه فى نشأتنا الحاضرة .

انى أعتقد أن للانكليز اليوم منفعة اقتصادية فى بلادنا ، وأرى من الواجب علينا أن نعينها تعيينا واضحا ، وأن نحددها تحديداً بينا ، بحيث لا تكون مخلة باستقلالنا ، ولا مجحفة بمنفعتنا . ولا ريب أن المنافع الجارية بين الأمم اذا لم تكن متقابلة على وجه التبادل ، كانت ضربا من التحكم الذى تأباه أمة على غيرها .

هكذا يلزم أن تكون مناسباتنا مع الانكليز قائمة على تبادل المنفعة . فلنا عليهم أن يعترفوا باستقلالنا قبل كل شىء ، وأن يكونوا لنا عونا فى تثبت دعائم نشأتنا الحاضرة ، وتقدم بلادنا فى العمران ، دون أدنى سلطة لهم علينا ، ودون أدنى تدخل فى أمورنا السياسية .

ولهم علينا بمقابلة ذلك ، أن تكون منفعتهم الاقتصادية مضمونة لهم عندنا ، ومحفوظة لهم بأيدينا لا بأيديهم . ولا أنكر على الحكومة أن تستخدم بعض رجال

الإنـكليز فى خدمات نافعه عمرانية ، على شرط أن يـكونوا عندها كموظفين عراقيين ، بيدها عزلهم ، كما بيدها توظيفهم ، لشدة احتياجنا فى الوقت الحاضر إلى أمثال هؤلاء من رجال العلم والفن . ولا أجيز أن تـكون مناسباتنا مع الإنـكليز أكثر مما ذكرت .

أما المعاهدة التى عقدتها حكومتنا المؤقتة مع الانـكليز فـكل ما كان فيها موافقاً لما ذكرته هنا فهو مقبول ، وكل ما كان مخالفاً فهو مردود عندى .

هذه خطتى وهذا رأيى فى حالتنا الحاضرة . فإذا رآه أبناء بلادى موافقاً لمصلحة بلادهم ، وكانوا واثقين بصدق وإخلاصى ، فلينتخبونى نائباً عنهم . فإنى مستعد لأن أجاهد فى سبيل مصلحتهم العامة بكل ما عندى من حول وطول .

وأنا الآن غير منتسب إلى حزب من الأحزاب الموجودة فى العراق . ولـكن لمنتخبى أن أؤلف لهم حزباً فى المجلس التأسيسى نفسه، بعد تمام انتخابه جاريا على هذه الخطة التى لم أر فى الوقت الحاضر أنفع منها لبلادى .

معروف الرصافى

ملحق رقم (٣)

بيان معروف الرصافى حول المعاهدة المنعقدة بين العراق وبريطانيا فى ٣٠ حزيران ١٩٣٠[1]

أيها السادة :

إن المناقشة على مسألة مهمة جدية كهذه المسألة ، وهى المعاهدة بالطبع ، يجب أن نلتزم فيها السكينة ، وأن نتكلم بترو وهدوء ، وأن يحترم بعضنا بعضاً ، وإن كنا بالرأى مختلفين .

كلنا يرمى إلى غاية واحدة ، وهى سعادة البلاد ، وإذا اختلفنا فى الرأى ، فهذا الاختلاف ناشىء من وجهة النظر والاجتهاد فقط . وقد يمشى الرجل إلى الشرق ، والآخر إلى الغرب، وكلاهما يرقى إلى غاية واحدة . أما الاختلاف فهو ناشىء من وجهة النظر . فالذى يبت فى الأمر عن احتهاد يجب أن يحترم . ولـكن الويل كل الويل على من يبت فى الأمر عن تقليد . وألفت أنظاركم إلى أول معاهدة ، أو بعبارة أخرى ، إلى فـكرة المعاهدة من أين نشأت .

كلنا يعلم أن بريطانيا دولة منتدبة من قبل عصبة الأمم على العراق ، فهى جاءت لتعقد معاهدة مع هذه الأمة الضعيفة التى هى تحت انتدابها . وهذا أمر غير معقول إذن .

فمن أى فـكرة نشأت ؟

فأقول : على أثر تأليف الحـكومية العراقية المؤقتة، كان الشعب العراق، أو الرأى العام العراق ، يمقت الانتداب أشد المقت ، بحيث أن جميع طبقات الشعب فى الأندية ، والمقاهى والبيوت والأسواق كلهم يلهجون بكلمة واحدة وهى لا نريد الانتداب .

فلما رأى القابضون على زمام السياسة فى البلاد أن الرأى العام العراق بهذه المثابة

---

(١) عن محاضر جلسات مجلس النواب العراق (الجلسة السابعة) ١٩٣٠ .

أرادوا أن يأتوا الشعب من طريق المخادعة . فقالوا لهم نترك الانتداب ونأتيكم بمعاهدة. فافرغوا صك الانتداب بشكل معاهدة ، وجاءوا بها كما تعلمون ، وكانت المعاهدة ، ولكن هذه العملية كانت مقصورة بين بريطانيا والعراق ، أى أن بريطانيا لما تتكلم مع العراق، تتكلم معه بلسان دولة معاهدة . أما لو كانت عصبة الأمم فتكلمها بصفة كونها دولة منتدبة . وانتدابها مستمر إلى يومنا هذا بخلاف ما قال ناجى السويدى من أن الانتداب انتهى بالمعاهدة الثلاثية المعقودة بين بريطانيا وتركيا والعراق .

نعم إن تلك المعاهدة نفت الانتداب ، ولكن بريطانيا استمرت على انتدابها . وإلا فبأى صفة يرفع المعتمد السامى فى كل سنة تقريراً عن العراق إلى عصبة الأمم . أليس هذا بصفة كونه منتدب على العراق .

والحاصل أن هذه المعاهدة نشأت بصورة تمهيدية أى أن بريطانيا قصدت تبديل الانتداب بالمعاهدة . ثم أخذت تأتينا المعاهدات تترى واحدة بعد واحدة .

نخرج من سىء إلى أسوأ بواسطة المعاهدات .

والآن جاءتنا المعاهدة الجديدة تقول بأنها ترفع الانتداب عنا وتجعلنا أمة مستقلة بعد دخول عصبة الأمم . نعم هذا صحيح إذا كانت ترفع الانتداب وتجعل الشعب مستقلا . ولكن أرى أن هذه المعاهدات تشترك مع المعاهدات السابقة فى ثلاثة أمور :

الأول : ان هذه المعاهدة يجب قبل كل شىء أن تستند إلى قوة لتكون ذات قيمة فقيمة كل معاهدة تساوى قوة عاقدها . وبالنظر إلى هذه الحقيقة تكون معاهدتنا مع بريطانيا كمعاهدة الحمل مع الذئب . وما أدرى أية قيمة تكون لمعاهدة تقع بين الحمل (الخروف) والذئب ؟

الثانى : المعاهدات كلها تقوم على أساس تبادل المنافع ، وعلى أساس الغرم بالغنم وإلا كانت ضربا من ضروب اغتصاب البرئ والتسخير . وإذا لم تكن هناك منافع متبادلة كانت المعاهدة غير صحيحة . وكلما نظرت فى المعاهدات السابقة ، وفى هذه المعاهدة ، لم أجد إلا منافع لبريطانيا تضمنها هذه المعاهدة . وأما المنافع التى تضمنها بريطانيا تجاه هذه المنافع فما هى ؟ وهل ضمنت شيئا ؟ ماضمنت شيئا منها .

الثالث : نحن فى عقد هذه المعاهدات لسنا على اختيار بل على اضطرار . كلنا نعلم أن العراق فى قبضة بريطانيا الحديدية أو النارية ، وأن الانكليز لهم سلطة نافذة قهارة جبارة غدارة . ففى هذا الوضع نعقد مع الإنكليز معاهدة ! ! بمعنى أنهم يملون علينا ونحن نكتب . إذن ليس لنا الخيار بل بصورة الاكراه .

ولا أعرف مبلغ معاهدة تعقد بهذه الصورة من الصحة ! !

نعم ، هذه تخالف المعاهدات السابقة فى شىء واحد ، وهو أن هذه المعاهدات السابقة رفعت اسم الانتداب تجاه العراقيين فقط ، أما تجاه الغرب ، فالانكليز يعاملون العراق بصورة منتدبة .

ولكن التمويه فى هذه المعاهدة برفع الانتداب ليس تجاه العراقيين فقط ، بل تجاه أمم الغرب أيضاً ، وذلك بدخول العراق فى عصبة الأمم بين الدول المستقلة .

إن المفاوضات جرت على أساسين ، أحدهما ، دخولنا فى عصبة الأمم بلا قيد ولا شرط . أرجوكم إن هذه المعاهدة فيها سبعون ألف شرط وقيد ، ونحن ندخل عصبة الأمم بموجبها ، فما معنى بلا قيد ولاشرط ؟ ! أليست هذه المعاهدة كلها قيود وشروط .

أقول إذا دخلنا عصبة الأمم وبيدنا هذه المعاهدة ، فاننا لا نكون مستقلين حتى ولو دخلنا قدس الأقداس وملكوت السماء . فمن العجب أن نستقل وبيدنا هذه المعاهدة ! ! ثم إن هذه المعاهدة لا تنفذ إلا بعد دخولنا عصبة الأمم ، ودخولنا فيها يكون فى سنة ١٩٣٢ ، فما هذه العجلة كما قال الهاشمى ؟ ولماذا تمضى المعاهدة قبل سنتين من تنفيذها ؟ .

فلنتبصر ولنتريث على الأقل قبل نصف سنة من تنفيذها ، وننظر بها حينئذ ثم ندخل على أثر ذلك عصبة الأمم .

هذا ما أريد أن أقوله .

ملحق رقم (٤)

الرصافى يتحدث عن فلسطين[1]

التقيت مع شاعر العرب الكبير معروف الرصافى من غير موعد وتحديد ساعة لقاء . وهنا دار بينى وبينه حديث وطنى يتعلق بسير القضية الفلسطينية ، وتصميم العرب الحازم على سحق اليهودية العالمية ، وتخليص البشرية من شرورها وآثامها .

قلت : ما هى نصيحتكم للشعوب العربية لكى تستخلص أوطانها من العدوان الصهيونى الأثيم ؟

أجاب : قبل كل شىء الاتحاد وتفادى كل نزعة أو هفوة طارئة تخل بهذا الإتحاد وقد علق عدونا آمالا جساماً وأفكاراً مستحبة لفكرته وعقيدته لوجود بعض الخلافات الطفيفة التى يتحتم زوالها حالما يداهم عالمنا العربى خطر محدق واعلم أنه :

ولولا اتحاد العنصرين لما غدا من النار يذكو لو علمتم وقودها

قلت : ما رأيكم بالدولة اليهودية المزعومة ؟

قال : إنها ولدت ميتة ودورة حياتها من المهد إلى اللحد ، وستكون شؤما على نفسها وعلى اليهود أنفسهم وأنا والله :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها

قلت . وهل الفكرة الصهيونية مبدأ يستسيغه العقل ويستذوقه الفكر السليم ؟

أجاب :

هم الأشرار باسم الدين قاموا فعاثوا فى الواطن مفسدينا

قلت : هناك تفاوت فى الخلق ، وبون شاسع بين انسانية العرب وغدر اليهود اللئام ، لقد أجهزوا على جرحانا ، وأبقروا بطون نسائنا ، وذبحوا أطفالنا ، وأما نحن

(١) جريدة الاستقلال العدد ٤١٤٧ سنة ١٩٤٨ .

العرب ، فها هى ذى القدس القديمة تشهد بكرامتنا وعلو نفوسنا وترفعها عن استعمال الأساليب الوحشية والبربرية تجاه اليهود وأسرى اليهود .

قال : (وتأبى الضوارى أن تكون ضباعا) .

قلت : وهل السيف وحده كفيل بانجاز مهام العرب ، وتخليصهم من صنوف الاستعمار الغربى وقسوته ؟

أجاب :

ومن رام فى سوق المعالى تجارة فليس سوى بيض المساعى نقودها

قلت : وإذا تكالبت علينا أطماع الدول الاستعمارية الكبرى وغلبنا على أمرنا لاسامح الله ؟

فقال : إن مفتاح الحرب بيد العرب ، فليشعلوها حربا ثالثة لاتبقى ولاتذر ، دفاعاً عن كرامتهم وحقهم البين الواضح . وما دامت فلسطين مستعرة فى حرب فلا استبعد قيام حرب عالمية ثالثة تعيد إلى الدول الكبرى ذاكرتها التى فقدتها تحت تأثير أطماعها الدنيئة وشهواتها الرذيلة . واعلم أن :

النار تلهب من سقوط شرارة والماء تجمع سيله القطرات

ولكن لابد وأن يكون النصر حليف العرب وأنف العدو راغم لأنه :

إذا نحن قمنا محنقين رأيتنا ندك جبال الظلم ننسفها نسفاً

قلت : ما هى الخطط العسكرية التى تفضلونها على غيرها فى أعمال فلسطين الحربية

فقال : هناك بحر وجو وبر . أما من البحر :

سعروها فى البحر حربا ضروساً تأكل المال نارها والنفوسا

أما من الجو :

ارسلو الموت فى قنابل كالشـ ـهب مستأصلا عتريسا

طالما بانفجارها انفلق البحر انفلاقا مذكرا (عهد موسى)

وأما فى البر :

جيوش ترد الهضب فى السير صفصفاً وتعرك فى تسيادها الجنب بالجنب

قلت : ما رأيك فى هذا الشعور العربى الموحد ، وهذا الاتفاق التام المفرح ؟

أجاب :

هى الأوطان تجعل من بنيها أخاء فى محبتها رصينا

قلت : لقد دافعت طوال أيام حياتك عن المرأة . وها هى اليوم بيضت وجوه أهلها العرب ، وسودت وجه أعدائهم . وهل سرك نبأ تطوعها فى جميات الهلال ، ومرافقتها للجيوش العربية لتضميد جرحى جنودها ؟

أجاب : إنى معجب بهذا الشعور الجنسى المشترك فى سبيل الذود عن حمى الوطن الحبيب ، وأنا شخصياً :

ما أنسى التى برزت وقالت وقد لفتوا لرؤيتها العيونا
خذونى للوغى معكم خذونى ممرضة لجرحاكم حنونا

وقبل أن أودعه وداعى الحار الأبدى ، سألته أن يعطينى وصيته إلى الجيوش العربية ، فسلمنى مانصه :

على الباغين منتصرين سيروا وعودوا للديار مظفرينا
ولاتبقوا الذين قد استبدوا وراحوا كيدنا وتخونونا

تحقيق بقلم
كاظم جواد

ملحق رقم (٥)

قصائد لم تنشر

جنون الزمان أو « الفترة المجرمة »

أضحكتنا ورب ضحك بكاء فترة فى زماننا رعناء
فترة ضاعت المقاييس بين النـ ـاس فيها وساءت الأهواء
خلقت من حثالة الناس رهطا عرفت بعد خلقه الأدباء
لمة من بين الشوارع عاشت حيث عاش الأوغاد واللقطاء
فتحت عينها على السغب المر فكادت أن تيبس الأمعاء
حشرات طلعن من طبقات الا رض لما استقبت الأدعياء
وجراثيم حين لاومها الما ء فيخشى من سمهن الوباء
رفعتها من الحضيض ولم تر فع نهاها فسمها الخيلاء
وكذلك اعتلاء من ليس أهلا للمعالى مصيبة وبلاء
يالها فترة من الدهر فوضى يستوى الهدم عندها والبناء
كثر الانتحال فيها وبانت تستغل الألقاب والأسماء
لم تفتهم إلى التخلى لولا أنهم فى أصولهم فقراء
ليت شعرى والعهد غير بعيد غبي الناس أم هم أغبياء
وبماضيهم إذا الدهر ولى فالألى يعرفونهم أحياء
كيف لا ترقبين كل عثار من قصير عليه طال الرداء
غيره المرتقى فظن بأن النـ ـاس حاشاه أعبد واماء
وله وحده الكرامة والعز ة والمجد والنهى والعلاء
تقرأ العجب فيه حتى نظرات ملؤها الاحتقار والازدراء
مطرق إن مشى كمن أشغلته لحلول المشاكل الآراء
لو تصفحته وجدت ثياباً فوق جسم كأنه المومياء

وكثيرون لو تطلعت فيهم ... كأسان فى جوفهن الهواء
مجدب كالسباخ من كل خير ... جل ما فى جرابه الكبرياء
إن تسل منه فالجواب اقتضاب ... أو تسلم فرده إيماء
أفترجو من المغايظ زهراً ... ونبات المغايظ الحلفاء
وإذا ما نسبته قال إنا ... من اياد وغيرنا الأدعياء
أنا من حامل اللواء بذى قا ... ر أبونا وأمنا البرشاء
وبنو عمنا الأراقم من تغ ... لب والأعسيان والخنساء
دارنا الغور والعذيب ووادى ... الجزع والأبرقان والدهناء
وخيول السراة تشهد أنا ... عرب ليس غيرنا عرباء
هكذا تفعل المهازل فى الدنـ ... يا وتقضى الغباوة العمياء
وكذا يكثر الرخاء خفيف الـ ... وزن من حيث لم يسعه الإناء
مرضى يشبه الجنون وحمى ... القوم هاجت من خبثها الصفراء
أوهت الجسم رعشة خرساء ... وقد اعصوصبت بها الأعضاء
تتغنى بها البلاهة والطيـ ... ش وبعض من الغناء رثاء
لا تلمه فقد رأى فوق ما لم ... يتصور وانجاب عنه الشقاء
من رياش تحفه فى القاصير ... وكانت تلفه القرفصاء
وتراه على الأرائك جذلا ... ن وقد كان فى العراء تواء
وتخب السيارة اليوم فيه ... بعد ما خدا ضمضية الحفاء
أيها الفترة اقترفت ذنوباً ... قد تلقى عقابها النبلاء
ليس هذا الزمان إلا كتاب ... أتت منه الصحيفة السوداء
فيك راح الهوى يخط ويملى ... لم تقيده ذمة وحياء
طالما غرت الظواهر عينى ... وتغطى على الظنون الرياء
ثم دارت رحى الزمان فأبدت ... للألى ما انطوى عليه الخفاء
رب داء ترى من العار شكوا ... وشكوى يثنيك عنها الاباء

معروف الرصافى

قل لسلمان الشيخ داود

على أثر موقفه فى مجلس النواب منددا بالوضع العربى

قل لسلمان بعد ما كان حراً ... كيف قد جاز رقه والآسار
إن ما قلته فى القول هجر ... منكر لا تقوله الأحرار
وطن المرء عرضه وهواه ... وعلى العرض كل حر يغار
كل شىء يعار فى الناس إلا ... العرض منهم فإنه لايعار
أرذل الناس من يقوم عليهم ... أجنبى فى أمرهم يستشار
هو يدعى بالمستشار ولكن ... هو فى الحكم آمر قهار
كيف يسمى إلى العلى فى أمور ... ليس فيها رأى لنا واختيار
فبذا ركن عزنا يتداعى ... وبذا صرح مجدنا ينهار
إن للأجنبى فينا لحكما ... أسدلت دون جوره الأستار
فهو يقضى بحكمه غير مسئـ ... ـول قضاء به الأمور تدار
إن أدمون فى الوزارة باق ... يترجى فى بهوها ويزار
يملك البت فى الأمور ولكن ... لا يقولون إنه مستشار
فاعتبر فالألفاظ دون المعانى ... إذ بها جفى عندنا الإنكار
وكذلك استقلالنا غير معنا ... ه فأضحى للفظه الاعتبار
ولادمون من ذوية رجال ... كلهم فى ظهورنا أوزار
قد تولوا تموينا عن خداع ... فارتقت فى غلائها الأسعار
واستمرت أقواتنا فى انتقاص ... وتفشى فى سوقها الاحتكار
ولهم فى مدى العراق جيوش ... لجراد له علينا انتشار
ولكم شيد فى العراقين حصن ... ومطار لجيشهم قطار
هم بذا هيئوا البلاد لحرب ... لم تقد عندنا لها اليوم نار
كيف نصلى الحرب التى نحن فيها ... لا ذحول لنا ولا أوتار
كيف نصلى الحرب التى وصلتنا ... عن ذويها مهامة وبحار

إن هذا فى الحكم منهم لظلم ... وهو عار عليهم وشنار
وهو نقض لما جرى من عهود ... حكمها من خداعهم مستعار
فلماذا تراك تدعو إليهم ... وهم اليوم ذلنا والصغار
أى شىء تريده بعد هـذا ... أخنوع أم هيبة أم دمار
فإذا كنت تبتغى المسخ فينا ... كى يعيش الإنسان وهو حمار
فسل الله أن نـكون حميرا ... قد عراها من الهوان تغار

الأعظمية فى ٢٧ نيسان ١٩٤٢ .

إلى أبى هاشم

إليك يا مصطفى غراء شاردة ... ضمنتها من شجون النفس ألوانا
أبلـغ أبا هاشم عنى مغلغـلة ... يصيح فيها القريض الغض شكرانا
قد جاءنى مصطفى منـكم بمالـكة ... تحكى الفريد وإن فاقته اثمانا
فضمدت بى جرحا غير مندمل ... وهيجت فى سواد القلب أشجانا
إنى عهدتك حر النفس متخذا ... لك العلا مأربا والصـدق ديدانا
أحسنت ظنك بى إذ جئت تمدحنى ... بمـا به زدت حسن الظن إحسانا
نحاك جـد كريم للعـلا قـلذا ... زكوت نفسا كما قـد فقت تبيانا
ظننتنى قـد هجرت الشعر مذ زمن ... وهـل أطيق لحب النفس هجرانا
ذاك الحبيب الذى أوسعته مقة ... منى وصـيرته للمجـد عنوانا
قـد شـفنى حبـه حتى هجرت له ... طيب المنـام وبت الليل سهرانا
أصحو إذا هو يصحو طول ليلته ... وانتشى مثله إن بات سهرانا
سله إذا شئت عنى هـل رأى أحدا ... سواه لى فى ارتشاف الـكأس ندمانا
إن الهموم بصدرى إن هى اعتلجت ... لم ألف إلا به عنهن سـلوانا
وإن شدوت به فى الحفل مفتخرا ... أوقعت فيه من العلياء ألحانا
ما زلت منه بأفـكارى على صـلة ... صدرى يجيش به كالبحر أحيانا
لـكننى اليوم آبى أن أبوح به ... فى معشر أوغلوا فى المين طغيانا
يستنـكرون من الأحرار لهجتهم ... ولا يقيمون للأفـكار أوزانا
وكيف أنشد شـعرا فى سـواسية ... شـدوا الخناق به بغيا وعـدوانا
وأى معنى لشعر فى ذوى صلت ... لا يفسحون لحر الفـكر ميدانا

وهل يجوز وقد راموا تبذله ... إلا أكون عليه اليوم غيرانا
هم أنكروا موقفى فيه وهم علموا ... أنى رفعت به للمجد بنيانا
فأقبل أبا هاشم فى الشعر معذرتى ... أدامك الله للأحرار معوانا
خذها أبا هاشم بكراً مخدرة ... جاءت لذهنك فى الإبداع برهانا
تطابق اللفظ والمعنى فكان بها ... كالزهر فى الروض فواحا وريانا

الأعظمية فى ٢٦ كانون الثانى ١٩٤٢ .

يا بنى الرافدين

يابنى الرافدين مالى أراكم ... فى أباطيل كلكم مبغضوها
فعل الإنكليز فيكم فعالا ... قد رضوها لكم ولم ترتضوها
تتشككون فى السياسة منها ... ثم أنتم تأبون أن ترفضوها
وعدوكم من قبل مملكة العرب اجتلوها باللين وافترضوها
قبة زخرفت لكم بالأمانى ... هم بنوها لكم وهم قوضوها
حركو للقتال فيكم عروقا ... باكاذيب وعدهم انبضوها
يوم هجتم على ذويكم بضرب ... بسيوف ماجاز أن تنتضوها
فلما لاتنقضون عهودا ... بعهود هم قبلكم نقضوها
ما أصحوا بلادكم بالمواعيد ولكن بخلفهم أعرضوها
اخسروها بمكرهم كل حق ... وبغير الوعود ماعرضوها
هل نسيتم جيوشكم يوم جاءوا ... فقضوا فى البلاد واستنعضوها
تلك والله حالة حار فكراً ... فى عماها البعيد مستعرضوها

بغداد فى ١٧ تشرين الثانى ١٩٤١ .

النحاس فى مصر

أرى مصطفى النحاس فى مصر تنطوى ... سياسته للانكليز على ود
وقد كان قبل اليوم يمقت رأيهم ... وينهج فى تفنيدهم منهج الوفد
فهل كان كرسى الوزارة غاية ... لمظهره من قبل فى مظهر الضد
ألم يعتبر والاعتبار أخو النهى ... بما قام فى سوق السياسة فى الهند
فسبحان من فى العرب قد أرخص الهدى ... فباعوه بخساً بالضلال الذى يردى

بغداد فى ١٠ نيسان ١٩٤٢ .

قصيدة

نوحى على المجد التليد ... يا نفس والحكم الرشيد
عصفت بهم ريح الصبا ... ح وهدهم حكم السعيد
قال السفير وما لكم ... ياقوم بالجيش العديد
يكفيكم جيش الهنو ... د وهل أبر من الهنود
سس الذباب تراه يزخـ ... ـر بالفيالق والبنود
فكلوا وناموا واستريحـ ... ـوا من عنا الجيش الشديد
يا كورنوالس قد نطقت الحـ ... ـق فى عصر الجمود
ليس العراق بأمة ... تبنى على الماضى المجيد
وشبابه لا يصلحون ... لغير تلوين الخدود
لو كان فى هذى المواطن ... من يضحى بالوجود
لرأيت وادى الرافدين ... يميس من برد جديد
ولما تبختر فى رباه ... هازئاً أحد القرود
لهفى على غازى الهمام ... القائد البطل الشهيد
ترك القيادة فاستقـ ... ـرت فى يد الغر البليد
عبد السفير وهام ... فى حب الأبالسة اليهود
يقضى النهار منعما ... بين الجوارى والعبيد
منق نقى عنه الكياسة ... والدراية من بعيد
يا أيها الرجل السعيد ... ولست بالرجل السعيد
من للعراق يصونه ... من كل جبار عنيد
جردته من أسده ... فغدا العرين بلا أسود
لكم من الأيام يوم ... يستجير به قصيدى
لن يخذل الله العراق ... وان غدا ملهى القرود

بغداد فى ١٩٤١ .

المصادر[1]

(أ) الكتب الأدبية :

الديوان	(الطبعة الرابعة)	القاهرة ١٩٥٣
الرصافى صلتى به ، وصيته ، مؤلفاته	مصطفى على	القاهرة ١٩٤٨
أدب الرصافى نقد ودراسة	مصطفى على	القاهرة ١٩٤٧
محاضرات عن معروف الرصافى	مصطفى على	القاهرة ١٩٥٣
معروف الرصافى دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية	الدكتور بدوى طبانة	القاهرة ١٩٥٧
أدب المرأة العراقية	الدكتور بدوى طبانة	القاهرة ١٩٤٨
آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع	سعيد البدرى	بغداد ١٩٥١
الرصافى فى أعوامه الأخيرة	سعيد البدرى ونعمان ماهر الكنعانى	بغداد ١٩٥٠
القومية والاشتراكية فى شعر الرصافى	هلال ناجى	بيروت ١٩٥٩
الأدب العصرى فى العراق العربى	رفائيل بطى	القاهرة ١٩٢٣
على المحك نظرات وآراء فى الشعر والشعراء	مارون عبود	بيروت ١٩٤٦
دراسات فى الشعر العربى المعاصر	الدكتور شوقى ضيف	القاهرة ١٩٥٩
الشعر العراق أهدافه وخصائصه فى القرن التاسع عشر	الدكتور يوسف عز الدين	بغداد ١٩٥٨
نهضة العراق الأدبية فى القرن التاسع عشر	الدكتور محمد مهدى البصير	بغداد ١٩٤٦
محمود شكرى الألوسى وآراؤه اللغوية	محمد بهجة الأثرى	القاهرة ١٩٥٨
المدخل فى تاريخ الأدب العربى	محمد بهجة الأثرى	بغداد
الشعر والشعراء فى العراق ١٩٠٠ — ١٩٥٨	أحمد أبو السعد	لبنان ١٩٥٩
محاضرات عن الشعر العراق الحديث	عبد الكريم الدجيلى	القاهرة ١٩٥٩

(١) هذه المصادر هى التى جاء ذكرها فى الرسالة ، وهناك مصادر أخرى لم نذكرها لأن فائدتها لم تكن مباشرة .

نظرات فى التيارات الأدبية الحديثة فى العراق	الدكتور جميل سعيد	القاهرة ١٩٥٤
الأدب العربى الحديث فى معركة المقاومة والتجمع من المحيط إلى الخليج	أنور الجندى	القاهرة ١٩٥٩
الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث	أنيس المقدسى	ج ١ الطبعة الأولى
تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر	الأب لويس شيخو	بيروت ١٩٢٦
النقد الأدبى أصوله ومناهجه	سيد قطب	القاهرة ١٩٦٠
الشوقيات	أحمد شوقى	ج ١ القاهرة
ديوان حافظ إبراهيم	حافظ إبراهيم	ج ١ القاهرة ١٩٢٢
الطراز الأنفس فى شعر الأخرس	عبد الغفار الأخرس	
ملامح المجتمع العراقى	الدكتور زكى مبارك	القاهرة ١٩٤٢

(ب) الكتب السياسية :

يقظة العرب تأليف جورج انطونيوس ترجمة	على حيدر الركابى	دمشق	١٩٤٦
تاريخ العراق السياسى الحديث	عبد الرازق الحسنى	لبنـان	١٩٤٨
محاضرات عن العراق من الاحتـــلال حتى الاستقلال	عبد الرحمن البزاز	القاهرة	١٩٦٠
من وحى النعروبة	عبد الرحمن البزاز	القاهرة	١٩٦٠
محاضرات فى نشوء الفـكرة القومية	ساطع الحصرى	القاهرة	١٩٥١
آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية	ساطع الحصرى	بيروت	١٩٥٧
البلاد العربية والدولة العثمانية	ساطع الحصرى	القاهرة	١٩٥٧
مقدمة فى دراسة العراق المعاصر	الدكتور زكى صالح	بغـداد	١٩٥٣
تاريخ العراق بين احتلالين	عباس العزاوى	بغـداد	
أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث	تأليف لونـكريك ترجمة جعفر خياط	بغـداد	١٩٤١
الدولة العربية المتحدة	أمين سعيد	القاهرة	
فى غمرة النضال	مذكرات سليمان فيضى	بغـداد	
قلب العراق	أمين الريحانى	بيروت	١٩٣٥
مختصر تاريخ بغـداد	على ظريف الأعظمى	بغـداد	١٩٢٦
النظام السياسى فى العراق	الدكتور محمد عزيز	بغـداد	١٩٥٤
الأمة العربية فى معركة تحقيق الذات	محمد المبارك	دمشق	١٩٥٩
النفط مسنعبد الشعوب	يوسف ابراهيم يزبك	بيروت	١٩٣٤
بحوث فى السياسة	الدكتور أحمد سويلم العمرى	القاهرة	١٩٥٣
السياسة والاستراتيجيه فى الشرق الأوسط	الدكتور حسين فوزى النجار	القاهرة	١٩٥٣

(ح) الجرائد والمجلات :

جريدة البلاد	عدد ١٨٨	سنة ١٩٣٠
جريدة البلاد	عدد ٢٤٣٦	سنة ١٩٤٥
جريدة البلاد	عدد ٢٤٥٩	سنة ١٩٤٥
جريدة البلاد	عدد ٥٢٧١	سنة ١٩٤٥
جريدة النداء	عدد ٨١٦٩	سنة ١٩٤٥
جريدة الاستقلال	عدد ١٩٣	سنة ١٩٢٣
جريدة الاستقلال	عدد ٤٠٨١	سنة ١٩٤٨
مجلة الحرية	عدد ١	سنة ١٩٢٥
مجلة الأديب	عدد ٥	سنة ١٩٤٥
مجلة الرسالة	عدد ٦١٢	سنة ١٩٤٥
مجلة الرسالة	عدد ٦١٤	سنة ١٩٤٥
مجلة الثقافة الجديدة	عدد ١	سنة ١٩٥٤
مجلة الوعى	عدد مايو	سنة ١٩٥٩

فهرست

الموضـــوع	الصفحة
الإهداء	٣
تمهيد	٥
المقدمة	١١

الباب الأول

دراسة فى بيئة الشاعر السياسية والأدبية

حتى منتصف القرن العشرين

الفصل الأول : البيئة السياسية	٢٥
الفصل الثانى : البيئة الأدبية	٤٢

الباب الثانى

الفصل الأول : حياته السياسية	٥٩
الفصل الثانى : الرصافى سياسياً	٩١
الفصل الثالث : الإصلاح هدفاً سياسياً	١٠٢

الباب الثالث

الأحداث السياسية

الفصل الأول : أدبه فى العهد العثمانى حتى إعلان الدستور	١٢١
الفصل الثانى : إعلان الدستور وخلع السلطان عبد الحميد	١٣٧
الفصل الثالث: الرصافى والاتحاديون	١٤٦
الفصل الرابع : الثورة العربية الكبرى	١٥٥
الفصل الخامس: بين الانتداب والاستقلال	١٧٢

الموضـــوع	الصفحة

الباب الرابع

أدبه فى القومية العربية	٢٠١

الباب الخامس

خصائص شعره السياسى	٢٢٩
الملاحق	٢٤٥
المصادر	٢٧٠
الفهرست	٢٧٤

مكتبة مؤرخ وكراسة مجلس شورى النواب المصرى
تأسس ١٣٠٢ هجرى شمسى

1:0.800,0.850,0.890,0.964;2:0.800,0.031,0.890,0.110